
عصير
الكتب
fb.com/groups/Book.juice


ولو بعد
حين



الكتـــاب :ولو بعد حين

المـــؤلـــف : دعاء عبد الرحمن

تصميم الغلاف :أحمد فرج

تنسيـق داخلي : سمر محمد

تـدقيق لغـوي:أسامة الوحش

الطبعة الأولى: ينـايـر 2018

رقــم الإيــداع : 2017/28432

978-977-6541-53-5 :I.S.B.N

المدير العام:محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

ولو بعد حين

رواية

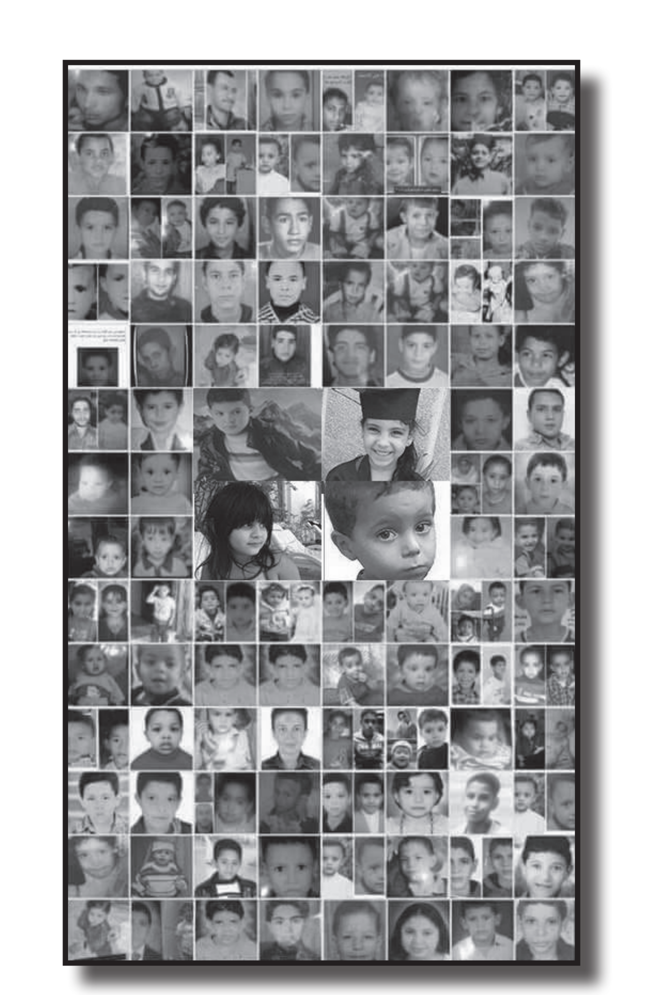
دعاء عبد الرحمن



إهـــداء

إلى كلِّ تلك الأرواح البريئة التي انتـُـزِعَتْ بغير حقٍّ

إلى عصافير الجنَّة التي خرجَتْ ولم تعُدْ ..!



أن تجدَ الحبَّ شيءٌ

وأن يجدَكَ هو شيءٌ آخرُ ..!

مسافةٌ طويلةٌ تقطعها على قدَمَيْها بعد انتهاء عملِها في تلك الورشة الصَّغيرة القابعة تحت السُّلَّم المخصَّصة لحياكة ملابس الأطفال، والتي تعمل بها منذ ثلاث سنوات، في كلِّ يوم منها كانت تتوقَّع انهيار ذلك المبنَى القديم المُتهالِك فوق رؤوسهنَّ جميعاً؛ فتُسَوَّى الورشة بالأرض، ولكن هذا لا يمنعها من الوصول لعملِها في الموعد المعتاد، ثمَّ هبوط ثلاث درجاتٍ إلى الأسفل وصولاً إلى المَدخل المُمتلىء بقِطَع القماش المُلوَّنة الفائضة من المصانع الكبيرة التي تبيعه لتلك الوِرَش بالكيلو؛ لتصنَع منه ملابس للأطفال يتمُّ ترويجها في الأحياء المتوسِّطة والشَّعبيَّة بعد أن تُوضَع عليها علامةٌ لماركةٍ مشهورةٍ.

خطوةٌ أخرى وتصِل إلى مُنحنىً آخر، السيارة الخشبيَّة الخاصَّة ببيع الخَضْراوات صباحاً مرصوفةٌ كالعادة تحت نفس البِناية المُتهالِكة هناك، محلُّ الحِلاقة على اليمين مُغلَقٌ بالطَّبع؛ فاليوم هو الاثنين من أيَّام الأسبوع، هي على استعداد أن تُغمض عينَيْها وتسير دون أن تتعثَّر، فلقد حَفِظَت الطَّريق عن ظهر قلبٍ بكلِّ مُنحنياته، وبِرَكِه المائية، ومحالِّه المُغلَقة والمفتوحة، وعدد بِناياته المُتلاصقة، حتى وصلَتْ إلى المُنحنى المُنتظر الذي اعتادَت قدماها أن تحُثَّ السير من بدايته إلى طريقٍ آخرَ أكثر أمناً، كما اعتاد قلبها على سرعة ضرباته هنا تحديداً، الشارع الضيق يظهر كأنه لا ينتهي بفضل تلك الإضاءة الضَّعيفة الصَّادرة من عامود الإنارة البائس صاحب الأمعاء السلكية الظَّاهرة للعيان فوق الرَّصيف المُتهالِك الأكثر بؤساً منه.

خُطوةٌ أُخرى كانت كافيةً؛ لتُلاحِظ الشاحنة الصغيرة الرماديَّة التي تعرفها جيداً مرصوفةً هناك على بُعد خُطواتٍ قليلةٍ، سقفُها يحمل الأتربةَ المُلتصِقة به كالمُعتاد.

دونَ إرادةٍ تباطأتْ خُطوات «غفران» حتى توقفَت تماماً عندما اقتربَت من الشاحنة بوَجَلٍ، وذِهنُها مشغولٌ يحاول أن يجد تفسيراً لتواجدِها هنا في تلك الساعة المُتأخِرة من الليل، بل وخُلُوّها من صاحبها تاركاً بابها مفتوحاً؛ «عريس الغفلة» الذي يكبُر والدَها نفسَه في العمر، والذي ارتدَت خاتم خِطْبته منذ سنواتٍ ثلاثٍ.

أطرقَت برأسها وهي تُطلِق آهةً شاردةً كَشُرود استدارتها البطيئة وهي تستعدُّ لاستكمال طريقها مُجدداً، كل شيءٍ في تحركاتها يُنبئ بأنَّها في عالم آخرَ، وكأنَّها تسير بداخل عقلِها أولاً؛ لتعرف أيُّ السُّبل تسلك؟، كمَن أوشكَ على الوقوع في بئرٍ سحيقةٍ، ولا يملك قرار التوقف أو الرجوع.

أياً كان سبب شرودها الآن فهو لا يشغل تفكير ذلك الرَّابض في الزاوية المُظلمة القريبة منها، يستعدُّ لتنفيذ الخُطة التي اضطُرَّ إلى ارتجالها بعد أن فقد أَثَر فريسته الأولى، لتكون هي الطُعم الذى سيوُصله إليه !..

تحرَّك نحوها بخُطواتٍ حذرةٍ كالفهد بعد أن تأكَّد من عدم وجود مارَّة هنا أو هناك، وحانت الفرصة، انقضاضةٌ واحدةٌ من الخلف كانت كافيةً؛ ليشُلَّ حركتَها بشماله، وباليُمنى كمَّمَ فمَها بقطعةٍ قماشيةٍ تحوي مخدراً قوياً سريع المفعول، وقبل أن تُفيق من صدمتِها تخلى عقلها عن وعيه فى لحظاتٍ، وتراخَت ذراعاها المُتشبثتان بقبضته بذهولٍ حول فمِها، وتنازلَت قدماها عن حمْلِها مُلقيةً بنفسها نحو صدره كهديَّةٍ ثمينةٍ.

ضوضاء وتشوشٌ يُصاحبانها، أحاطا بعقلها، غَمامةٌ سوداءُ باهتةٌ تزحف بعيداً عن وعيها؛ لتسمح بتأوُّهاتٍ خافتةٍ مُتلاحقةٍ تنطلق من صدرِها؛ لتبدأ ذاكرتها باسترجاع اللحظات الأخيرة قبل أن تفقد الوعي، تشنجَ جسدُها فجأةً بعدما عَمِلت حاسة الشمِّ خاصتُها وهي تلتقط بقايا الرائحة النَّفاذة التي كانت مخلوطةً بقطعة القماش العريضة التي كمَّمَها بها، والتي ما زالت عالقةً حول جِيدِها.

يبدو أنه أراد أن تظلَّ فاقدةً وعيَها لفترةٍ طويلةٍ، فلم يكتفِ بكتم أنفاسها، بل قام بعَقْد القماش حول أنفِها وفمِها، ولسببٍ ما تهدلَتِ العُقدة، وسقطَت حول رقبتها العارية .. عارية ؟! .

عندما وصلت حواسُّها لتلك النقطة، قاومَت ثُقل جفنيها بفزعٍ، وهي تحاول فتح عينيها مراتٍ ومراتٍ، وجسدُها يتشنَّج من جديدٍ في اختضاضةٍ أكثر فزعاً وقوةً من سابقتها، وهي تستشعر عُريَ شعرها ونحرها أسفل الغطاء الأبيض الباهت المُلقَى فوق جسدها بإهمالٍ.

ذلك الألم شديد النَّزع الذي يضغط حول مِعصَمَيْها جعلها تستوعب أنَّ يدَيها مكبَّلتان بشيءٍ ما فوق رأسها، الرؤية ما زالت مُشوشةً قليلاً من أثر المخدر وكأن كل الصُّور تتداخل وتمتزج بشكلٍ مُمَوَّهٍ مُزعجٍ يزيد من صداع رأسها، مقاومَتها لِمَا يُكبل يديها تزيد تدريجياً مع زيادة نبض قلبها الذي يضخُّ الدم في عروقها بجنونٍ، وقد تمكن منها الرعب قبل أن تفتح عينَيْها تماماً، وتُدرك وضعها الصعب.

غرفةٌ ضيقةٌ بجدرانٍ قاتمةٍ عاريةٍ تماماً من الصور المُعلقة والستائر، لا يكْسُوها سوى طبقات الغُبار، نافذتها الصغيرة جداً والوحيدة تقبع هنالكَ بعيداً في الزاوية أسفل سقفها المُرتفع بقليلٍ، موصودةٌ بألواحٍ خشبيةٍ تُكافح أشعة الشمس للولوج من بينها.

السرير المُكبلة فوقه بأعمدةٍ نُحاسيةٍ صفراءَ يتحرك بصريرٍ مزعجٍ كلما حارَبَت وهي تحاول جذب رُسْغَيْها من قيدهما الحديديِّ المُثبت بأحد أعمدة الفراش كالمجانين ذوي الخطر .

استجمعَت قوتها، وأغمضت عينيها وهي تَشُدُّ يدَيْها بقوةٍ وجنونٍ لا تُبالي بالألم المُستشرِي بهما، مرةً وثانيةً وثالثةً.

وفجأةً توقفَت عندما سمعت صوته الساخر الذي جذب انتباهَها نحو الباب الخشبيِّ العريض في زاويةٍ من تلك الغرفة الغريبة التي تبدو كأنَها جزءٌ مُقتطَعٌ من مكانٍ آخر أكبر منه.

- أخبريني عندما تنتهين.

تجمد بصرها ذاهلةً فوق سطح وجهه البارد النظرات، تحجر الدمع بعينَيْها وَعَلِقَتْ آخر قطرةٍ منه بأهدابها وهي تهمس باسمه:

- حسن؟!!

كان واقفاً مُستنداً بكتفه إلى حافة الباب المفتوح عاقداً ذراعيه فوق صدره، هو لم يتغير كثيراً عما كانت تعرفه، ما زال مُتجهِّماً حتى وهو يسخرُ منها.

الجملة الوحيدة التي نطق بها واضحةً دون تقطيع أنبأتْها بأن تلك اللعثمة التي كانت تجعله يتوقف مُرغَماً أثناء حديثه القليل قد زالت، فلقد كانتِ الكلمات تقف في حلقه، فيحتقن وجهُه وهو يجاهد لاستكمال عبارته.

هل طالت قامَتُه في تلك السنوات التي لم ترَه بها أم أنَّ سنوات سجنه منحَت جسده ضخامةً وقوةً توحي بذلك ؟.

يبدو أنه ما زال يُمارِس الملاكمة كما كان يفعل هناك؛ في الساحة الشعبية الواسعة التي تحتل قُمَامة الحارة القديمة زاويةً واضحةً منها ... ولكن مَهلاً.

هذا كلُّه لم يعُد يَعنيها، بل لا يجب أن يعنيها الآن تحديداً، وهي مُحتَجزةٌ هنا تحت رحمته، هل أصبح مُجرماً بالفعل؟!.

اقترب منها ببطء حتى وصل إلى الفراش الصغير، انحنى للأسفل جاذباً سَلْساالاً معدنياً طويلاً، ينتهي أحد طرفَيه بكُلَّابةٍ تُحيط بقدمها اليمنى، أما الطرف الآخر فمُثبتٌ بحلقةٍ حديديةٍ في الجدار بجوار السرير مباشرةً، إنها أسيرتُه حرفياً، لقد ذاقت شعور الاحتجاز من قبلُ، إلا أن هذه هي المرة الأولى لها في اختبار القيود الحقيقية، ودون أن تعرف لماذا ؟.

احتفظ هو بمنتصف السلسال الطويل مُعلقاً داخل قبضته مُلقِياً إليها بالتعليمات ببساطةٍ، وكأنه يُحدثها عن الطقس قبل أن يُلقيه على الأرض بِدَوِيٍّ مكتومٍ:

– السلسلة طولُها يسمح لكِ بدخول الحمام المُلاصق بابه لباب هذه الغرفة.

أنهى جملتَه بإشارةٍ من سبَّابته تجاه الباب المفتوح.

لحظةٌ، اثنتان، ثلاث .. لا تتكلم، صامتةٌ مذهولةٌ كما هي تناظره بعينَين شاخصتين تتجمع بداخلهما دموعٌ لا تهطل ولا تتراجع أيضاً.

عقد ساعِدَيه فوق صدره مُجدداً مُتخذاً وقفةً عبثية كنبرةِ صوته وهو يتأمل تماسُكها الغريب أمامه، طالتِ اللحظات، كل لحظةٍ منهنَّ تستفزُّه أكثر، لقد كان يُعِدُّ نفسه لكتم صرخاتها بالوشاح القطني الذي تركه عالقاً حول رقبتها بمجرد أن تستفيق، ولكنها لم تصرخ.

ربما سيُطفئ بُكاؤها وتوسلها بعضاً من نيرانه المتقدة بداخله، ربما تشفي استغاثاتُها حنقه وكراهِيَته المُتزايدة.

فقال بتجهمٍ وهو يُحدق بعينيها، بينما نظرات الألم والدهشة تتزايد أكثر فأكثر:

- ليلةكاملة .. ونهارٌ قد ولَّى .. تُرى هل يبحث عنكِ والدكِ الآن .. أم اعتبركِ هاربةً مع عشيقٍ ما ؟.

أخيراً حصل على ردة فعلٍ انتظرها كثيراً، تحرك حلقها، واضطرابُ صوت تنفسِها يَشِي بدقاتٍ مُتزايدةٍ بخافقِها، بينما انفرجت شفتاها بتساؤلٍ مُرتعشٍ خافتٍ انتظره طويلاً :

- ماذا تريد منِي؟!

رفع كتفيه بلا مُبالاةٍ كأن الأمر لا يعنيه، وهو يستدير؛ ليخرجَ ويتركها :

- ستكتشفين بنفسكِ.

- حسن.

استدار إليها بنظرةٍ مُحذرةٍ نارية، إنها تُناديه وكأنَّ بينهما صداقةً قديمةً، لا تخشاه، وربما تسخر منه أيضاً بداخلها:

- ماذا تُريد مِنِّي يا حسن؟!

كررت سؤالها مرةً أخرى، ولكن بنبرةٍ مختلِفةٍ، نبرةٍ تبدو عارفةً به، أي سؤالٍ هذا الذي يحملُ طعم كل الإجابات؟!.

ماذا يُريد؟!، ينتقم يا حمقاءُ، ولا يهم مِمن سيقع عليه انتقامُه ؟؛ ففي النهاية لابد لأحدهم أن يدفع الثمن.

بلا إجابةٍ ولا كلمةٍ تفهمها تقدم نحوها وقام بفك قَيد يديها مُكتفياً بقيد قدمها، وبحروفٍ مُهددةٍ تقطُر حِقداً لا ينضبُ قال:

- أنتِ هنا في مِنطقةٍ مُنعزلةٍ مسكونةٍ بالعفاريت ... مَهما صرخت .. فلن يسمعَكِ غيري .. ووقتها لن تلومي سوى نفسكِ.



للكبارِ فقط

قبلَ ثلاثِ سنواتٍ ....

غفران .. مثلُها مثل أي فتاةٍ بدأت زهور قلبها تتفتح مع أبواب عالَم الأنوثة الذي تلجُه بخجلٍ، إلا أن الأمر معها تخطى مرحلة الخجل بكثيرٍ، كانت تتمنى الولوج إلى هذا العالم، نعَم ... ولكنها وجدت نفسها تلتصقُ بجدرانه بخزيٍ شديد، لقد كانت تخجل من بوادر تلكَ الأنوثة التي بدأت بالظهور على معالمٍ جسدها بدلاً من أن تكون مُتباهيةً كما تفعل كل فتاةٍ في عمرها، لسببٍ مَا وجدت نفسها تُخفي معالمَه أسفل حقيبتها المدرسية التي تحتضنها بذراعيها، لا أن تُعلقها خلف ظهرها.

ربما تلك النظرات المُريبة التي بدأت تُحاصرها في كل مكانٍ هي السبب.

المدرسة وناظرها، الخضراوات وبائعها، صارت مُراقَبةً من الجميع، فيما عدا «حسن»!.

عامٌ كاملٌ وهي تعبر الطريق من أمام ورشته لإصلاح السيارات، وتلقي السلام عليه، فلا يرفع رأسه ولا ينظر إليها، فقط يُهَمهِم بحروفٍ مُتعثرةٍ، ويرد السلام فقط، ماذا لو كان جميع الرجال «حسن» ؟، ألن يكُون العالم أفضل بكثيرٍ؟.

ومع تضارب قراراتِها بشأن جسدها، أضربت «غفران» عن الطعام ليومين؛ تصوراً منها أنها بذلكَ ستفقد كيلوجراماتٍ كثيرةً من وزنها، وتُصبح نحيلةً جداً فتتوارى عن الأنظار .

هي ليست مُمتلئة القوام بشكلٍ لافتٍ، ولكن نظرات والدتها لها وهي تتناول طعامَها تجعلها تتركه، بل وتنتزع اللقمة من فمِها، وهي تحمد الله ثم تنهض، وكانت نتيجة ذلك أنها ترنحت وهي تعبر الطريق عائدةً من المدرسة الثانوية التي تبعد شارعين فقط عن الطريق الرئيسي المُمهد للسيارات، والذي تعبُره راكضةً لتجد نفسها أسفل الشجرة الضخمة المُلاصِقة لـ ورشة «حسن».

حِرمانها من الطعام يُفقِدُها جُلَّ تركيزها، الركض عبوراً جعل رأسها يدور، وكادت تسقط بالفعل، فشعرت بيدٍ تُمسكُ بها، وبذراعٍ تلتفُّ حول خَصرِها، وكلمةٌ في أذنِها مصاحِبة لابتسامةٍ سَمِجةٍ:

– «سلامتك يا جميل».

الدوار الذي لفها لم يمنعها من الصراخ، ولم يحرمها من أن تلمح اقتراب بطلها المنشود يتدخل على الفور، كانا كلبين ضالين لا فرق بينهما وبين ذيلَيْهما، جريا من أمامه؛ خوفاً منه بعد أن قاما بإيذائه بالكلمة التي ينعتُه بها والدُه أمام الناس «يا ابن الحرام» ، تلك الكلمة تحوله إلى مُجرمٍ حقيقي، لم يشأ أن يتركها في عرض الطريق ويتبعهما، حاول كبح جِماح غضبه وهو يعتصر قبضتيه قائلاً بنبرةٍ آمِرةٍ:

– هيا.. تابعي السير.. وأنا من خلفِكِ؛ حتى تدخلي.. بيتكِ.

وبرغم علامات الإجرام التي كانت تعلو وجهه في تلك اللحظة، إلا أن جملته كانت بمثابة لحنٍ موسيقي تتذكرها كل ليلةٍ وهي تضع رأسها فوق الوسادة،

وتستعيد سماعها بصوته مِن ذاكرتها التي حفرت فيها تلك الكلمات، بل نقشتها على شَغاف قلبها، وفوق شفتيها ابتسامةٌ حالِمَة، وتنتظرها أحلامٌ ورديةٌ، على الرغم من تلعثمُِه بالنطق بها.

ولكن لكل شيءٍ نهايةٌ، حتى الأحلام الوردية ربما تنتهي بكابوسٍ مُزعجٍ، بل ومُقززٌ أيضاً.

استيقظت «غفران» بعد مُنتصف الليل وهي تشعر بأحدهم، وهو يرفع الغطاء من فوق جسدِها، .. لا .. لا .. ليس مُجدداً !.



وقفتِ الأم ترتعد حرفياً في مُنتصف الصالة الضيقة، ودموع الخوف تتقاذف من عينيها، وهي مُتشبثةٌ بمرفق ابنتها وترجوها أن تصمتَ، أن تُخفضَ من صوتها، أن تعتذرَ وينتهي الأمر، ولكن «غفران» قد فاض بها الكيل، صمتت أمس و أول أمس، إنها تصمت منذ أيامٍ، وفي كل مرةٍ عندما تستيقظ يتراجع برهبةٍ قائلاً:

– ماذا ؟.. كنتُ أقوم بغلق النافذة .. لم أقصد لمسَكِ .

ولكن يبدو أنَّ سكوتها شجعه على المُضي قُدُماً، كل صباح كانت تُحاول أن تخبر والدتها على الأقل، ولكنها تتراجع في اللحظة الأخيرة، « الخوف» و «غُفران» لايفترقان.

من شدة خوفها وترددِها اتهمت نفسها بأنها تتوهم وتُسيئُ الظن بأخيها، هي دوماً مُخطِئةٌ في نظر والدها، وتوافقه أمها على ذلك، فلماذا تكون على صوابٍ الآن؟.

أصبحت تخشى أن تنام بعمقٍ، باتت كالقطط، نومُها مُتقطعٌ، وتستيقظ فزِعةً من أقل حركةٍ، ويبدو أن يقظتها المُستمرة جعلتها تحفظ طقوس «رمزي».

كل ليلةٍ بعد أن ينام والداهما يذهب نحو غرفتهما، ويقف واضعاً أُذنيه على الباب الخشبي الأبيض بعد أن يُضيىء مِصباح الحمام؛ ليتعلل بدخوله إليه إذا ما فُتحَ الباب فجأةً، الشقة غرفتان فقط، واحدةٌ منهما مُلاصِقةٌ لباب الشقة، والأخرى بعد الصالة الضيقة في مواجهة الحمام المُجاور للمطبخ، في البداية عندما رأته من بعيدٍ لم تكن تعلم لماذا يفعل هذا؟.

ولكن مع الوقت تأكدت أنه يطمئنُّ لاستغراقهما في النوم، ثم يعود للغرفة فُيغلقها ويتأكد من نومها، ثم يجلس أمام الحاسوب العتيق ذى الشاشة الثقيلة الذي جاء به ذات يوم، وأخبر والده أن له صديقاً سيبتاع واحداً جديداً، فمنحه هذا دون مُقابلٍ، ولقد صدقه والدهما بعد أن تعجب قليلاً، ولِمَ لا؟، «رمزي» ذكر لا يكذب .. الذكور أقوياء لا يحتاجون للكذِب في عرفهم، النساء فقط هن مَن يحتجن إلى إخفاء الحقائق؛ لضعفهنَّ.

ولدُه هو عنوان رجولته الذي يتباهى بها أمام أصدقائه على المقهى منذ أن أنجبه وحتى الآن، أول ذُريته كان «ذكرا»، أما الفتاة فهي كانت مجرد غلطةٍ، هَمٌّ وَوُضِع على رأسه، متى يتخلَّص منها ويرتاح؟ .

كانت تجهل ماذا يفعل أمام هذا الحاسوب طيلة الليل، يُشاهد أشياء لا تعرفها، فهو يُدير الشاشة باتجاهٍ آخر؛ تحسباً حتى لا ترى ما يُعرَض عليها لو استيقظت، لم يكن قد ابتاع سماعات الرأس بعدُ، فكان يُخفض الصوت إلا قليلاً، وهي استمعت إلى أصواتٍ مُختلطَةٍ لرجالٍ ونساءٍ يتوجعون، ما هي الفائدة؟، هل هو فيلم رُعبٍ مثلاً؟!. وبعد أن ينتهي يُغلقه، ثم يتوجه إليها وهو يظنها نائمةً.

وهنا يبدأ الرعب الحقيقي، تشعر به يلمسُها، فتستيقظ وتفتح عينيها باتساعٍ مرعبٍ فيتراجع كالعادة.

البارحة صباحاً واتتها بعض الشجاعة، وهي تقف بجوار والدتها في المطبخ أثناء تحضير وجبة الفُطور قائلةً بتلميحٍ لم تكن تملك غيره:

- أمي.. لقد كَبرتُ ولا يصح أن يظل رمزي يُشاركني نفس الغرفة .. أُريد غرفة مُستقلة.

وعلى الفور، نالت جزاء تلكَ الشجاعة الغريبة عليها عندما لكزتها أمها في خَصرِها، وهي تنهرها بنبرةٍ خاليةٍ من أي فَهمٍ لِما يحدث حولها:

- أنتِ لا تملكين ذرة دم .. أينَ يذهب أخوكِ يا قليلة الأصل؟.. هل ينام على الأريكة في شدة البرد يا معدومة الضمير؟.. تزوجي يا برنسيسة؛ لتكون لكِ شقة خاصة .. وليست غرفةً فقط.

قاطعتهما ضحكة والدها الذي استمع إلى آخر جزءٍ من الحوار وهو يخرج من غرفته، فقال مُعلقاً بسخريةٍ:

- هذا إن وجدت مَن ينظر في وجهها من الأساس.

ابتلعت كرامتها المجروحة مع الغُصة العالقة بحلقِها، وأطرقت برأسها، وخرجت إلى مدرستها، وقد زاد ضمها للحقيبة أكثر، ما زالت تشعرُ بأنها مُعرَّاةٌ حتى بالرغم من الحجاب الصغير الذي تلفُّه حول رأسها، وتُقسِم أنها لن تتحدث إلى والدتها مُجدداً؛ فهي لم تفهم برغم التلميح الواضح.

فهل تلجأ إلى صديقتها ؟!.

وهناكَ، حيث المدرسة الثانوية للبنات، رمز التربية والعلم، ضحكت صديقتها، وهي تضع كلتا يديها فوق فمِها، ونظرات اللؤم تشعُّ من عينيها، ثم قالت بخبرةٍ أدهشت «غفران».

- أخوكِ يُشاهد أفلاماً فيها نساء ورجال تتعرى وتـ ..

شهقةٌ عفويةٌ خرجت من فم «غفران» قاطعتها بها، وهمست بخوفٍ وهي تتلفت حولهما عدة مراتٍ:

- كيف عرفتِ؟!

زاد اتساع ابتسامة صديقتها وهي تُحاول جاهدةً غلق فمِها، ولكنها لم تستطع السيطرة عليه، فهي تُريد أن تُبهر « غفران» بمعلوماتها التي لا تعرفها هي، وأردفت بهمسٍ أكثر:

- أنا أُشاهد مثلها على حاسوب أبي بعد أن ينام هو وأمي .. ولكن ليست أفلاماً حقيقية مثل أخيكِ .. إنها أفلام كرتون !

اتسعت عينا «غفران» أكثر بكثيرٍ عن ذي قبل، وهي تهتف رغماً عنها:

- هل تتعرى البنات في الكرتون أيضا ويفعلن ما ذكرتِ ؟؟!!!

وضعت صديقتها كفها على فم «غفران» تُغلقه بخوفٍ، وهي تنظر حولهما، ضغطت كفها بقوةٍ وهي تقول بعينين زائغتين:

- ستفضحينني يا مجنونة.. أنا المُخطِئة أنني أخبرتُكِ.

هدَّأت «غفران» قليلاً من روعِها، وهي تحاول استيعاب ما سمعت للتوِّ، ولكن الفضول اشتعل برأسها، كيف يحدث ذلك في أفلام الكرتون؟!

- أنتِ تكذبين .. أنا كنتُ أُشاهد أفلام الكرتون دائماً.. ولم أجِد بها ما تقولين.

عادت المُغامرة والشعور بالاختلاف يتلبسان صديقتها، وهي تستعدُّ لشرح الأمر لها، ولكن جرس الحصة المُقبِلة انطلق يدوي، فوعدتها بأن تستكملَ الحكاية بعد انتهاء اليوم الدراسي.

لم تستطع «غفران» أن تفهم شيئاً مِما يُشرَح أمامها في الحصص التالية، فذهنُها كان مشغولاً بما سمعت من صديقتِها أثناء الاستراحة، حاولت طرد تلك الأفكار مراراً إلا أنها ظلت تُلاحقها حتى انتهى اليوم الدراسي الذي طال اليوم أكثر من أي يومٍ آخر، سارت ببطءٍ بجوار صديقتها التي كانت تقصُّ عليها الحكاية كما وعدتها أثناء طريق العودة:

- في البداية كنتُ أُشاهد فيلماً كرتونيّاً مُعتاداً على موقع اليوتيوب .. وكنتُ مُدمنةً عليه .. هذا الموقع يعرِض للمُشاهِد اقتراحات أخرى تشبه الفيديو الذي يُشاهده الآن .. وفي إحدى المرات كان أحد الاقتراحات «فيديو» لنفس الشخصية الكرتونية التي أحبُّها.. وكان يقوم بتقبيل فتاةٍ شقراءَ ويلمسها .. في كل مرة كنتُ أريد أن أشاهد أكثر.. وبدأ الأمر يُصبح عادةً عندي .. ويكون ذلك ليلاً فقط. ومع الوقت بدأتُ أبحث بنفسي حتى عثرتُ على موقع يعرضها بالمجان.. ولكن المشاهد المعروضة تخطتِ القُبلات بكثير ....

صمتَتِ الفتاة لبُرهةٍ، وبدأ تنفسُها يتغير، وقد اختلط الشغف عندها بالشعور بالذنب فوق ملامحها، وعصرةٌ تضغط قلبها وتُؤلِمه، ذاك الشعور القاتل بين اللذة وكره الذاتِ لا تفهمه، وخصوصاً عندما يستقيظ والدها لصلاة الفجر، وعند عودته من المسجد يربتُ على رأسها بحنانٍ، وكأنها ما زالت طفلته الصغيرة؛ لتستيقظ للصلاة .

فتُخبره كَذِباً أنها أدَّت الفريضة فينصرف؛ ليُوقِظ زوجته، بينما هي تحت الغطاء تشعر بأنها موصومةٌ وبأنها عارٌ على تلك العائلة المؤمنة، ولكن ماذا تفعل؟، لقد أدمنت، وأصبحت مريضةً لا علاج لها كما تقول لنفسها دوماً.

عادت «غفران» ذلك اليوم إلى منزلها وهي تشعر بالتقزز من غرفتها، ألقت نظرةً إلى الحاسوب وأخيها النائم يشخِر كالجثة الهامدة فوق سريره، ودت لو فقأت عينيه في تلك اللحظة، وعندما توضأت؛ لتؤدي صلاة العصر، دلفت لغرفة والديها؛ لتصلي بها، تشعر بأنه المكان الوحيد الطاهر بهذا البيت الذي بدأ يضيق على صدرها ويخنقُها، قُدور الغضب تغلي ببراءتها فتتوعده بالثأر .. يكفي تلك النجاسة بغرفتها .. لقد اكتفت من خوفِها .. الليلة ستكون مُختلفةً.

لم تكن تعلم أنه هو الآخر كان يستعدُّ لها، لقد صمتت لأيام، وهذا ما جعله يظنُّ بأنها تفهم، وأنَّ الأمر يُعجبها حتماً، لماذا لا يُجرب بجديةٍ هذه اللَّيلة؟، وعندما أسدل الليل أستاره لم يكتفِ بلمسها من فوق الغطاء برهبةٍ، بل تجرأ أكثر عليها، نهضت فزِعَة بمُقلتيها المتسعتين، لم يبرر كالعادة، بل وجدت في عينيه نظرةً مُختلفةً، يخبرها بها دون حديثٍ بأن تخوض التجربة معه، وهو يهمس مُحاولاً الاقتراب منها:

- لن أؤذيكِ.

لا تعلم كيف وجدت صوتها في هذه اللحظة، فصرخت وصرخت ولم يستطع هو السيطرة وكَتِّم صراخِها، وها هما الآن يتواجهان أمام أبيه، نعم، هو أبوه فقط، تيقنت من ذلكَ عندما صفعَها والدها صفعتين مُتتاليتين لتسكتَ، وهو يحسم الحديث لصالح ولده الذكر:

- اخرسي يا كذابة.. يا قليلة الأدب.

والدتها ترتعش حيناً، وتلطم وجنتيها حيناً آخر، أما «رمزي» فيقف بجوار والده، كفاه متشابكتان خلف ظهره، يُطرق برأسه، وقناع الشعور بالظلم يغطي وجهه باحترافيةٍ كبيرة، عيناه تجوبان الأرض بحيّرة، ثم يرفعهما نحو أخته مُستخدماً يده اليمنى التي تركت اليسرى خلف ظهره، وأتت لتساعده في إتقان دور المظلوم، وضع كفَّه على قلبه ناظراً إليها بثباتٍ، ويقول بنبرةٍ تُنبئُ عن دموع تماسيحَ قريبةٍ:

- أنا يا «غفران» ؟!!.. أنا أفعل هذا بكِ؟!! .. تتهمينني بهذه البشاعة من أجل الحصول على غرفة مُستقلة؟.

ثم التفت إلى أبيه وهو يستكمل العرض الدرامي، وقد سمح للدموع بالهطول قائلاً بنبرةٍ مُتقطعةٍ لا ينقصه وقتها سوى مقطوعةٍ موسيقيةٍ حزينةٍ تنبعث في الخلفية:

- أرجوكَ لا تُعاقبها يا أبي .. أختي الصغيرة مسكينة .. لا بد من أن لها صديقات مُنحلات في المدرسة.. يملأنَ رأسها بتلك الأفكار الشيطانية القذرة.

تقدم أبوها منها مُندفعاً حتى أمسك بشعرها الذي جمعته خلفَ رأسها، وجذبها منه بقوةٍ؛ فصرخت وتحركت الأم معها، وكأنهما مرتبطتان برباطٍ خفي، بينما هو يزمجر مُصدِراً أمراً لا رجعة فيه:

- ستعتذرين لأخيكِ حالا.. ولا حاجة لنا للمدرسة بعد الآن إن كانت سترمي بالمصائب فوق رؤوسِنا .. فأنتِ في كل الأحوال فاشلة لا نفعَ من وراءكِ .. ستجلسين في المنزل حتى أرميكِ إلى أول عريس أعمى يتقدم لكِ.

العدوُّ من خلفها، والبحر بكلِّ دواماته المُغرِقة أمامها، ستفعل كما يفعل أيُّ غريقٍ مكانها، تضرب بذراعيها بشكلٍ عشوائي، وتصرخ طلباً للنجاة، لا تعرف كيف تملَّصَت من قبضة والدها وجرت نحو غرفتها، فما زال الجزء الواعي من عقلها يخبرها أن «رمزي» عندما صرخت لم يكن أمامه وقتٌ كافٍ؛ ليُخرِج الأسطوانة المُدمجة من الحاسوب، طوق نجاتها الأخير، ضربت بإصبعِها على الجهاز، وقامت بتشغيل الأسطوانة، وعندما لحقوا بها، تباطأت خفقات قلب أمها وتعرقَت مُتهاويةً على الفراش من صدمتها، و «غفران» تصرخ بهيستريا وقد كانت هي الأخرى هلِعةً من هول ما تعرضه الأسطوانة في تلك اللحظة.

أما والدهما فكان هو أول مَن استقيظ من صدمته، وقام بنزع القابس الكهربي؛ فانطفأ الحاسوب على الفور، وتحولَت عيناه تجاه «رمزي»، ولكنه لم يستطع تحريك لسانه.

شعر «رمزي» بأنه تمت محاصرتُه، ولا بد من سبيلٍ للخروج بأقل الخسائر المُمكنة، قطَّب حاجبيه، وهو ينظر إليهم بتجهمٍ، وصوته يعلو تدريجياً:

- وماذا يعني أن أشاهد تلك الأفلام ؟.. أنا رجل.. وجميعنا نفعل ذلك .. وما علاقة هذا بالتهمة التي ترميني بها تلك الحقيرة التي استغلت الأمر؛ لتتهمني بالباطل.

صمتَ للحظاتٍ ثم عاود النظر إلى» غفران» بخيبة أملٍ ظاهرةٍ، وهو يُومىء برأسه وكأنه يهذي صارخاً:

- كل هذا من أجل أن تحصلي على الغرفة .. خذيها.. خذي البيت كله لكِ .. أنا لن أظل هنا لحظة واحدة.

تحرك بسرعةٍ قبل أن يُنهي كلمته الأخيرة، وبتلقائيةٍ مدتِ الأم كلتا يديها إليه في نفس الثانية التي أسرع فيها والده خلفَه يناديه بمرارةٍ، ولكن «رمزي» انطلق كالسهم في مشهدٍ يستحقُّ عليه جائزة الأوسكار لأحسن ممثلٍ تراجيدي!.



حسن .. ماهرٌ جداً في صنعتِه، لا مكان له سوى ورشة إصلاح السيارات يقضي بها طيلة يومه إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل، في الحادية عشرة تماماً يُغلق أبوابها، ويتوجَّه إلى الغرفة المؤجرة فوق سطح البِناية التي تبعد عن مكان عمله بعشرين دقيقةً مشياً على الأقدام، غرفةٌ تتوفر فيها فقط احتياجاته الضرورية للنوم، فراشٌ عتيقٌ مُستعمَلٌ، وثلاجةٌ صغيرةٌ برادُها لا يعمل، وحمامٌ بابُه في زاويةٍ من الغرفة يدلف إليه بجانب جسده؛ لصِغَر مساحة الباب من الخارج، لا يمكن أن يكون هذا الحمام مكوناً من أربعةِ جدرانٍ!، إنه على الأكثر حائطان وزاويةٌ!، إلا أنه يكفي احتياجاته.

هو في الأصل يقضي يومه كله بين الجدران الأربعة الحقيقية التي يجد بها نفسه، عيناه تلمعان بزهوٍ كلما استطاعت يده بحرفية أن تُعيد سيارةً من الإنعاش إلى الركض من جديد، ينتشي بسماع مُحركها وكأنه صراخ مولودٍ جديدٍ، يقتل نفسه عمَلاً من أجل سماع تلك العبارة في النهاية «اللّه ينور يا باشمهندس».

شعورٌ رائعٌ بالوجود، إنه يصلُح للفخر، توقف الحروف في حلقه، واللعثمة التي تتضح كلما زادت أيُّ عبارةٍ يقولها عن أكثر من ثلاثِ كلماتٍ أو أربعٍ لم تكن عائقاً أمام مهارة يدِه، لذلك صمتَ وترك لأصابعه الحديث، هذا ما يبرع فيه، حتى وصل إلى مسامعه عبارة من صوت بغيض إلى قلبه :

– متى ستدفع الإيجار المُتأخر يا « ميكانيكي الغبرة»؟.

مسح «حسن» قبضتيه بقوةٍ في القماشة الصفراء سابقاً، السوداء حالياً من أثر الشحم الأسود العالق فيهما دائماً، واستدار يُوليه ظهره العريض على إثر سماع ذلك الصوت الأجش البغيض إلى قلبه، مُحاوِلاً كبح غضبه مُخفياً إياه خلف قناعه الساخر:

- الإيجار يُستحَق .. غدا .. يا « أظلم».

تحرك «أنور» بجسده البدين، وقامته القصيرة، وبثورةٍ عارمةٍ مُمسِكاً بملابس «حسن» من الخلف، ومُحاوِلاً ضربه على رأسه، وهو يصيح هائجاً فيهتزُّ جسده الضخم على إثر انفعاله الشديد.

- ألن تتوقفَ عن مناداتي بهذا الاسم أيها الحقير؟، .. وشرف أمي لأطردنكَ من ورشتي شر طِرّدة؛ لتعود مُشرداً كما يليق بكَ يا مُتشرد.

التفتَ «حسن» له سريعاً قابضاً على رُسغيه مُحدِثًا بهما أَلَماً رهيباً؛ ليرى نظرات الاستغاثة في عينيه، وفي التوِّ صرخ «أنور» يستغيث بالناس الذين بدأوا بالتجمُّع حولهما بمللٍ شديدٍ.

لقد اعتادوا على مشاجرات «أنور» البخيل وولده الغاضب وهو قابضٌ على رسغ أبيه، وينظر له بجنونٍ وتشفٍّ، وهو يُقرب وجهه منه قائلاً بصوت المُتلعثِم الذي ضاع بين صياح الجميع بأن يتركَه ويرحم كِبر سِنِّه:

- سأتوقَّف عن .. مناداتكَ به ... عندما تتوقف عن الخوض .. في عِرض أمي .. يا «أظلم خلق اللّٰه» .

استطاع الرجال التفرقة بينهما بصعوبةٍ موجهين اللوم إلى «حسن» الذي كان يوجِّه نظراتٍ ناريةً كطلقات الرصاص تجاه «أنور» الذي اطمأنَّ إلى وجود

الجمهرة من حولهما يفصلون بينهما، فأخذ يزعق كالغِربان أثناء تراجعه للخلف فارَّاً من تلك المعركة غير المُتكافِئة:

- سأكسر عظامكَ التي تتباهى بها يا ابن الحرام .. وسترى.

نفض «حسن» الأيدي التي كانت متشبثةً به تمنعه عن والده، وهو يبصق بعيداً عائداً إلى قلب ورشته الصغيرة، جذب المقعد الخشبي إلى منتصفها تماماً، جلس فوقه وهو يميل إلى الأمام مُستنِداً بمِرفقيه إلى فخذيه، ضم قبضته اليسرى بداخل أختها، وعيناه تتبعان كالصقر تحركاتِ «أنور» بين الجموع.

من يرَه من بعيدٍ يظنه حيواناً مفترساً يستعدُّ للانقضاض والفتك، أما من يعرفه - ولا أحد يعرفه -، يشعر بلهيب الألم الغاضب يغلي بكل شرايينه، إنه يتألم وهو يرى ذاك البدين يشيح بكلتا ذراعيه مُوجِّهاً حديثه لبعضهم هنا وهناك، يلوكُ سيرةَ أمه المتوفاة الآن، كيف يُخرِسُه؟، لماذا لا ينجح بقتلِه ويرتاح من قذارة لسانه إلى الأبد؟.

اليوم أيضاً فشل كبقية الأيام، كل يوم يُخطط؛ ليستثيره ويفتعل شجاراً معه ينتهي بآلة حادةٍ على رأسه، أو حتى يكسِّر رقبته، ولكنه في كل مرةٍ يتراجع في اللحظة الأخيرة.

منذ متى وهو يُخطط للقتل؟، يعتقد بأنه يفعل ذلك منذ أن بلغ الخامسة من عمره!، وتحديداً في اللحظة التي قذفه والده فيها هو وأمه خارج بيته وهو يضربُها ويصفها بالزانية، لم يكن يَعي معنى هذه الكلمة في سنه الصغيرة، عيناه فقط هما مَن كانتا تسألانه :

لماذا يقوم بطردهما إلى الشارع؟،

أليسَتْ هذه الباكية زوجته؟

أليسَ هو ولده؟

وجاءته الإجابة وهو في عمر الثانية عشرة، عندما خرج من بيت خالة والدته التي لجأت إليها متوجِّهاً إليه، عازماً على معرفة لماذا فعل والده بهما ما فعل؟:

- أنت ابن حرام.. أمك خانتني مع ابن خالتها.. وشاء الله أن يكشفَها.. وخرجت أنت مُتلعثماً مثله.

- أمي أنا؟!!

ألقى سؤاله مُرتبِكاً مَدهوشاً، فوالدته أخبرته أنه طردهما؛ لأنَّها تطلب منه مصاريف كثيرةً للمنزل، وهو بخيلٌ .. فقط، هذه هي كل الحكاية، ولكن كل يوم يمرُّ من عمره لا يصدق ما قالته، ويعتقد أنها كِذْبتها الوحيدة في هذه الحياةً.

- نعم، أمك .. ولقد ظلت تخدعني منذ أن بدأتَ أنت تتحدث وظهر تلعثمكَ في الكلام وهي تخبرني أنك مُتأخر فقط .. ومع الوقت ستنطق بشكل صحيح كغيرك من الأطفال .. ولكنك لم تفعل .. ظللت تتلعثم أكثر فأكثر إلى أن بدأ أصدقائي على القهوة يسخرون مني كل ليلة قائلين : «ألا تلاحظ أن ابنك متلعثم مثل ابن خالة زوجتكَ بالضبط؟ .. حتى إنه يُشبهه يا رجل».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تجرأ فيها على والده، قفز نحوه مُمسِكاً بتلابيبه ويصرخ بجنونٍ:

- أأنت مجنونٌ؟!!، تتهم أمي بالزنا.. لأنني مثل .. ابن خالتها؟.. أجبني .. أنتَ مجنون؟!!

اعتدل «حسن» في جلستِه فوق المقعد الخشبي مُتحسساً جانب رأسه، وهو يشعر بأنها شُجَّت للتوِّ، وقتها نفض «أنور» يده، وجذب عصاته الغليظة الساكنة بجوار الباب وضربه بها على رأسه، ولكن ماذا تكون هذه الندبة بجوار ندوب كرامته التي يحملها كالكفن فوق ساعديه من حينها؟.

تذكر دموع والدته وهي تقف أمامه تشعر بالخزي، وقبل أن تتكلم سقط عند قدميها، وقبلهما وهو يرجوها ألا تدافع عن نفسها؛ فهو يعلم أنها عفيفةٌ، وكل ذنبِها أنها تزوجت بمجنونٍ يسحبه أصدقاؤه من قفاه!.

منذ ذلك الوقت وهو رجُلُها وسندها في الحياة حتى بلغ السابعة عشرة من عمره، عندما ماتت فجأة بسكتةٍ دماغيةٍ لا يعلم من أين أتتها؟، كل ما يعلمه أنه اكتشف في أول ليلةٍ لها في القبر أنها هي التي كانت تسنده، لا العكس كما كان يتوهم، فقد خَلَتِ الدنيا من الناس برحيلها.

ترك الناس ولجأ للوحدة، فهي أكثر مَن يفهمُه، لا تؤذيه مثلهم، وعند مروره أمام الساحة الشعبية، ورؤيته للفتيان يلكمُ بعضُهم بعضاً تحت قواعدَ رياضيةٍ لا تخصه، عَلِم وقتها أين سيضع غضبه المتقد دوماً بداخله؟.



– «حسن» أنا فخورٌ بك .. أنت مثلي الأعلى.

قالها «رمزي» بحنكةٍ وإدراكٍ لشخصية «حسن»، وهو يقف أمامه على باب ورشته، ويطلب منه أن يُعلمه المهنة، فهو يريد أن يتعلم كيف يكسب رزقه بعيداً عن تسلط والده؟، منحَه «رمزي» كل الأسباب التي تجعله يوافق على العمل تحت يديه، إنه لا يعرفه جيداً، هو جاره في نفس الحي، ولكن علاقته به سطحيةٌ جداً وتكاد تكون منعدمةً، يعرف فقط أخته، تلك الفتاة التي كانت تمر به وتُلقي السلام، لقد اختفت منذ ثلاثة أيامٍ، ترى أين ذهبَتْ؟!.

– سأكون طوع يمينكَ .. أريد أن أكون ماهراً مثلكَ.

بداخله نفورٌ من مخالطة الغرباء، يشعر بأنهم يتلصَّصون عليه، يحبُّ أن يبقى وحيداً، ولكن «رمزى» عرف من أين تُؤكل الكَتِف؟، ووجد المَدخل المناسب، إنه يصلح للفخر!

– حسناً يا «رمزي».. ليس لديَّ.. مانع.. ولكن.. ستحتاج إلى جهد.. وصبر.

أومأ «رمزي» برأسه بطاعةٍ ظاهرةٍ على وجهه، وبداخله شعورٌ قويٌّ بالانتصار، لقد كان من الممكن أن يعمل في أيِّ مكانٍ آخر، ولكنه يريد أن يراه والده كل ساعةٍ، والشحم يُغطي يديه ووجهه وملابسه، يريد أن يُشعره

بتأنيب الضمير، فهو يعرف والده جيداً، ويعرف أنه لن يتحمل أن يرى ولده الذَّكَر تتلاطم به أمواج الحياة هكذا، حتى تصل به الحال إلى أن يعمل صبي ميكانيكي لدى «ابن الحرام» هذا.

الخُطَّة سارت أسرع مِمَّا توقع، ففي الصباح كان والده يقف أمامه بنظرةٍ غاضبةٍ مُتحسرةٍ، ويجرُّه بعيداً؛ ليستجوبه:

– ماذا تفعل بنفسكَ وبنا؟.. هل تريد أن تفضحنا ؟!.

أطرق «رمزي» برأسه وقال ببطءٍ وبنبرةٍ مُعاتبةٍ:

– وماذا تريدني أن أفعل بعد أن صدقتموها واتهمتموني بالباطل؟.

رفع «حافظ رمزي» حاجبيه بتعجبٍ وهو يقول مُحاوِلاً خفض صوته:

– بالباطل؟!.. بعد أن رأينا ما كنتَ تشاهده بأعيننا؟.

رفع «رمزي» ذراعه مُشيراً حوله إلى لا شيء وهو يقول بثقةٍ:

– أي شاب يسير الآن أمامكَ يفعل ما أفعلُه .. وبالرغم من ذلكَ أنا اعتذرتُ لكَ .. ماذا أفعل أكثر مِن هذا؟.

وضع أبوه كفه على كتفه وهو يربتُ عليه بقوةٍ حانيةٍ قائلاً:

– لا تفعل شيئاً.. عد إلى بيتكَ وينتهي الأمر.. أنا لا أرضى لكَ أن تتدهور بكَ الحال إلى تلكَ الدرجة .. أنت ابني في النهاية.

– و«غفران» ؟

– ما بها؟!

ابتسم «رمزي» ساخراً وهو يحركُ رأسه يمنةً ويسرةً، ويوجه حديثه للأرض من تحت قدمه، وعيناه تتسعان وكأنه يهذي:

– أعود؛ لتتهمني مجددا أنني أتحرش بها؟.

– سأفصل رقبتها عن جسدها لو تفوَّهت عنكَ بسوء مرة أخرى.

سيرد لها الصاع صاعين، هي كانت تريد أن تُخرجَه من الغرفة، والآن فرصتُه؛ ليُخرجَها من البيت كله، ولكن مهلاً، لقد صدق نفسه حقاً، ويُدبر للثأر منها بالفعل.

كيف يستطيع الإنسانُ أن يُصدق كِذْبتَه إلى هذه الدرجة؟!، إلى درجة أن يجد ملوحة دموعه على شفتيه، وشعورٌ بقشعريرة الظُّلم يغشاه، دافعٌ يدفعه للانتقام الحقيقيِّ، انتقامٍ باردٍ!

نظر في عيني والده، والدُّموع تملأ عينيه قائلاً بنبرةٍ متقطعةٍ من البكاء المكتوم:

– لن أعود مادامت هي هناك .. هذا آخر ما لدي.

ثم تركه وأسرع نحو الورشة التي كان يقف «حسن» قُبالتها، ويُتابع المَشهد بعدم فَهمٍ، وعندما اقترب منه «رمزي» بتحركاته العشوائية الهائجة، وانحنى ليستخدم رافعة السيارات؛ ليستكمل العمل الذي كلفه به «حسن» الذي قال على الفور ساخراً:

– نظرات والدكَ.. نحوي .. أخبرتني أنه لم يطردك .. من المنزل .. كما أخبرتني.

ظل «رمزي» مُنحنياً ومُنشغلاً بخلع الإطارات الثقيلة وهو يقول بغضبٍ:

– لقد استيقظ ضميره فجأة .. وأنا كرامتي لا تسمح لي.

– يكفي أنه .. استيقظ.

قالها «حسن» بغُصةٍ أحرقت حلقه، وجعلته يُشيح بوجهه بعيداً، ولكن «رمزي» لم ينتبه لتلك المرارة في نبرته، فاعتدل ليستكمل مشهده التمثيلي:

– لو جاء والدكَ إليك مُعتذِراً الآن .. فهل تقبل اعتذاره وتُسامحه وتعود معه؟.

ماذا ؟!، إنه لم يُفكر في ذاك الاحتمال من قبل!، هل يُنكِر رغبته بأن يكون له والدٌ طبيعيٌّ كبقية البشر؟، أيكذب وينفي رغبته في يد قويةٍ تُوضَعُ على كتفِه بحنو كما فعل والد «رمزي» منذ قليلٍ؟.

قطَّب بين حاجبيه وهو ينفض رأسه بقوةٍ هازئاً من نفسه، بماذا تُفكر يا «حسن»؟، إنه يصلح لأن يكون قاتلاً فقط، كلمة والدٍ هذه أبعد ما تكون عن «أظلم خلق الله».

دسَّ يده في جيب سرواله «الجينز»، وأخرج أموال الإيجار الشهري ربما يساعده ذلك على التذكر، مد يده إلى «رمزي» قائلاً بتجهمٍ:

– اذهب إلى «أنور برهان» .. سدد إيجار.. الورشة.. ولا تنسَ استلام.. الإيصال .

نظر «رمزي» إلى الأموال بدهشةٍ هاتفاً:

– هل تسدد إيجار ورشة أبيك؟!!

ابتسم «حسن» ساخراً وهو يُومىء بـ «نعم»، فعاد يهتف مرةً أخرى:

– وماذا سيحدث إن لم تدفع ؟.

قال «حسن» ببساطةٍ :

– سيطردني ... منها.

حرَّكَ «رمزي» رأسه مُتعجباً، لقد كان يسمع عن المشكلات القائمة بين «حسن» ووالده، والحرب الدائرة بينهما، من خلال الحكايات التي كان يقصُّه عليه والده؛ مُبرهِناً بها على حبه لولده، وأنه يفخر به ويُقدمه على نفسه لا كما يفعل «أنور» مع ولده، وبالرغم من ذلكَ لم يكن يتصور أن تصل إلى أن يسدد «حسن» إيجار مكانٍ سيملكه آجلاً أو عاجلاً، بل لماذا لم يؤجر مكاناً آخر بعيداً عن «أنور» وقلة أدبه؟، هل ضاقت به الدنيا ؟!.

– عندما كنتُ.. في الثانية عشرة .. ضربَني «أنور» .. على رأسي فشجه .. وسالت دمائي.. ولكن حتى دمائي هذه.. لم تشفع لي عنده.. فجذبني من ملابسي .. ونزل بي إلى الحارة.. وهو يسبني ويشتمني.. حاول الجيران التدخل.. وتخليصي من .. بين يديه.. ولكنهم فشلوا.. فلقد كان ..هائجاً كالثور .. وفي أوج قوته.. وفجأة وجدت ..أحدهم ينتزعني.. بالقوة من بينِ.. يديه.. ويأخذُني تحت ذراعه... مُدافعاً عني.. وأدخلني هذه الورشة.. وقام بغسل.. دمائي.. ثم أَخذني.. إلى أقرب مَشفى.. ليقوموا ..بتطبيب جُرحي.

- مَن كان هذا؟

تابع «حسن» بحنينٍ:

- أسطى «رحيم».

عندما سأله «رمزي» في البداية عن سر بقائِه في هذه الورشة تحديداً لم يكن يعلم أن «حسن» يحب الحديث عن «رحيم» وعن طريقة معرفته به إلى هذه الدرجة، عيناه متوهجتان بحنانٍ غريبٍ، يغلب الغضب الدائم بداخلهما، ويسترسل بغرابةٍ لا تليق بتجهمِه وصمته الدائم، لقد كان حسن يرى في «رحيم» الأبوة الغائبة عنه التي كان يشتاق إليها بشدة:

- أسطى «رحيم» عاملني.. بحزم وحنان في.. نفس الوقت.. وعلمني سر ..الصنعة.. وقبلها علمني .. أن أعتمد .. على نفسي.. ولا أنتظر شفقة من .. أحد.. ثم تملَّك المرض منه .. وكانت الزبائن تأتي .. من أجلي خصوصاً.. منذ أن كنتُ .. فتى في الخامسة عشرة .. من عمري.. أوصاني-رحمه الله-.. بألا أترك المكان هنا.. وأن أتمسكَ .. به قدر المُستطاع .. حتى أصبح مصدر رزقي.. الوحيد.. مات في نفس العام.. الذي ماتت .. فيه أمي.. وطردني «أنور» .. من الورشة وأغلقَها.

هب «رمزي» واقفاً، مُمسِكاً بشطيرة الفلافل الحارة بين أصابعه وهو يتساءل بشغفٍ:

- وماذا فعلّت؟.

أجاب «حسن» بلا مبالاةٍ:

- أعادني مرة أخرى .. بعقد إيجار جديد.. باسمي.

انزلق «رمزي» جالساً مرةً أخرى هاتفاً بدهشةٍ:

- لماذا ؟!!!

قضم «حسن» قضمةً من شطيرته، وتابع برزانةٍ:

- قام بتأجيرها لأحدهم.. في البداية.. ولكن الزبائن.. لم تنفك في .. السؤال عني.. فهو لم يكن ماهراً .. كما كان مُنعدم الضمير.. وعندما.. لم يجدوني.. أصبحَت الورشة.. كالخرابة .. وانقطعَت الأرجل عنها.. لم يستطع الرجل.. أن يسدد الإيجار.. فتركها.. وخسر «أنور» .. مَصدراً مهماً.. يعتمد عليه ..في المعيشة.

أومأ «رمزي» بإدراكٍ، فلم يكن في حاجةٍ إلى استكمال القصة، جمعُ المالِ أهم عند «أنور» من نسَب «حسن»، وإلى مَن ينتمي؟، لذلك يتشاجر معه «حسن» كل عدة أيام، ويكاد أن يضربه دون أن يخشى طرده، إنه مُدركٌ إلى حاجة والده إلى بقاءً الورشة مفتوحةً، والسيارات متكدسةٌ أمامها، مِمَّا جعله يطمع أكثر، ويزيد الإيجار إلى الضعف، و «حسن» وافق بسهولةٍ من باب التشفي فقط، نعم، يتشفى به وهو يرمي له قيمة الإيجار المُضاعَفة كل شهرٍ، وكأنها لا تُساوي شيئاً، مثل أُبُوتِه تماماً!



ثمانية أيام فقط، استطاع فيها «رمزي» الحصول على ما يُشبِه الصداقة مع «حسن»، قدرته على أداء المشاهد التمثيلية، واقتناعه هو نفسُه بِما يتفوه به لسانه من كَذِب جعلت «حسن» يتعاطف معه، ويصبح أكثر انفتاحاً في الحديث معه، «حسن» أيضاً كان في حاجةٍ إلى لعب دور المُعلِّم والمُوجه كما كان يفعل «رحيم» معه، بداخله عطفٌ يُريد منحه لأحدهم.

ولكنَّه ما زال حذراً، ولقد زاد حذرُه في اليوم الثامن، وبدأ يُعيد النظر في براءة «رمزي» الظاهرة عندما شاهدَه يُغازل فتاةً لا تتجاوز السابعة عشرةَ أثناء خروجِها من البِناية المُرتفعة جداً بالجوار، هي البِناية الوحيدة المطلية باللون البُرتقالي الفاقع في مشهدٍ متناقضٍ بالنسبة لِمَا حولها من بِناياتٍ منخفضةٍ ما زالت واجهاتُها الخارجية بالطوب الأحمر المُتراكِم فوقه الغبار والكثير من عوامل الزمن، تبعد عن الورشة بخمسِ بِناياتٍ مُتجاورةٍ.

الطابق الأول منها مُخصصٌ لمركز نساءٍ وولادةٍ بدونِ ألم !؛ هكذا كتب الطَّبيب على اللافتة التي تُضيءُ بعد الغروب مباشرةً، وبالرغم من ذلك فالنساء يخرجنَ منها صارخاتٍ من آلام أسفل عمودِهنَّ الفقريِّ!. أما الطابق الأخير فهو مؤجرٌ كـ «سنتر تعليمي» كما تقول اللافتة على الواجهة أيضاً، والمُعلقة على واجهة البِناية المُتفرِّدة.

الفتاة تأتي هي وكثيراتٌ من زميلاتِها للحصول على دروسٍ خصوصيةٍ مُخفضَةٍ كبديلٍ عن الحصص المنزلية التي لا يملِكنَ نفقاتِها الباهظة،

وتستمرُّ تلك المُراجَعات إلى ما بعد العاشرة ليلاً لو تأخر أستاذ المادة عن الحضور في موعده المُقرر.

وبرغم الشتاء العاصف بأمطاره ورياحه الساهجة أحياناً، إلا أنهنَّ يأتين دائماً، يجرينَ تحت المطَر، كل منهنَّ تحتمي بمِظلة أحلامها الوردية عن المجموع المُرتفع في نهاية الصف الثاني الثانوي .

خطوةٌ دافعةٌ للمرحلة القادمة، الثانوية العامة، نقطة الارتكاز الوهمية التي يدور حولها عالَمُهنَّ الخاص، ماراثون يتوارث الأجيال قوانينَه الصَّارمة دون الحاجة إلى توجيهٍ، سباق تعليمي، قواعدُه مُحددةٌ مُسبقاً، مَن يصل أولاً يجلس في المُقدمة فيستوعب أكثر ممن هم في الخلفية، المكان مُزدحِمٌ للغاية ككل شيءٍ حولنا، لا نملك التراجع وإلا سقطْنا في هُوة الفشل السريع، وليس أمامنا سوى الدخول إلى مُعترك الحفظ والتحصيل والنجاح ثم الاصطدام بالواقع المَرير.

لاحظ «حسن» مُراقبة «رمزي» للفتاة التي تُدعى «سلمى» على وجه التحديد، صاحبة الجسد المُكتنز والخُطوات البطيئة نتيجة عَرَجٍ غير واضحٍ من الوهلة الأولى سوى للعيون المُدققة .. وما أكثرَها!.

يُضايقها ذهاباً وإياباً مُستغِلاً وَحدتها وعدم وجود رفيقاتٍ بصُحبتها، عيناها تحكيان الكثير عن الوحدة، وهي تسير في الخلف، نظرُها مُتعلقٌ بتلك المجموعة من الفتيات اللاتي يأنسُ بعضُهنَّ ببعضٍ في الطريق.

سَمِعَهُ في ليلةٍ ما وهو يتكلَّم عنها بوقاحةٍ مع عاطِلين يتقاسم معهما مُجون النظرات كما يفعلون بلفافة الحشيش التي تدور بين أصابعهم، فنَهَرَه بشدةٍ، وزَجَره موبخاً في تلك الليلة، وقال له الكلمة المشهورة في مواقفَ مشابهةٍ وهو

يلكُزُه في كتِفِه، ولكن تاريخ «رمزي» لا يجعل هذه الكلمة تسقط في مكانها المناسب من قلبه:

- اعتبرها مثل .. أختك يا «رمزي» .. هل ترضاه لأختك؟!

«نعم» رَضِيَهُ من قبلُ، ولم يحدث شيء يردعُه، فلماذا يتوقف الآن مع مَن هي مثل أختهِ؟!، المقارنة من الأصل دفعته للترصُّد للفتاة كل يوم، يقصدُها هي دون غيرها، لقد انقلب ثأره من «غفران» إلى تلك الفتاة المِسكينة التي كانت تنظر له بازدراءٍ، وتُسرِع خطواتِها تاركةً إياه يعوي بكلماته المُقززة.

لم يأتِ والده إليه مرةً أخرى، وكأنه اختار «غفران» ونبذَه .

اختيارٌ سيدفع الجميع ثمنَه يوماً ما !، هكذا أخبر نفسه.

تغلي قدورُ الحقد بقلبه، والرَّغبة في إيذاء إحداهنَّ تتصاعد، ودُخَان لفائف المُخدرات التي يتجرعُها كل مساءٍ مع شلَّة الأُنس يعمي عينيه عن السَّبب والنَّتيجة.



ثلاثة أيام يترصد «سلمى» ، يتبعها خُفيةً حتى تدلفَ إلى بِنايتها التي تقطُن بها، دوًّن في عقله أوقات تواجُدِها في «السنتر التعليمي»، وكأنه يرسُم خُطةً يظنها مُحكمة، ولكنها في الحقيقة خُطة عشوائية لا نهاية لها، ودون هدف مُحدد، هو لا يعرف لماذا يفعل كل هذا ؟، كل ما يشعر به هو الرغبة بمُضايقتِها، يُريدُ لمسَها كما كان يفعل مع شقيقته، النشوة التي يشعُرُ بها أثناء ترصدها تُوقظ الحياة بداخله، وتجعلها تسري بأوردتِه، مُجرد صيادٍ مُبتدإٍ لا يحسِبُ للخطة المقبلة حساباً.

وفكر بنفس الطريقة التي اعتمدها عقله في المرة الأولى، لو كانت تنفر منه بحق، لكانت انقطعت عن المجيءِ إلى هنا، أو حتى جاء معها والدها أو أخوها أو والدتها؛ ليتشاجروا معه، ولكن هذا لم يحدث، فلربما إذن هي خجولٌ فقط، تحتاج بعض الإجبار في البداية.

هكذا كان يحدث في الأفلام التي كان يُشاهدها، لقد كان مُدمِناً على مُشاهدة المقاطع الخاصة بالإجبار، والمُمثلة تُتقنُ دورها، في البداية تصرخ وتحاول الهرب ثم تكون سعيدة في النهاية، هذا ما ترسخ بذِهنه، ويريد أن يُجربه ... كفى مُشاهدةً.

وفي اليوم التالي لم يكن «حسن» على طبيعته التي عرفها «رمزي» في الأيام السابقة، كان مُنغلِقاً للغاية لا يُحدثه، ولا يُلقي إليه بالأوامر كالعادة، مُتجهماً

وكأنه يتخذ قراراً لا رجعة فيه، كان يتمنى أن يسلك نفس طريق صاحب الفضل عليه بعد الله، أسطى «رحيم»، ولكن رغبته تلكَ تنازع خوفه على الفتاة.

ورشته في مُنعطفٍ لا بد أن تمر الفتاة به قبل أن تعبر الطريق باتجاه سيارات الأُجرة، والشَجرة الضخمة المُلاصقة لها تُمكنه من انتظارها أسفل فروعها الكثيفة باطمئنانٍ دون أن يراه أَحدٌ، و «رمزي» يستغلُّ هذه الميِزة لصالحه، حاول ردعه عنها، ولكنه لا يرتدع ولا يُوجد أمامه سوى حل واحد، وفي النهاية حسم أمره، وناداه بداخل الورشة؛ ليحدثه عن قراره الأخير:

- «رمزي» أنا.. آسف جداً .. لا عمل لكَ عندي .. ولكن لا تقلق .. سأجد لك ورشة أخرى.. تعمل بها .. في مكان آخر .. بعيداً عن هنا.

هل يطرده؟!، ابن الحرام الذي لا يستطيع أن يقول جملةً كاملةً واضحةً يطرده هو؟!، هل قامتِ القيامة وانقلب الحال إلى هذا الحدِّ؟.

- لماذا؟!.

قالها «رمزي» وهو يضغط أسنانه فتصطكُّ بصوتٍ لا يسمعه سواه، بينما عيناه تبرُقان بعنفٍ لا يخلو من الصدمة، شراراتٌ الكراهية والنفور التي أطلت من عينيه في تلك اللحظة قالت الكثير، كانت أكبر من أن يستطيع مُواربَتها عن عيني «حسن» الذي قرأها بوضوحٍ، وقد زال تجهمه والتنازع بين عقله وقلبه بعد أن تيقن أن «رمزي» لم يكن يوماً يحترمه أو يتخذه قدوةً فضلاً عن أن يكون صديقه كما كان يُكرر دائماً، فقال بخيبةٍ خفيةٍ مُغلفةٍ بالإصرار والشدة، وقد باتَ قراره نهائياً لا رجعة فيه:

- لقد حذرتك مِراراً.. ؛ لتترك تلكَ.. الفتاة لحال سبيلها .. ولكنك لا تسمع .. اليوم هو آخر.. يوم عمل لك هنا.. اذهب إلى حال.. سبيلك.. بعيداً عني.

مُجدداً؟، يقع الاختيار على الفتاة، وينبذونَه هو، لماذا؟، ماذا فعل؛ ليتعاملوا معه بهذا الجحود والنُّكران؟!.

ظل واقفاً كتمثالٍ باردٍ فاقدٍ للحياة، لولا نظراته السامة نحو«حسن» الذي قرأها الأخير جيداً، ودون شعورٍ وجد نفسه يقف مُتحفزاً لقتالٍ ما، ولكن التمثال تحركَ فجأةً، وأطرق برأسه للحظاتٍ مُعيداً تشغيل أفكاره من جديد قبل أن يرفعها، وقد خبَتّ نظراته العنيفة فجأةً وكأنها لم تكن، وسكن بدلاً عنها تشتت وحيرة أجادهما وهو يقول بخُفوتٍ:

- حسناً.. كما تريد.. ولكن اتركني فقط للغد حتى أتدبر أمري.

تفكير «حسن» في المُهلَة التي طلبها لم يأخذ منه سوى لحظاتٍ قبل أن يُومئَ بالموافقة، وهو يَعِدُ نفسه بأنه آخر معروف سيقدمه له؛ إرضاءً لضميره فقط، سيتحمله يوماً إضافياً آخر، وهو لا يعلم أن هذه المُهلة القصيرة ستقلب حياته كلها رأساً على عَقِبٍ.!

وفي المساء شاهد «رمزي» أستاذ المادة خاصتها يصل متأخراً ساعةً ونصفاً عن موعده كعادته يوم السبت من كل أسبوعٍ، وبحسبةٍ بسيطةٍ علم أن «سلمى» لن تُغادر قبل الحادية عشرة ليلاً.

فانتظر انصراف «حسن» في العاشرة مساءً مُغادراً ؛ ليقوم بغلق الورشة من بعده كما يفعل يومياً منذ أن عَمِل «رمزي» معه، وفي العاشرة والنصف، قام بجذب الباب المعدني هبوطاً إلى منتصفِه تماماً، وقد اشتدت الريح، وهطلت الأمطار بغزارةٍ .

انتظرها عند زاوية مُظلمة بالجوار، أسفل الشجرة الضخمة التي تهتزُّ أوراقها بقوة بفعل الرياح؛ نظراً لموقعها على حافة منعطف الطريق.

كالعادة خرجت «سلمى» بمفردها، وهي تلوح لصديقاتِها مُودعةً في محاولةٍ لا تفتر عنها أبداً في إقناع نفسِها بأن الفتيات تهتم بوداعِها هذا، فهنَّ ما زِلن يقفن في مدخل البناية من الداخل مع أولياء أمورهن الذين كانوا يتحدثون مع أستاذ المادة، ويتذمرون من استمرار المُراجَعات إلى موعد مُتأخر في مثل هذا الجو العاصف.

كانت مُتعجلة من أمرها، وتريد أن تصلَ إلى البيت قبل عودة والدتِها التي تعود متأخرة هي الأخرى بسبب عملِها، لم تكن تعلم بأنها لن تصل أبداً في هذا اليوم!، لم تكن تعلم أنَّ أحدهم قرر أن يُطلعَها على خطاياه ويشاركها إياها، وأنَّ الذئب دائماً ما يترصد بالغَنَمة القاصية.

سارت شبه راكضة تدفع قدمَها المُصابة دفعاً؛ فزخات المطر اشتدت فوق رأسها، وحولتِ الأرض الترابية إلى بِرَكٍ من الطين يُهددها بسقوط مُدَوٍ، بينما هزيمُ تلك الساهجة يُرهِب خافقَها بقوةٍ، وتُثير في عقلِها خيالاتٍ مُرعبةً.

وهي صغيرة كانت أمها تقول لها: إن أصوات الرياح القوية ما هي إلا صُراخ نوع من أنواع الجن الذي يتأذى من المَطر الشديد، فيدور حول نفسِه بسرعة قُصوى صارخاً من الألَم فيصنع دوامات هوائية يسميها الناس بالرياح !.

ابتسمت بتردد وهي تسرع الخطى مؤنبة نفسها بأنها لا زالت تتذكر تلك الحكايات الغريبة والخيالية برغم مُصارحة والدتِها لها بأنها كانت تقصها عليها وهي صغيرة؛ حتى تمنعَها من الخروج إلى الشرفة وقت المطر فتبتل وتمرض.

زالت ابتسامتها، واختفت في نفس اللحظة التي مرت فيها بجواره، وهو مُختبِئ في الظلام أسفل جذع الشجرة الضخمة، ربما لو عادت تلك اللحظة

مرة أخرى، لاختارت «سلمى» أن تمشيَ وسط الطريق بين الوحل والطِّين، وبين الجن الصارخ المُتألم على أن تصعدَ إلى الرصيف وتمر بجوار تلك الشجرة.

ضربها على رأسها من الخلف بآلة حادة مِما يتم استعمالها في الورشة، فسقطت من فورِها فاقدة الوعي، كما توقع هو وخطط مُسبَقاً، الآن سيلقي فوق جسدها قطعة كبيرة من القماش الذي يُغطي به السيارات، ثم يحملها إلى داخل الورشة .

وتبدأ المُتعة الحقيقية.

ولكن ما لَم يكن يُخطط له أن يرى على ضوء كشافات السيارات السريعة المُنطلقة على الطريق الممهد الذي يبعد عن المُنحنى بحوالي عشرة أمتارٍ، بقعةَ دماء تنتشر سريعاً، وتتسع في لحظات قليلة على إثر تلك الضربة في رأسها، حجابها الذي كان ناصع البياض كبراءتِها غلفه الأحمر الناتج عن دماء حياتها بلون الموت الوشيك، المنظر أفزعه، وجعله يتراجع خُطوة للوراء وهو يحاول أن يرى بوضوح أكبر، البقعة تتسع، والنَزيف ينهل من أوردتها؛ لتُروى به جذور الشجرة وما حولها من حجارة مرصوفة فوق بعضها البعض بغير تناسق.

أصوات الفتيات المُتداخِلة مع أُسَرِهنَّ بدأت تقترب منه، فتلفت حوله مُضطرباً وقد توقف عقله عن العمل للحظات، وكأي جبان، تركَها وفر هارباً مُستغلاً الظلام.

لقد ضاعت الخُطة هباء، والفريسة سقطت جثة من مجرد هجمة واحدة كانت أقوى مما كان يظن، فأودَت بحياتها. لماذا لا تسير الأمور بأريحية معه؟. لماذا يقف القدر دائماً في طريقِه؟ وما ذنبه هو؟!. هي التي انتهى عمرها في تلك اللحظة، وما كانت ضربته إلا سبباً من الأسباب.

«حسن» هو مَن جعله يتصرف برعونة، ووالده هو السبب في عملِه لدى هذا النغل!، و «غفران» هي السبب في كل ما يحدث. لماذا يكرهه الجميع ويقف العالم ضده حتى ملَك الموت شخصياً ؟!.



في اليوم التالي اختار «حسن» أن يذهب إلى الورشة متأخراً، فهذا هو آخر يوم عمل لـ «رمزي» لديه، وهو لا يريد أن يتحدث معه كثيراً، بل لا يريد أن يرى وجهه مُطلقاً حتى تنتهي مُهلته ويرحل، وقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يُغادِر فيها غرفته في الثانية بعد الظهيرة.

فتح بابها للمغادرة فسمع قرع نعال قادمة من الجحيم .. يبدو أنها متجهةٌ إليه هو خصوصاً، وهتافاً قادماً من السلم المواجِه لباب غرفته بأن المُجرم يقطن الغرفة في الطابق التالي، نظر حوله باضطرابٍ لا يفهم ماذا يحدث؟، وماهي سوى لحظاتٍ، وبدأت الأجساد اللاهثة تظهر وتندفع نحوَه هو.

وبرد فعل تلقائي وجد عينيه تتسعان، وقدميه تعودان للداخل، ولم يكن قد أغلق الباب بعدُ، ولكن أصحاب السترات المدنية لحقوا به، وقفزوا نحوه متشبثين بذراعيه، وبدون حديثٍ انهالوا عليه ضرباً بالِعصي التي لا تُفارق أيديهم، وسباباً بأقذر الألفاظ، حاول هو الدفاع عن نفسه، وقاومهم قدر إمكانه رغم التكالب والضرب الشديد، حتى بدأ يُميز وجهاً واحداً من بينهم، «صفوان» أحد رفقاء أبيه على القهوة الشعبية، وهو يعمل في نفس الوقت مُخبِراً في قسم الشرطة التابع للحي، لقد كان يضربه بقسوةٍ وغل واضح، ولذلك استجمع «حسن» قوته ووجه قبضته إلى أنفِه دون غيرها فنزفت في الحال.

خرج «صفوان» من المعركة الدائرة مُتراجِعاً للخلف، وهو مُمسك بأنفه المُصابة ويسب «حسن» آمراً البقية بأن يسحبوه على الدرج حتى باب البِناية جراً ومنها إلى سيارة الشرطة الزرقاء التي تنتظر بالأسفل.

وفي قسم الشرطة وأمام الضابط المُكلف بالقبض عليه؛ اكتشف «حسن» أن ما حدثَ له في غرفته لم يكن أكثر من مِزاحٍ ثقيلٍ، فهنا الضرب مُختلف تماماً، فن لا يجيده سوى الخُبراء، ولايتذوقه إلّا المطحونون، يؤلم بعنفٍ، ولا يترك علاماتٍ جسديةً، ريْثما يصدح صوت الضابط وهو يسأله بخشونةٍ عن الضحية ومدى معرفتِه بها، وكيف عثروا على تلك الآلة الحادة خاصتِه بجوار جثتها؟، ولماذا كان يتحرش بها هي بالذات كما اتهمته والدتها ؟.

كل هذا الضرب والعنف وهو ما زال مُشتبَهاً به؟!.

مُجرد مُشتبه به يُنكِر معرفته بكل شيء برغم التعذيب، لا حقوق له ولا رحمة، فكيف إذن لو ثبتَ أنه الفاعل؟!، لم يكن وقْعُ ما يحدث له الآن أقوى من صدمته عندما علِم بالجريمة، وربما صدمته هذه هي ما جعلته يتحمل اللكمات كأنه مُخدر . !.

الفتاة المِسكينة قُتلَت بجانب ورشتِه التي تُركَ بابُها مفتوحاً، وباستخدام إحدى أدواتِه، وعندما عثرت إحدى زميلاتها عليها مُلقاةً على الأرض غارقةً في دمائِها، صرخت وجمعت بقية الفتيات حولها وأولياء أمورهنَّ، وقاموا بالاتصال بوالدتها، ثم نقلوها إلى المَشفى الحكومي القريب، الذي أسهمَ في القضاء على الآمال الضعيفة أن تبقى على قيد الحياة، فهُدرَت دماؤها الباقية بإهمالٍ، بدعوى عدم وجود إمكانيات العلاج المُناسب، وحتمية نقلها بسيارة إسعافٍ إلى مَشفى آخرَ، فالمَشفى كانَ لا يملك أكياس الدماء، وسيارة الإسعاف الخاصة به كانت مُعطلةً، والطبيب المُناوب فضل أن ينامَ في بيته في تلك الليلة المُمطِرة الباردة، وخطَّ القدرُ كلمتَه!.

عندما حضرت سيارة الإسعاف بعد وقتٍ طويلٍ لم يكن هناك حاجةٌ لها، فالضحية كانت قد فارقَتِ الحياة تاركةً بقية البشر يرتعون في سلسلةٍ مُتواصلةٍ من الإهمال وانعدام الضمير.

وفي الصباح بدأتِ الأخبار تتناقلُ في الحي، فتاة مقتولة بجوار ورشة «حسن»، والورشة مفتوحة وصاحبها لم يحضر بعدُ، كل التفسيرات والتحليلات وأصابع الاتهام كان مُنتهاها شخصاً واحداً فقط ، «حسن»، فلم يحتَجِ الأمر سوى فاعل خيرٍ، وكثيرٌ ما هم !.



وبعد ثلاثة أيام من الضرب والتعذيب والإهانات قضاها «حسن» في حجز القسم، وقف أخيراً أمام غرفة وكيل النيابة، دفعَه أمين الشرطة للأسفل مُجبِراً إياه على الجلوس بوضع القُرفُصاء هاتفاً بغِلّظة:

- اجلس هنا حتى يأتي سعادة الباشا .

كان في تلك اللحظة يُمَني نفسه أن ما حدث في قسم الشرطة لن يتكرر هنا، وأنه سيتمُّ مَنحُه فرصةً للحديث والدفاع عن نفسه، فأطرق برأسه وهو يُحاول تجميع شتات أفكاره، سيقصُّ على وكيل النيابة القصة كلها عن «رمزي» ومضايقته للفتاة مِراراً وتَكراراً، ويشك بأنه هو الفاعل الحقيقي، وبالتأكيد ستُظهر التحقيقات براءته، وربما يعود إلى غرفته اليوم أو في الغد على الأكثر، هو بريءٌ ووجوده هنا بالخطأ ليس أكثرَ!.

الأصوات المُتداخلة الآتية نحوه والتأوهات المُرتفِعة المصحوبة بنشيج جعلته يرفع رأسَه؛ لينظر ما يحدث، سيدة تتشح بالسواد مُقبِلةً نحوه تبكي بحرقةٍ، وتستند إلى ذراعَي امرأةٍ أخرى تكبُرها في العمر قليلاً، والتي كانت تحاول أن تتشبث بها جيداً حتى لا تسقط، بينما تُخبرها بأن تصبرَ وتحتسب، وبأنَّ حق ابنتِها لن يضيع، وسيتم إعدام القاتل بالتأكيد.

السيدة الباكية كانت تتأوه بحُرقة، وهي تنادي على ابنتها؛ لتأتي وتخبرها بأنها ما زالت على قيد الحياة، وبأنها لم تُزهَقْ روحُها بتلك الطريقة الغادرة

الجبانة، وبأنها ستكبر أكثر، وستكون عروساً جميلةً، فتنجب لها الأحفاد الذين سيملأونَ الدنيا صَخَباً من حولها.

غُصة مُسننة ضربت حلقه، وحديثها النازف يُخبره بشخصيتها، إنها والدة «سلمى» دون شك، تبكي ابنتها، وتتحدث بما يَفطُر قلبَها وقلبَه أكثر، بينما صديقتُها المُسنة الصلبة في وقفتها تشد من أزرها مُتمسكةً بها بقوة وصبر ونظرات دامعة ملتهبة ومكلومة.

حضر وكيل النيابة، وأمر بدخول والدة القتيلة، دلفتِ السيدة وَحدها؛ لتدلي بأقوالها، بينما انتظرتها صديقتها في الخارج ترمُق «حسن» بنظرات رِيبة؛ ظناً منها بأنه هنا لأجل قضيةٍ أخرى.

دقائق طويلةٌ مرت، كل لحظةٍ فيها ينهش الألم ساقيه من تلك الوضعية، فيقف للحظاتٍ قبل أن يجبِره حارسُه على مُعاودة الجلوس مُجدداً، قبل أن يتم استدعاؤه للدخول، فينهض مُسرِعاً، والأمَل في انتهاء كل هذا العذاب يُداعِب قلبه بكلمة الحرية.

بعد عدة دقائقَ ليست بالقصيرة، مضت عليه كالدهر مُنتظِراً، وما أقسى وأقصى من انتظار الأمل!، تم استدعاؤه للدخول، هناك كانت المُواجهة الحقيقية، عندما تيقن أن السيدة التي سبقته بالدخول ما هي إلا والدة «سلمى» المجنيِّ عليها.

كان مُتحفزاً للغاية وهو يُجيب أسئلة المُحقق عن طبيعة علاقته بالضحية، رَيْثما السيدة ترمُقه بنظراتٍ مُنهارة، بدت في البداية غاضبة كارهة عدائية، ولكنها تحولَت إلى التدقيق والتأملٍ مع الوقت، وهي تتفرَّس فيه بشدةٍ، وفجأةً قاطعتِ التحقيق هاتفةً بنَبرةٍ مبحوحةٍ من شدة البكاء:

- لا يا فندم.. ليس هو.. الشخص الذي كان يُضايق ابنتي مواصفاته مختلفة.

التفَتَ لها المُحقق وهو يُشير إلى «حسن» بالقلَم المُعلق بين أصابعِه وهو يسألها عن وجه الاختلاف بينه وبين الشخص الآخر فقالت على الفور:

- ابنتي كانت تقول لي: إن الشخص الذي يُضايقها كان أكثر طُولاً منها بكثير.. ونحيفٌ للغاية .. وشعرُه طويل.

هذه المرة كانتِ المُقاطَعة من نصيب «حسن»، وقد بدا الأمل في الحرية يداعبُه أكثر فأكثر، وقال بحماس مُرتبك:

- نعَم.. نعَم.. إنها مواصفات .. «رمزي».

نظر له المُحقق بضَجَر، وهو يسأل بفتور:

- ومَن هذا أيضاً ؟.

من شدة حماسه والموقف الصعب الذي زُجَّ به منذ البارحة رغماً عنه بدأ تلعثُمه يظهر أكثر وهو يحكي عن عمل «رمزي» معه في ورشته الخاصة المؤجرة، ومضايقتِه المُستمِرة للفتاة ، وتحرشِه بها لفظياً، ومحاولته هو زجره والدفاع عنها حتى إنَّه قام بطَردِه في النهاية عندما بدأ يقلق عليها من تصرفات «رمزي» التي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، ولكن المُحقق فسر تلعثُم «حسن» بطريقة أخرى، فدقق فيه بشك، وهو يسألُه بتمهلٍ:

- هل لديكَ شهود على ادعائكَ هذا؟.

- أظن ..ـفي إحدى ..المرات فعَل هذا.. بينما صديقاه ..اللذان تعرَّف.. عليهما مؤخراً .. يقفان بالقرب منه.

أمر المُحقق باستدعاء «رمزي حافظ رمزي» مع استمرار حبس «حسن» خمسة عشر يوماً على ذمة التحقيق بحروف ممطوطة، ونظراتُه الحادة مُسلطة على «حسن» وعلى هيئته الخارجية.

الجُرح المُلتئِم في جانب جبهتِه، ويداه الخَشِنَتان، وجسدُه العضلي بفعل عملِه الصعب، وممارسته للملاكمة، نظراته الحادة، وملامحه القاسية بفعل قسوة ما لاقاه من إبعادٍ وإهانةٍ وتشرُّدٍ، تلعثمُه من وقت لآخرَ وكأنه يقوم بتأليف ما يقوله في اللحظة والتوِّ، كل هذا تآمرَ عليه ومنحَه دور المُجرِم بجدارةٍ .

أنهى أمر الاستدعاء، وبداخله بدأت دائرة الاتِهام تلتف حول رقبة «حسن»؛ فوالدة الفتاة لم ترَ أياً منهما رأيَ العين، وكل ما لديها مجرد مواصفاتٍ هُلامية لشخص يعمل في الورشة كان يُضايق فتاتها باستمرار.

لا دليلَ مادياً سوى باب الورشة المفتوح وأداة الجريمة المنسوبة للمتهم الأول .. «حسن أنور برهان».



طَرقات مُزعجة على باب بيت والد«رمزي» يصاحبُها صوت « أنور برهان» الأكثر إزعاجاً مُنادِياً بصخبٍ:

- افتح يا «حافظ» .. أنا أعلم أنَّك بالداخل.. افتح.

- ماذا يريد منَّا؟.

قالتها والدة «رمزي» وهي ترتجف من شدة الخوف، وما الغريب؟، إنها ترتجف منذ تلك الليلة، الليلة التي طَرق ولدُها الباب بعد مُنتصفِ الليل، وارتمى بين أحضان زوجِها وهو يبكي، وجسده يختض بقوة، ويخبرُه أنه ارتكب جريمة قتل دون قَصْدٍ منه، سحبَه والده لغرفته في الداخل مُحاولاً الحفاظ على خفض صوته، وثبات انفعالاته بالرغم من انقباضة صدره، والألم الفوري الذي ضربَ قلبَه، رَيثما «رمزي» يُنهِي حكايتَه التي لفقها سريعاً، وهو يقول بصوت مُرتجف يشبه الهمس:

- لقد كانت تربطني بها علاقة حُب.. ولكنني عرفت أنَّ سمعتها سيئة.. فقررت قطع تلك العلاقة.. والابتعاد عنها.. وأنتبهُ إلى عملي.. ولكنها غضبت بشدة.. وتشاجرت معي.. وهددتني يا أبي.. فلم أستطِع أن أتمالكَ نفسي.. وضربتها فوقعت غارقة في دمائها.. هربتُ ولم يرَني أحد.. لو ماتت فسيتم إعدامي يا أبي.. سأموت.

جذبه والدُه بشدة أسفل ذراعِه، وهو يربِتُ على رأسه، وعيناه تتسعان ذُعراً ويُهمهِم برُعب:

- لا.. لا.. لن يأخذوك أبدًا منِّي.. لن أسمح لهم بذلك .. على جثتي.

بينَما جثَتْ والدته على ركبتيها أمام الفراش، وهي تبكي وتُولول وتنتحب على ذَكَرِها الوحيد مُمسكةً بركبتيه تضغطهما بشدة:

- ولدي الوحيد.. سيضيع مني.. ولدي يا «حافظ « .. افعل شيئاً.

كان «حافظ» في حالة من الهَذَيان، وخافقُه يضربه بنبضاته بقوة مُوجعة، فقال بضياع:

- لقد أرسلتُ أختك إلى بيت خالتها؛ لتعيش هناك معها وتخدمها.. وكنت أُجهز لكَ غرفتك؛ لتكون لك وحدك.. لقد اخترتُك يا ولدي.. لقد اخترتُك.

أسرع «حافظ» وأغلق باب الحجرة التي لم يخرج منها» رمزي» منذ تلك الليلة وإلى الآن، ثم عاد وأمسكَها من مِرفقيها بقوة هامساً:

- افتحي له الباب.. وتظاهري بالدهشة لزيارته المُفاجِئة.. ولا تسمحي له بالدخول.

أومأتِ الزوجة بطاعة، ووقفت أمام باب الشقة من الداخل، تبتلع ريقها الجاف، وتحاول السيطرة على ملامح وجهها المذعور، وأخيراً فتحَتِ الباب، ونظرت له بتجهم، وبنبرة مُرتبكة حاولت أن تبدو غاضبة قالت:

- ماذا تريد؟.

دفع «أنور» الباب ودخل بعُنجهيَّته المشهورة قبل جسدِه الضخم، وهو يصيح بصوته الجهوري:

- أين زوجُكِ يا امرأة؟ .. أنا أعلم أنَّه بالداخل.. هل يخاف من مواجهتي؟.

خاف «حافظ» من صوته المُرتفِع، وخرج إليه على الفور هاتفاً باضطِّرابٍ:

- احترم البيتَ وأصحابه يا حاج «أنور».. لماذا كل هذه الضجة؟!.. ماذا تريد؟.

التفت «أنور» تُجاهه، ثم ابتسم بمَكرٍ، وهو يُلاحظ حبات العرق التي بدأت تنبتُ على جبينِه العريض، تحولتِ ابتسامته تلكَ لضَحِكاتٍ مُتتالية ترتفع شيئاً فشيئاً، بينما مَعِدتُه الضخمة تهتز قبل أن يهدأ بعد لحظاتٍ قليلة وهو يراه يتبادل النظرات الخائفة مع زوجته، وعندما أنهى ضحكاتِه الصاخبة اقترب من «حافظ»، وهو يضم كفيه إلى بعضهما البعض، ويفركهما بحماس وشعور باللذة لا يوصف، وقال:

- أريد كل خير.. مُر زوجتَكَ أن تذهب.. وتعد لنا عَشاءً فاخراً.. فهناك صفقة تستحق.



هل من السذاجة أن نشعر بالصدمة من أشخاص مارسوا علينا القهر والذل والخيانة لسنوات طويلة دون ذرة ضمير تؤرِّق مضاجَعهم، ثم ختموا أفعالهم تلك بشهادة زور باطلة ؟!.

إنها أبسط مِما لاقاه منهم سابقاً بكثير، فلماذا كل تلك المرارة التي تملأ قلبه؟!، لماذا هذا الشُّعور بالخُذلان الذي يزرع غصةً تتبع أخرى في حلقِه؟!، هل هذه نظرية القشة التي قصمت ظهر البعير؟. أم أنه برغم كل تلك المعارك الخاسرة معهم يظل بداخلِنا الأمل في أن يحبونا يوماً ما متشبثاً بجزء ما خفي في الفؤاد، مُختبئاً بخجَلٍ حتى عنا نحن؟.. نظرية الخاسرين التي لا يفهمها غيرهم!، ولايستطيعون التعبير عنها بغير الألَم، الألَم الذي ينسحب رويداً رويداً، ويترك مكانه فارغاً لليأس وكراهية الذَّات، ثم بُغض الحياة والعالَم بأسره والرَّغبة في الموت بصمتٍ.

رفض أن يستدعي مُحامياً للدفاع عنه، فانتدبَتِ المحكمة واحداً من أجلِه، والذي أبلغَه بأنَّ والده قام بالشهادة ضده، وذكَر من ضمن شهادته بأنه كان يشاهدُه مِراراً وتَكراراً وهو يغازل المجني عليها، بينما هي تهرب منه خائفةً، وليلة وقوع الجريمة رآهما يقفانِ أسفل الشجرة الضخمة يتشاجرانِ، ولكن الإضاءة كانت خافتةً، فلم يتبين ماذا حدث بعد ذلكَ ؟.

وأثناء إحدى الجلسات الخاصة بسماع الشُّهود، جلسَ مُطرِقاً خلف القضبان الحديدية فاقداً الرغبة في الحياة، وهو يشعر بأنَّ صوت والده وهو

يتحدث بثقة يتسلل إلى صدرِه لا إلى أذنيه، كدخان أسود يخنقه ببطءٍ، ويمنع عنه أقل حقٍّ من حقوقه في التنفس، على الرغم من أنَّه سمعها من قبلُ من المحامي المُكلف بالدفاع عنه، حتى أنه تناسى وجود «رمزي» بالقرب منه خلف القضبان، والذي كان يقف مضطرباً مُمسكاً بالقضبان بكلتا قبضتيه مُلتصقاً به، والخوف والرعب يتجسدان على ملامحه، خوفاً من تواجدِه بجوار «حسن» الذي ضربه من قبل في غرفة الحجز بمجرد دخوله إليها، حتى تم التفريق بينَهما، وخوفاً من شهادة والدةِ المجني عليها، والتي ما زالت تصر على أن مواصفات «رمزي» هي الأقرب لِما كانتِ ابنتها تصفُها لها من قبلُ.

المحامي الذي كلَّفه والده بالدفاع عنه كان بارعاً حقاً في عملِه، ويعرف ماذا يفعل؟، وهو يناقشها في شهادتها متسائِلاً:

- ولماذا لم تذهبي معها ولو مرة واحدة إلى هناك؛ لتُوقِفي من يفعل ذلك معها عند حدِّه؟!.

صمتت للحظات وهي تنظر إليه بعينين مكلومتين متورمتين، ووجهٍ شاحبٍ يعلوه الإحساس بالذَّنب، لم تكن تحتاج إلى سؤاله هذا، فلقد كانت تسأله لنفسِها كل لحظةٍ، منذ أن وقفت على رأس ابنتِها وهي جثة هامدة، فاقدة للروح، هي المُذنِبة الحقيقية، هي مَن سلمتها بيدِها لهذا المُجرم ليقتلها، هي التي قتلَتها بإهمالِها، ماذا كان سيحدث لو أنها حصلت على إجازةٍ من عملِها ولو لساعتين فقط؛ لتذهب معَها إلى هناكَ، وتتشاجر معه وتوبخه وتهدده بأن يبتعد عن ابنتها وإلا ... ، وإلا فأيّ شيءٍ .. أيّ شيءٍ يجعله يتراجع، كل الأمهات يفعلن ذلك ببساطةٍ كل يوم، ولكنها بنفس تلك البساطة.. لم تكن تصدقُها من الأساس، كانت تأخذ شكواها بلا مبالاةٍ.

مَن هذا الذي سيترك الفتياتِ الجميلات المُتعافيات جسدياً ويغازل ابنتها صاحبة العرجة الواضحة والملامح المُتواضِعة جداً؟، لا بد من أنَّها تكذب، وتؤلف تلك القصص؛ لتحصل على اهتمامِها فقط، هكذا تفعل المراهقات دوماً، وخصوصاً مَن تعاني من نقصٍ في ثقتها بشكلها الخارجي، ماذا لو أخذَتها مرةً واحدةً على مَحمل الجد؟، لا بد من أنَّ المُجرم استغل وَحدَتها وضعفها وسلَبَها روحها على حين غِرةٍ.

بكت .. بكت بقوةٍ وحُرقةٍ وهي تجيب بصوتٍ مزَّقه البكاء:

- لم أكن أتخيل أن يفعل بها ما فعل .. تصورت أنها مجرد مُعاكسة لفتاة كما يحدث في كل الطرقات.

وكأنها منحت «رمزي» شهادة الحرية بكلماتها تلكَ، فابتسم مُحاميه بخُبثٍ وهو يفتح ذراعيه قائلاً بثقةٍ:

- إذن، فأنتِ لم تُعيريها أيَّ اهتمام.. فكيف نتأكد أنَّك كنتِ تهتمين بسماع تلك المواصفات التي تقولينَ بأنها تنطبق على «رمزي» ؟.

عادت تبكي من جديدٍ وبقهرٍ أكبر من ذي قبلُ، وهي تهتف بانهيارٍ حتى كادتْ تتهاوى ساقطةً على ركبتَيها:

- أنا متأكدة.. متأكدة.

وعلى النقيض تماماً وقف « أنور برهان» بثقةٍ وثباتٍ وهو يشرح كيف شاهد ما حدث في تلك الليلة، وأنهى كلماتِه بعبارةٍ ربما استوحاها من تلك الأفلام العربية القديمة التي يُدمن مشاهدتها على المَقهى الشعبي بصُحبة صديقه «صفوان»:

- هو ولدي نعَم.. ولكنها شهادة سأُحاسَب عليها أمام اللّه.

وزحفت في تلك اللحظة ابتسامةٌ بائسةٌ مِثله إلى شفتيه وهو يُتمتمُ:

- نعَم.. ومثلك يعرف اللّه جيداً.. يا « أظلم» !!

أيام وأسابيعُ وشهورٌ يَلِي بعضُها بعضاً، حتى باتتْ مصافحتها للعام وشيكةً، لم يكن فاقداً لقدرتِه على العدِّ، بل لم تكن لديه رغبةٌ في المعرفة، أحياناً يكون الجهل دواءً بشكل ما يتم به تسكين أعراض الظلم وارتفاع وتيرة حالة الانقراض والتلاشي اللذين كانا يسيطران عليه مثل كائنٍ خرافي من العصور الوُسطى.

هذا العام قضاه بين تحقيقات النيابة، وجلسات المحاكمة وهو محبوسٌ احتياطياً على ذمة هذه القضية حتى حصل على الحكم الابتدائي الذي لم يشكل معه فارقاً نفسياً كبيراً.

حكمتِ المحكمة بسجن المتهَم عشرَ سنواتٍ مع الشغل ... نطقَ بها القاضي وكأنه لم يستقر في وُجدانه بعدُ أنَّ «حسن» مُذنب، ولمَ لا وشهادة شهود الواقعة تتضارب وتتعارك أمامه بعنفٍ ؟!، فبرغم قوة شهادة والده إلا أن محاميه أثبت بشهادة الشُّهود من سكَّان الحي أنَّ بينهما خلافاتٍ ومعارك يومية، وفي نفس الوقت استطاع مُحامي «رمزي» أن يأتي بشاهدين أقرَّا بأن رمزي كان معهما ليلة وقوع الجريمة خارج القاهرة في رحلة عملٍ إلى محافظة بورسعيد، وقالا: إنهم ابتاعوا من هناك مجموعةً لا بأس بها من الملابس؛ ليُتاجروا بها في الحي عند عودتهم كمشروعٍ صغيرٍ.

وبالرغم من خروج «رمزي» من القضية كمتهمٍ إلا أنَّ الأمر لم يكن حاسماً بعدُ، فما زال هناك استئناف ونقض للقضية قد يصل بهم إلى عامٍ آخر أو عامين.

هذا ما جعل والد «رمزي» يؤجل تنفيذ الصفقة المُبرَمة بينه وبين «أنور برهان» في منزله في تلك الليلة المشؤومة التي زارهم فيها، واشترط ألا يتم التنفيذ إلا بعد صدور حكمٍ نهائيٍّ؛ لكي يطمئنَّ قلبه، وقال له حينها بشكلٍ قاطعٍ:

– سنقوم بعمل خطوبة فقط الآن .. أمَّا الزواج فلن يحدث إلا بعد الحُكم النهائي.

«أنور» كان ذئباً ماكراً، إلا أنه في نفس الوقت يشتاق إلى سجن «حسن» أكثر من شوقه إلى وَضع خاتمِه الرخيص حول إصبع الفتاة الصغيرة، التي لم تكن تعرف أنها أصبحت كبش فِداءٍ لبراءة أخيها العابث.!



ناقص ١٨

قبلَ عامين ...

عاصم ... يقف متحفزاً دون قَصدٍ منه أمام النافذة المفتوحة، عيناه شاردتان، ويدُه في رحلةٍ محفوظةٍ صعوداً وهبوطاً نحو فَمِه الذي يستقبل لِفافة التَّبغ بين شفَتَيه بشكلٍ آلي تدرب عليه منذ سنواتِ مراهقتِه، لم يتوقف عن التدخين إلا في الأيام التي كان يقضيها في الكلية فقط، لم يكن يُدمنُها وقتَها، أما بعد تخرجه بسنواتٍ وعملِه في قسم الشُّرطة، تحديداً منذ عامٍ كاملٍ أصبح مُدمِناً عليها.

رائحة الدخَان لا تفارق مكتبَه ذا المساحة الواسعة، والمطلية جُدرانُه بالرَّمادي الداكن الذي يُشعره دائماً بالكآبة إلا أنه يُفضله، يُضفي عليه الهيبة اللازمة كما يظُنُّ.

مكتبه الخشبي من خلفِه مُزدحمٌ بسبب شروده الذي ازداد في الآونة الأخيرة، الملفات مفتوحةٌ على مِصراعيها، والصور والأوراق مُكدسةٌ في كل ملف على حِدة، وماذا لو قام ببعثرتِها فاختلطَ بعضها ببعضٍ؟، هل سيشكِّل فارقاً؟!.

كل ملف منها بداخله أطفالٌ في عمر الزُّهور، طفلةٌ مُغتصَبَةٌ من أبيها الذي يُنكر ذلكَ ويتهمها وأمها بالكَذِب؛ ليتخلصا منه ويرثاه، وأُخرى قُتلَت بعد اغتصابها وأُلقِي بها على قضبان القطار؛ لتُسحَقَ وتختفي معالم الجريمة الشَّنعاء، وغيرهما الكثير والكثير، والضحايا مجرد أطفالٍ، بلاغاتٌ عن أطفالٍ مُختفِين بشكلٍ مبالَغٍ فيه.. لقد اكتفَى.

منذُ شهرين انتهى من التحقيق مع أحدهم وتم تحويل القضية إلى النيابة؛ لاستكمال التحقيقات فيها، ضحيةٌ لا يتجاوز عمرها سبع سنواتٍ بعدُ، والعَم هو الجاني، المشفَى الخاص يؤكد أنه العمُّ، وتؤيده أقوال الطفلة بعد تطابق تحليل العينة، بينما الطب الشرعي ينفي!.

أصبحتِ القضية مادةً إعلاميَّة مُشوقةً، ومثار حديثٍ وسُخرية أحياناً، ثمَّ ماتت على لسان الناس وانتهت كما الكثير غيرها.

لحساب مَن يحدث كل هذا؟، ولصالح مَن تحديداً ؟!

أما القضية الجديدة فهي لا تختلف عن هذا كثيراً، ضحية أخرى، طفلٌ لا يتعدَّى العاشرة، قُتِلَ ثم اُغتُصِب بشكلٍ مُروعٍ وهو ميت، أول أمسِ قَبَضَ على الجاني بيديه، وحان وقتَ تحويله إلى النيابة بعد اعترافه، والذي بات يعرف مصيره جيداً منذ الآن، حتى قبل أن تنظر النيابة ثم المَحكمة في أوراقه.

طَرقاتٌ على الباب وصلَه صوتها لم تجعله يستدير للخلف، ويبدو أنَّ الطارق قد اعتاد على ألا يُوليه أحدٌ اهتمامه وهو يرفع صوته بنبرةٍ عسكريةٍ بأن الحاجة «جليلة» تنتظر في الخارج، وبعد إيماءة صغيرة برأسه وهو يُلقي لفافة التَّبغ عبر النافذة، ثم يزفر بقوةٍ ويلتفت ليستقبل زائرته واضعاً كلتا يديه في جيبي سرواله، دلفت «جليلة» إلى الحُجرة بنفس هالة الشكيمة المُحيطة بها، عباءتُها السوداء الفَضفاضة المشهورة في صعيد مصر، وحجابها

الملفوف طبقةً واحدةً حول جِيدها، ذاك الصرير الذي يصدر عن تحركِها دائماً يجعله يُخمن أنها ترتدي نوعاً من أنواع الحُلي الضخمة حول رقبتِها المخفيّ أسفل ملابسها.

يتعاطف معَها كما لو كانت أحد أقربائه، لقد تخطتِ الخمسين من عمرها، فقدت زوجها الذي جاءت معه من الصعيد؛ لتقطُن هنا في القاهرة بجوار عمله الصَّعب، والذي رُزقت منه بوحيدها بعد انقطاعٍ عن الحَمل دام لسنواتٍ، طفلٌ كان سبب فرحتها ورغبتها في الحياة.

أسرةٌ تعيش اليوم بيومِه، لا يملكان سوى شقتهما المؤجرة هنا منذ سنين، لا أرض زراعية ولا عائلة كبيرة، بعد وفاة زوجها لم يتبق لها من الدنيا سوى ولدها الصغير، الذي اعتبرته رَجُلَها وعائلتها وكل ما تملك من الدنيا، وربته على ذلكَ، أن يكون رجُلاً وليس مجرَّد طفلٍ، وهو أثبتَ لها أن تربيتَها له لم تذهب هَدراً، وأنه كان رجلاً حتى آخر رمَقٍ في حياته القصيرة.

أشار لها بالجلوس وهو يدور حول مَقعدِه خلف مكتبِه، ويجذبه للخلف قليلاً قبل أن يحتله بجسده العريض، وبطنه الذى باتَ يهدده بالبُروز كل يوم إذا لم يعُد إلى تدريبات اللياقة البدنية التي تركها منذ شهورٍ، ولكنه يُهملُه مُدعياً أن الأمر لم يتفاقم بعدُ، وأنه مُسيطرٌ!.

لَمْلَمَ بعض الأوراق وهو يُعيدها إلى ملفِّها بترتيبٍ غريبٍ عليه، هو مَن طلبها اليوم؛ لتأتي إليه، ولكنَّه يجهل الطَّريقة التي سيخبرها بها عن الأخبار الجديدة في قضية ولدِها، هل يخبرُها الحقيقة الكاملة أم يتركها تفرح فقط بخبر اعتراف الجاني؟.

- بشرني يا ولدي.. هل هناك أخبار جديدة؟.

قالتها بنظرات مترقبة، عيناها الحالكتان تكادان تبرُقان، وجلستها المُتحفِّزة تميل بها إلى الأمام مُستندةً إلى حافَّة مَكتبه كلَبُؤةٍ تستعدُّ للانقضاض، ولكن وقارُها يمنعها، حركتها المُفاجِئة جعلت مِرفقها يُسقِط اللوح المعدني الصغير الموضوع في مقدِّمة مكتبه، وجد نفسه ينهض قليلاً؛ ليُعدِل من وضعه كما كانَ قبل أن ينظر إلى اسمه المنقوش فوقه بخط واضح، وكأنه يطمئنُّ عليه.

«المُقدم عاصم إسماعيل الجبلي» ، حاول «عاصم» أن يُجبِر ملامحه الحادة على التفاؤل، ولكنه فشلَ فبقيت شبه ابتسامةٍ بلا رُوحٍ فوق شفتيه وهو يقول بسرورٍ مصطنعٍ:

– شاهين وسيد اعترفا بارتكاب الجريمة وهما في طريقهما للنيابة الآن.

نهضت واقفةً وهي تُكور كفيها بتصلبٍ شديدٍ هاتفةً بتساؤلٍ تعرف إجابته:

– اعترفا؟.

هل يبتسم ساخراً الآن؟!، لا بد أنه فعل أصلاً، حكَّ ذَقَنه الحليقَ بأظافره وهو يُومِىءُ بـ «نعَم»، إنه لم ينم منذ جاءته إخبارية عن شخص يقطُن بنفس المربع السكني الذي كان يسكنه الضحيَّة، بأنه مُختف منذ اختفاء الطِّفل، لم يحتَج الأمر إلى كثيرٍ من التحريات، فالجاني كان يُدير أحد مَحال «ألعاب الفيديو« المُنتشرة بكثرة في تلك الأحياء، ولقد شُوهِد المجنيُّ عليه آخر مرةٍ يدلفُ إليها، ولم تتم رؤيتُه بعد ذلك.

اعتدل «عاصم» في جِلسته مُستنِداً إلى حافة مكتبه بمرفقيه بطريقةٍ أوحت لها بأنه على وشك الخوض في التفاصيل مِما جعلها تُعاود الجلوس من جديدٍ مُنصتةً وهو يتابع مُردِفاً:

- اعترف شاهين بأنه قام بتأجير سيارة صديقه سيد الذي ساعده على جذب ولدكِ بداخلها بالقوة .. وقاما باصطحابه إلى منطقة مهجورة .. وهناك حاولا الاعتداء عليه .. ولكن الطفل قاومهما بشدة .. فقاما بقتله.

صمَتَ «عاصم» عندما لاحظ تقلُّص وجهها وهي تضغط فكيها بقوةٍ، شعر بها تنازع غُصةً في حلقِها، وتُجبر نفسَها على الصُّمود أمامه، هل تستطيع الأم أن تفخر بولدِها .. الميت؟!.

لقد كان يشرح تفاصيل تعلمُها جيداً، فهي نفس التفاصيل التي جاءت في خطاب الطب الشرعي بعد فحص جثة ولدها، الطفل قُتِل بعدة ضرباتٍ عشوائية فوق رأسه، ثم تم الاعتداء عليه، وتركه الجاني جثة فاقدة للروح .

إنها تحلم به كل ليلةٍ عندما تُغمِض عينيها لدقائقَ قليلة، فهي لم تنم منذ أن شاهدت جثة ولدِها وتعرفت عليه، بعد أن كان مُختفِياً وترجو عودته حياً.

عادت تقف من جديد، ولكن هذه المرة وكتفاها مُتهدلتان، وملامح الدهشة والموت البطيء تكتسح ملامحها وجسدها بلا رحمةٍ، « شاهين» ابن الثامنة عشرة ربيعاً، لقد كانت تظنه مُراهِقاً سيعود إلى رُشده مع الوقت، ويبتعد عن طريق الفساد هو وصديقه المُلازِم له كظله، لقد كان يقبل كفها عندما يراها في الطريق، ويحمل عنها متاعها الثقيل، ما زالت تستمع إلى عبارته المُكررة «عنِّك يا حاجة» تقرع ذاكرتَها، لقد منحته مائة جُنيه كمُساعدةٍ منها عندما أخبرها أنه يريد تأجير أحد المحال القريبة «لألعاب الفيديو»؛ ليستطيع كسب قُوتِ يومه من الحلال بعيداً عن أولاد الحرام الذين يجرونه إلى طريق المُخدرات.

- من الحلال ؟! .

تعقيبه بتلك الكلمة البسيطة جعلَها تُدركُ بأنَّ حديث نفسِها كان بصوتٍ مسموعٍ، إنها تَهذي دون أن تدري.

لم يندهش، فهو يعلم أنها من سكان نفس الحي، ولكنها بالتأكيد لم تكن تعلم بأنَّ «شاهين» لم يكن يعمل في «ألعاب الفيديو» فقط، لقد كان مُدمِناً على مُشاهدة الأفلام الإباحية ليلاً أثناء تدخينه لسجائر المُخدرات، بعد أن ينتهي موعِد عمله يُغلق الباب مِن الداخل، ويبدأ في التحميل من المواقع الإباحية المجانية والمُشاهدة، وفي النهار يبيع تلك الأسطوانات للمُراهقين والكبار سواءً خِلسةً من الأطفال الجالسين في محله كل واحدٍ منهم خلف جهاز حاسوبٍ قديم الطراز، عيناه أسيرتا لُعبة الفيديو الذي يكافح؛ ليكسب جولاتِها المُتعددة التي تستنـزف أموال أُسَرِهم بالسَّاعة .

وكيف ستعلمُ هي كل ذلك؟ يبدو أنَّ المُخدرات أكثر شهرةً في مجتمعاتنا مِما يوازيها خطورةً وإدماناً !.

رنين هاتفه أخرجَه من أفكاره، لم يكن بحاجةٍ للنظر إلى اسم المُتصِل أو بالأحرى المُتصِلة، لقد حدد لها نغمة خاصة تناسب حالتها المُتفجرة على الدوام، طاقةٌ لا تنضبُ ولا تنتهي، وتُستحدث دائماً من العدَم.

مجنونته التي لم تكن كذلك حين تزوجها، كانت وديعةً وهادئةً عندما كانت تتدرب في تلك الجريدة الشهيرة في قسم أخبار النجوم، ولكن بمجرد أن ثبتَت أقدامها بها، وانتقلت إلى قسم الحوادث، تغيَرت تماماً، وباتت «أروى» المجنونة، كما يحبُّ أن يُطلق عليها.

ولكن جنونها هذا لا يناسب طبيعة عمله، يكفيه الحوادث والجرائم والدماء، يريد أن يذهب في نهاية اليوم إلى بيتٍ هادئٍ وزوجةٍ لطيفةٍ تُزيل عنه عناء العمل، لا شعلةٍ متقدةٍ تريد أن تناقشَه ويناقشها، وتجادله ويجادلها في كل تفصيلةٍ في عملهما ..

ما يخصُّه هو في الخطأ والصواب، وما يجب وما لا يجب؟!..

إنه يُطبق القانون وينفذ الأوامر لا أكثر ولا أقلَّ.



وقفَتِ السيدة «جليلة» أمام حُجرة النيابة تستمع إلى مُحاميها بصمتٍ يشبه صمت القبور، لا تستوعب ما يقوله بالضَّبط، «شاهين وسيد» لم يبلغا الثامنة عشرة بعدُ، لذلك فهما طفلان في نظر القانون، سيتمُّ وضعهما في مؤسسةٍ عقابيةٍ، ولن يُحاكَما بالإعدام حتى لو قاما بإزهاق رُوحٍ.

هل كانا طفلين عندما خططا لخطف ولدِها الوحيد؟!، هل كانا طفلين عندما تحولا إلى قاتلَيْن؛ ليتمكنا من الاعتداء عليه وهتكِ عِرضِه ؟!.

رفعت وجهَها إليه وهي تُغمض عينَيها وتفتحهما عدة مراتٍ، تُكذب أُذنيها، تتهم نفسها بالغباء، تكلمت بذهنٍ مُشتتٍ مُتسائلةً:

– الاثنان في سن البلوغ.. ولو تزوَّجا..لأنجبا.. فكيف يكونان طفلين باللّٰه عليك؟!.

– للأسف .. هما طِفلان في نظر القانون يا حاجة.

قالها المُحامي وهو يشعر بأنه في تلك اللحظة يحمل خُفي حُنينٍ بين يديه، لقد قَبِل هذه القضية بتوصيةٍ خاصةٍ من المُقدم «عاصم» الذي يتابع القضية بشكلٍ شخصي، وكلاهما يعلم النهاية.

لن يكون هناك قصاصٌ، ولا حكمٌ رادعٌ، رايةٌ مرفوعةٌ يتجمع السفاحون أسفلها.

«افعل ما تريد ما دمت أقل من ثمانية عشر عاما».

هي لن تبكي الآن، لم يحِن بعدُ وقت البكاء، ستنتظر الحكم النهائي، وبعدها ستبحث عن دموعِها؛ لتعلم هل جفت أم ما زالت نابضةً ؟، ما زالت تتشبث بالأمل، حُكم المَحكمة.

ظلت ثابتةً طِيلة فترة التقاضي، جلسةٌ تلو أخرى، حتى صدر حكم المَحكمة وطُعِن عليه، نظرات «شاهين وسيد» لها ببرود من خلف القضبان، هل يستخفان بها، عيناهما تحكيان لها كيف قتلا ولدَها؟.

ترى كفيهما تقطران دمَه الغالي، تتخيلهما وهما يتجردان من الإنسانية كما يُجردان فؤادَها من ملابسه، بعد أن فقد الروحَ وخبت مقاومته.

لن يُطفئَ غِلها سوى سماعها بحكم الإعدام، لا تريد سوى القصاص.

وفي اللحظة التي رأت فيها العُبوس على وجه القاضي وكأنه يُصارِع شيئاً ما بداخله، يُصارِع ضميره، ولكن لا حِيلة له، لا بد أن يطبق القانون، القانون الذي أهدرت «جليلة» دمَه عندما سمعَتِ منطوق الحكم .

عشر سنواتٍ .. واحدةٌ منها سيقضيانها في المؤسسة العقابية حتى يُتما الثامنة عشرة ثم يتمُّ ترحيلهما للسجن لتمضيةِ بقية المُدة هناكَ.

لوحٌ من الثَّلج انزلق عبر عمودها الفقري وهي تراهما ينظران إلى بعضِهما البعض ببرودٍ ووجوم، وأسرتاهما تتنفس بارتياح، ولو علِموا أن أنفاسهم تلكَ ستؤجج الثأر في قلبِها، لكَتَموا أنفاسهم جميعاً، ولكنهم كانوا يتوقعون ذلك الحكم بل وينتظرونه بسعادةٍ.

لملَمت طرف حجابها الأسود، وجرت قدميها حتى خرجت من ساحة المَحكمة لتجد «عاصم» بانتظارها في الخارج، تبادلا النظرات قبل أن تتركه في طريقها للرَّحيل.

ورغماً عنها تعثرَت قدمها اليسرى في طرف الدرج فكادت أن تسقط، أو لم تسقط بعدُ، أمسك هو بها من مِرفقيها قبل أن تفعل، إنها مُتماسِكةٌ أمامه بشكلٍ يثير إعجابه، حتى وهي تنهار تكاد تُعلمه كيف يقع بوقارٍ!، طرف وِشاحها الذي كان يُغطي عُنقها كُشِف على إثر ترنحِها، ولأول مرةٍ يرى «عاصم» ذلكَ الحُليَّ الضَّخم بالنسبة لسيدةٍ في عمرها، حُلي غريب عبارة عن سلسلةٍ حديديةٍ رفيعةٍ وطويلةٍ، تلفها حول جِيدها ثلاث مراتٍ لطولها.

تعجب «عاصم» ، كيف تتحمل وزنها حول رقبتها ؟!، اعتدلت «جليلة» في وقفتِها، فتنحنح «عاصم» وهو يترك مِرفقيها باحثاً عن كلمةٍ يواسيها بها:

- أرجو أن تتماسكي يا حاجة «جليلة» .. حاولي أن تنشغلي ببعض الأعمال الخيرية مثلاً.. بدلاً من الهم والبكاء.

نظرت له بقوةٍ تجابهه، وألقت في وجهه جُملتها الأخيرة قبل أن تنصرف تاركةً إياه في حالة فوضى:

- حُرقة القلب تقتل دموع العين يا ولدي .. وأنا امرأة صعيدية.. البكاء في حقي مذلة.. الشرف في عُرفِنا ليس له ثمن .. فما بالكَ بالقتل ؟!.

تركها «عاصم» واستدار يُولِيها ظهرَه؛ ليهبط الدرج الخارجي للمحكمة، وهو ينتابه شعورٌ مُفاجِئٌ بالقلق على ولده، مِمَّا جعله يُخرج هاتفه النقال ويقوم بمحادثة زوجته التي لم تعُد تتعجب من اهتمامه الغريب والمُتكرر على الصبي، إنه يتحدث إليها أكثر من خمس مراتٍ يومياً فقط ليسأل أين هو

الولد الآن ؟، ويفتعل معها مشاجرةً لو ذهب إلى أي مكانٍ خارج المنزل وحده دون أن تكون هي معَه .

في كل مرةٍ كان يقوم باختراع سببٍ ما لقلقِه المُتزايد، حتى نفدت أسبابه، واضطُر أن يُفصِح لها عن حقيقة مخاوفه:

- هل تعلمينَ عدد محاضر الاختفاء والخَطف التي يتم تحريرها يوميًّاً ؟.. ومعظمها لأطفالٍ في عُمر ابننا تقريباً !.. الأمر زاد عن حده.. وأصبح كالنار في الهشيم .. في الماضي كانوا يختطفون الأطفال لطلبِ فِدية.. أما الآن فالمفقود مقتول لا محالة.. تجارة أعضاء.. تسول.. اغتصاب.. أي شيء يخطر ببالكِ.

يومها جلست زوجته بجواره، وعيناها متسعتان بدهشةٍ وهي تستند إلى كتِفه:

- ولكن أنتَ ضابط شرطة.. مَن يجرؤُ أن يمس ابنك بسوء ؟!!.

سؤالُها هزه من الداخل بعنفٍ وجعله يواجه نفسَه بالحقيقة المُرة، الطوفان عندما يأتي يكتسح الأخضر واليابس.

والفوضى لا تُفرق بين ابن الضابط وغيره..

الفوضى تَعُم الجميع، مَن صفقوا لها، ومَن وقفوا بمواجهتِها.. الكل خسران، والكل مُستباحٌ.

وقبل أن يُنهي المكالمة الهاتفية بعد أن اطمأن لوجود الصغير بالمنزل، استوقفَه نداء أحدهم وهو قادمٌ نحوه بخُطواتٍ سريعةٍ مُتعجلةٍ.

أغلق «عاصم» الهاتف، واستدار ينظر نحو القادم بتفحُّصٍ اعتاده، ويدُه في طريقها نحو جيب قميصه الذي يحتفظ بداخله بعُلبة لِفافات التبغ خاصته، والقلق الذي صاحبَه أثناء تحدثه مع زوجته لا يزال تاركاً آثاره على وجهه العابس .

رجلٌ مدنيُّ الهيئة يبدو في أواخر العشرينيَّات من عمره، يُسرِع نحوه حاملاً بحِرصٍ مَلفاً مُتوسط الحجم كثافةً، أوراقه لا بأس بها، «عاصم» كالعادة يُمارِس لُعبة التخمين على كل مَن يتعامل معه دون سابق معرفةٍ، وعندَما توقف الرجل أمامه ومد يده؛ ليُعرف بنفسه، تمتم «عاصم» بداخلِه: صحفيٌّ يريد خبراً ساخناً عن القضية، ولكن الرجل قال سريعاً:

- أنا «محمود عبد العزيز».

رفع «عاصم» حاجبيه مُتعجباً، بينما أفلتت منه ضحكةٌ غير مقصودةٍ ثم يمد كفه؛ ليُصافحه ساخراً:

- توقعتُ أن تكون صحفيَّاً.. ولكن لم يخطر على بالي أنك مُمثل.

رسم «محمود» ابتسامةً سريعةً على وجهِه، هذه ليست أول مرةٍ يضحك الناس فيها عندما يقدم نفسه لهم، لقد اعتاد على هذه السماجة كثيراً خلال رحلة عمله.

- يا فندم أنا «محمود عبدالعزيز صبري» .. باحث أكاديمي.

- وحضرتك باحث عن إيه يا أستاذ «محمود عبد العزيز» .. الكيف؟!

قالها «عاصم» وزادت وتيرة ارتفاع ضحكاتِه حتى جذب الأنظار إليهما، وتوقف البعض ينظر باستياءٍ، هو نفسُه بدأ يشعر بالحَرَج من تصرفه ومدى

تناقضه مع الحالة النفسية المُتأزمة التي خرج بها منذ قليلٍ من قاعة المحكمة وحديثه مع السيدة «جليلة».

أما على الجانب الآخر فقد مسح «محمود» عَرقاً وهمياً بحَرج شديد في انتظار هدوء «عاصم» الذي يبدو كمختل عقلياً يضحك كالمجانين ثم يهدأ في لحظاتٍ واختلطَتِ المشاعر المُتناقِضة فوق ملامحِه.

- أنا آسف يا «محمود» .. اعذرني؛ فأنا في حالة مِزاجية صعبة.. تفضل.. ماذا تريد؟.

- أنا مُدرس علم نفس في إحدى المدارس الثانوية.. وفي الوقت نفسه باحث أكاديمي في إدمان المواد الإباحية.. وأرغب بمساعدة بسيطة من سيادتك في بعض التفاصيل الصغيرة المهمة.

عقد «عاصم» ذراعيه فوق صدره، وقد نسي أن يُشعِل لِفافته، وتنحنحَ وهو يدعي الجِدية:

- لن أُفيدكَ للأسف .. فلقد توقفت عن مشاهدتها منذ سنوات!.

لمح «محمود» السخرية مُجدداً في حديثه، لكنه تغاضى عن هذا أيضاً.. وما الجديد؟!، يجب أن يقول ما لديه دفعةً واحدةً؛ فالرجل لا يبدو طبيعيا أبداً:

- لقد قرأت كغيري عن اعترافات الجُناة في قضية قتل الطفل الصغير واغتصابه.. والتي كان الحكم فيها منذ قليل.. وما قالوه سيفيد في دراستي وأبحاثي.. لذلك أريد مساعدتكَ في معرفة اعترافاتهما الكاملة.

- بطاقتك.

نطق بها «عاصم» على الفور وهو يمدُّ يدَه له بطريقة آمرةٍ ذكَّرَت «محمود» بضابط الكمين على الطَّريق الذي تعامل معه بنفس الطَّريقة ونفس الإشارة إلا أنه زاد عليها كلمة « رُخصكَ «، نسخةٌ مُكررةٌ لطريقة فوقيةٍ في الحديث وكأنها مادةٌ قاموا بدراستها في الكلية، ونجحوا فيها جميعاً بدرجة امتيازٍ.

قلب «عاصم» بطاقة الهُوية بين سبابته وإبهامه وهو يُحرك رأسه، ومد يده بها يعيدها إليه بنبرةٍ متشككةٍ:

- وما علاقة مهنتك الأساسية بالمواد الإباحية؟!.

- إن كان مُمكناً.. فهل تسمح لي بنصف ساعة من وقتك؟.

أومأ «عاصم» برأسه وهو يتحرك هبوطاً للدرجتين، ثم يساراً نحو سيارته المرصوفة هناكَ مُشيراً إليه بأن يتبعه قائلاً بصَلَفٍ:

- أتعلم؟.. ربما لو كنت جئتني في ظروف أخرى.. لكنتُ تصرفت معك بشكل مختلف .. أما اليوم فأنا في حاجة للتحدث مع أحدهم .. أيِّ أحدٍ .. بخلاف زوجتى.



اصطحبه «عاصم» في سيارته وذهب به إلى نادي ضباط الشرطة المُطل على كورنيش النيل، وهناكَ رمى بجسده حرفياً فوق المَقعد المُواجِه للطاولة المُستديرة الكائنة أسفل مِظلة كبيرة جدًّاً تتوسط مجموعةً من الطاولات ذات المفارش الحمراء، جميعها خاليةٌ في مثل هذا الوقت من اليوم، وأشار إليه بالجلوس، جذبَ «محمود» المَقعد بهدوءٍ وحذَرٍ، وهو يشاهد رفيق طاولته يضغط جانبي رأسه بأصابع كفيه بإرهاقٍ واضحٍ في صمتٍ قطعَه فجأةً وهو يسأله:

– شاي أم قهوة؟.

انتبه «محمود» للسُّؤال، فقال على الفور بتوتُّرٍ وقد وقع اختياره على مشروبه المُفضَّل:

– شاي.

أشار «عاصم» إلى النادل الذي جاء مُسرِعاً فطلب منه أن يحضر فنجانين من القهوة بسكر زيادة، وبعد قليلٍ كان «محمود» يبتلع القهوة ابتلاعاً؛ ليُنهيَها دون أن يتذوقها كما يفعل مع الدواء تماماً مُراقِباً الجالس أمامه يرتشف من قهوته باستمتاعٍ واضحٍ حتى قضى عليها تماماً، بينما لفافة التبغ المُشتعِلة بين أصابعه يتعامل معها برفقٍ وكأنما يُقبلُها بين الفينة والأُخرى.

– أنا أستمعُ إليك.

اعتدل «محمود» في جِلْستِه، وقد قام بتنظيم أفكاره أثناء الجلسة العائلية التي جمعت «عاصم» مع لِفافته وقهوتِه، وقال بهدوءٍ شارحاً من البداية:

- البداية كانت منذ عام تقريباً.. عندما جاءني ابن أختي ذو السنوات السبع يسألُني: لماذا يفعل سوبر مان أشياء «قليلة الأدب»؟ أليس بطَلاً.. والبطَل لا يقوم بأشياء مشينة؟!.. تعجبتُ وسألتُه: ماذا يعني بأشياء «قليلة الأدب» على حسب قوله؟.. فحكى لي مقاطع فيديو رآها على أحد مواقع الفيديوهات على شبكة الإنترنت.. ما قاله أفزعَني حرفيَّاً.. وعندما بدأتُ أتتبع المَوقِع الذي كان يحفظ اسمه عن ظَهر قلب وجدتُ ماهو أكثر بكثير مما حكاه لي.. ومن هنا كانت بداية تعرفي إلى هذا العالم القَذِر والمواد التي يجذبون بها الأطفال إليهم.

ماذا؟!، وهل كان ينقصه أفلام الكرتون أيضاً، ألا يكفي خوفه على ولده من الاختطاف والسرِقة حتى يخرج إليه نوعٌ آخر من الخوف؟، هل سيحاصرُه في المنزل أيضاً؟!.

مالَ إلى الأمام قليلاً وكأنه بصدَد التحقيق معه وقال وهو يُضيق ما بين حاجبيه:

- ألا تشعر أنك تبالغ قليلاً؟!

- ليتَني كنتُ كذلك يا عاصم بيه.

عاد «عاصم» للخلف؛ ليستند مُجدداً إلى ظهر مقعدِه، ويشير له بأن يتابع فقال «محمود» على الفور مستطرداً:

- بالطبع أبلغت أختي بما حدث.. وقُمنا بما يجبُ علينا فعله تُجاه مُراقبة الحاسوب الذي يجلس الطفل أمامه ومنع تلك المواقع .

وتصورتُ أن دوري انتهى عند هذا الحد.. حتى جاء اليوم الذي لاحظت فيه بعض الطلاب في زاوية من فناء المدرسة يجتمعون ويدخلون دورة المياه سويًّاً.. ساورَني الشك فيما يفعلون فتتبعتُهم خفية إلى هناك.. وشاهدتُهم يلتفون حول أحدهم المُمسِك بهاتفه النقال ويعرض عليه مَقطعاً إباحيًّاً.. وهم مُغيبون تماماً عن وجودي.. بل عن العالَم من حولهم.. حينها علمتُ أنني لا يجب أن أدرِّسهم منهج علم النفس فقط.. بل يجب أن أعالجَهم أيضاً.. وشعرتُ بأنني مسؤول بشكلٍ أو بآخر عن إيقاف هذه المَهزلة.. وبنفس فكرة مجموعات التقوية للمواد الدراسية.. قمتُ بعمل مجموعاتٍ علاجيةٍ.. وكل منهم بدأ يحكي لي عن حياته قبلَ إدمانه وبعدها في مشاهدة تلكَ المقاطع، تخيل .. أن الأمر تطرق لديهم إلى التلصص والنظر للمحارم.. الأم أو الأخت يا عاصم بيه..!

تنفَّس «عاصم» بضيقٍ مراراً ثم أمسكَ بجبينِه للحظاتٍ يؤنبُ نفسه، إنه خطؤُه هو، لماذا سأله عن علاقة مهنتِه الأساسية كمدرس علم نفسٍ وقصة الباحث هذه؟، ما علاقته هو بكل هذا؟، أراد بشدةٍ أن ينهض ويعنفه ثم يتركه وينصرف، ولكنه آثر أن يُنهي المُقابلة بشكلٍ متحضرٍ حتى لا يُقال: إن الشرطة علاقتها سيئةٌ مع الشعب!. فقال بنفاد صبرٍ وهو يستعد للنهوض.

- نعَم.. نعَم.. أنتَ عظيم يا أستاذ «محمود» .. وأعتقد أنَّ هناك قضية تم رفعها لمنع المواقع الإباحية.. وتم الحكم فيها بالحَجب، وانتهَت الحكاية.

- هذا الحكم على ورق سوليفان يا عاصم بيه.. لم يتم التنفيذ حتى الآن.. الحكومة تقول: إنَّ سرعة الإنترنت لا تسمح!!

لم يستطع «عاصم» أن يستكمل هذا الحوار أكثر من هذا، هذه أمورٌ قضائيةٌ وتخصُّ شبكات الاتصالات، الأمر لا يخصُّه، ولا يُوجَد ضررٌ عليه، ابنه لا زال صغيراً، وسيذهب فوراً؛ ليقوم بتحميل أحد البرامج الحاجبة؛ ليحمَيَه وينتهي هذا الصُّداع، نهض بالفعل وهو يُظهر تعاطُفَه الكامل مع مجهود «محمود» في عرض قضيته وقال بجديةٍ:

- أنا لستُ الجهة المَعنية بالأمر يا أستاذ محمود.. ولكن بالطبع مجهودك رائع جدًّاً.. وتستحق الإشادة والشكر.. وعرفاناً منِّي بمجهودك هذا سأجهز لك تقريراً بكل ما تريد معرفته عن أقوال الجُناة في القضية كما طلبت.. وغيرها من القضايا المشابهة أيضاً.. وستجده في انتظارك بعد غد على الأكثر في مكتبي.. اتفقنا؟.

قال كلمته الأخيرة ومد يده ليصافحَه وانصرف على الفور دون أن يسمح له بكلمةٍ أخرى، لقد اكتفى اليوم، المصائب تجتمع فوق رأسه وهو ليس محرِّر العالم من الفساد، لا يصلح لدور البطل الخارق.



أنهى «محمود» عمله منذ وقتٍ طويلٍ، ثم قضى بقية ساعات يومه في مشاوير وهميةٍ هنا وهناكَ حتى يعود إلى منزله مُتعَباً، فيرتمي فوق سريره مُباشرةً، كان الوقت مُتأخراً جداً، وقد هدأتِ الحركة في الطرقات من حوله، وباتت خُطواته مسموعةً له كما هي ذكرياته التي تشتعل في تلك اللَّحظة كل يومٍ تقريباً.

وبرغم الشهور المُنصرِمة التي قضاها وحيداً، وبالرغم من أنَّه يعلم تماماً أنَّه هو مَن حكم على نفسه بتلك الوَحدة؛ إلا أنه لا زال يعيش داخل ذكرياتِه، يكره الفراق ولكنه يستخدم تلك الذكريات كمُحفزٍ له على الاستمرار، مثل الوقود الذي يدفعه للأمام ويقول له: استمرَّ، استمرَّ في طريقكَ؛ لتُعيدِها إليكَ مرة أخرى.

استجابت ملامح وجهِه لذكراها العَطِرة فاشتعل بالحنين بمجرد أن دلفَ إلى شقتِه، هدوءٌ قاتلٌ مُصاحِبٌ لظلام شقته، تلك الإضاءة الضعيفة الصادرة من المَمر الطويل الذي يفرق بين غُرفة الاستقبال وغرفة النَّوم الداخلية، سيقوم بتبديل ملابسِه إلى منامته الزرقاء السخيفة، ثم سيتجه إلى غرفة ابنته الصغيرة، لعله يجدها تنام بأحضان والدتها كما كان في الماضي، تحتضنُها بقوةٍ وكأنها تحتمي بها، إلا أنَّ فراغ الغرفة منهما جعله يُطرق برأسه وينصرف عائداً إلى غرفته.

ﻓﻲ ماضيه القريب كان يترك زوجتَه تحتضن ابنته، بينما ينسحب هو ﻓﻲ خِفةٍ على أطراف أصابعه حتى لا يُوقظَهما، ليتسنى له احتضان حاسوبه المحمول دون مراقَبةٍ من أحدٍ.

وهنا تبدأ المُتعة الحقيقيَّة .. متعةٌ مبتورةٌ يتيمةٌ لدقائقَ تمتصُّ فيها صحته وتوازنه واحترامه لنفسه ثم تُلقي به وترميه سريعاً إلى واقعه المرير، وحيداً منبوذاً بفراشٍ سَئِم برودته.

دلف إلى شقَّته عابساً بحركاته الاعتيادية وهو يقذف بالمفاتيح على الطاولة المُرتفعة البُنية اللون والمجاورة للباب، وبعد خُطواتٍ قليلةٍ كان يرتمي على الأريكة المُواجِهة للتلفاز، لا شهيةَ لديه للطعام، فقط يريد أن ينام؛ ليستكملَ عمله صباح الغد، الذهاب إلى المدرسة ثم زيارة ابنته التي تعيش مع والدتِها منذ عامٍ تقريباً، بعيداً عنه، خوفاً منه، كُرهاً له، لا فرق بينهما لديه، المهمُّ الآن هو طريق الشفاء الذي رسمه لنفسه منذ أشهرٍ قليلةٍ، ولا بد أن يُكمِل طريقه إن أراد أن يستعيدَهما مرةً أخرى ويستعيد معَهما احترامه لنفسه.

مد يدَه بإرهاقٍ إلى جهاز التحكم عن بُعدٍ؛ ليستهلكَ بعض الدقائق قبل ذهابه إلى النوم ليشتتَ أفكاره البائسة، وبعد عِدة ضغطاتٍ عشوائيةٍ صادف إعادةً لحلقة برنامج تم استضافته فيه منذ أيام كباحثٍ أكاديمي يكرس وقته لمحاربة الإباحية المُنتشِرة وآثارها على المُجتمع وعلاقتها بالجرائم.

هكذا كان الموضوع الذي تناولَته الحلقة، وكانت تدور حوله النقاشات، تناول هاتفه على الفور بحماسٍ مُفاجئ مُرسِلاً رسالةً قصيرةً إلى «فنار» زوجته، كان مُنتشياً وهو يكتب كلماته القليلة إليها، كما كان بالضبط حين

أخبرها ﴿في المرة الأولى عن اللقاء؛ لتشاهده، ولكنها أخبرته بعد ذلك أنها كانت مشغولةً بالواجبات المنزلية لابنتهما ونسيت مَوعِد الحلقة، لا يُنكِر أنه أُصيب بالإحباط والفتور لبعض الوقت .

كان كالطِّفل الذي أحرز هدفاً في شبكة الخَصم وصفَّق له الجميع، وعندما التفتَ تُجاه المُدرجات وجد والدته نائمةً أو مشغولةً عنه.

أما «فنار» فلم تكن في حاجة إلى رسالته، فلقد كانت جالسةً بالفعل أمام التلفاز تتابع الحلقة .. كما فعلَت في المرة الأولى !، لا تعلم لماذا أنكرت مشاهدتَها له سابقاً؟.

ربما لا زالت تعاقبه، لا زالت تريد لآلامِه أن تتضاعفَ كما فعل بها وبابنته، عامٌ كاملٌ تعاقبه بشتى الطرق، بدأتها بهجره إلى منزل والدها، ذلك المنزل الذي يبعد عنه بشارعين فقط.

فقد كانت «فنار» وحيدةَ والدها الذي أصرَّ عندما تقدَّم «محمود» لخطِبتها على أن يؤجر شقة الزوجية في مكان مُجاور له لتكون بجانبه دوماً، لم يُنجب غيرها وهي التي تبقت له بعد وفاة والدتها بعد إنجابها بعدة سنوات لم تتجاوز العشر، وقتها وافق «محمود» على مضَضٍ ولكنه الآن شاكرٌ جداً لوالدها على هذا الصنيع، فهذا القرب هو ما ينفعه الآن للغاية، يستطيع أن يرى ابنتَه كل يومٍ تقريباً، هي هجرته، نعم، ولكنها لا تزال قريبةً منه.

وبتركيزٍ شديدٍ وكمَن تتابع الحلقة وتستمع إلى الحوار للمرة الأولى.

استندت إلى الوسادة أسفل مِرفقِها، وقربَت كُوب الشاي الساخن من فمِها، بينما جهاز التحكُّم عن بُعدٍ لا زال في يدِها الأخرى، وقد جمعت قدميها أسفل منها كما جمعت شعرَها للأعلى رَيثما هو يُجيب سؤالَ مُقدم البرنامج في التلفاز قائلاً:

- هناكَ أكثر من موقع تم افتتاحه عن طريق مُمثلاتٍ تركن مِهنة الإباحية بسبب إصاباتٍ وأمراضٍ لا يُرجَى الشفاء منها.. ويحُذرن الناس من خطر الوقوع فيها.. وجميعهنَّ اتفقنَ في حكاياتهنَّ أنهن جميعاً لا يقمن بتصوير تلك الأفلام إلا بعد جَرعاتٍ من الأدوية المُخدرة لا بأس بها، تُذهِب بعقولهن بعيداً عن الإحساس بالواقع حتى يستطعنَ تأدية عملِهنَّ هذا بشكلٍ مُقنع يمنح تأكيداً للمُشاهد على استمتاعِهنَّ الشخصي بما يقمنَ به.. هذا أولاً.. وثانياً؛ ليستطعنَ السيطرة على مشاعر القَرف والاشمئزاز والألَم الذي يعانينه أثناء تصوير تلك الأوضاع الشاذة، والأفعال التي تعارض الفِطرة السوية.. وبالرغم من كل هذه الأدوية إلا أنهن يتوقفنَ كثيراً صارخاتٍ بمُخرِج العمل أن يوقف التسجيل مرةً تلو الأخرى بسبب حالاتِ القَيء والنزيف التى تعتريهن أثناء التصوير.. حتى إن المَشهد الذي يظهر لخمسِ دقائقَ فقط يتم تصويره في ساعاتٍ طويلةٍ وربما فى أيامٍ.

وضعت «فنار» راحة كفها على مَعِدتِها وهي تشعر برغبةٍ في التقيؤ مِمَّا تسمع، لم تستطِعْ فِطرتها السوية أن تتحمل بالرغم من أنها تستمع لتلكَ المعلومات للمرة الثانية، تركت كوب الشاي من يدها واضعةً إياه على الطَّاولة المجاورة بجانب الفراش، فهي لا تزال على عادتِها بوضع التلفاز في غرفة نومِها، وظلت تستمع لِما يقولُ مُقدماً ما لديه من معلوماتٍ، بعضها اكتسبَه عن طريق البحث، وأكثره من خبراته الشخصية.

- ربما يتعجب المُشاهدون الآن من قولي: للأسف مِصْر هي الدولة الثانية على العالَم بحثاً عن المقاطع الإباحية في شبكة الإنترنت وربما هذا يُفسر لنا سبب انتشار جرائم الخَطف والاغتصاب التي تنتهي غالباً بقتل الضحية والتي انتشرَتْ في الآونة الأخيرة ..

بل ربما يفسر لماذا وصل الأمر إلى حد الإدمان؟.. ولا بد من محاربتِه كما تتمّ محاربة المُخدرات تماماً .. ولكن للأسف.. حتى الحكم الذي صدر يُلزِم الدولة بمنع هذه المواقع لم يتم تنفيذُه.. ولا نعلم أسباباً مُقنِعة لهذا ولا مَن له المَصلحة في عدم تنفيذ هذا الحكم؟..

ماذا ننتظر؟.. لقد وصلَتِ الكارثة إلى جرائم انتهاك المحارم.. أب يتحرش بابنته.. أخ يعتدي على أخته.. خال مُغتصب لابن أخته.. وصلْنا إلى القاعِ للأسف الشديد.. ولا أحد يتحرك.

غامت عينا «فنار» في تلك اللحظة وهي تتذكر اللحظة التي عادَتْ فيها من عملِها، ووجدته نائماً مُنكفِئاً على وجهه فوق سريرهما، وابنتهما تلعب بجواره بعرائسها على الأرض، بينما حاسوبه المَحمول مفتوحٌ، ولكن شاشته مُظلِمةٌ، وقتَها حاولت كثيراً أن تمنع نفسها من البحث خلفه، ولكن تغيُّر أحواله منذ فترةٍ لم يكن هيناً أو بسيطاً، في البداية ظنت أنَّه يخونها ويتواصل مع امرأةٍ أخرى عن طريق الإنترنت، فلقد أصبح يحبُّ النوم وحده في الغرفة ليلاً، كم مرةٍ قالت له بأن يوقظَها عندما يجدها نائمةً في غرفة ابنتهما؛ لتنتقل للنوم إلى جواره!، فهي تأخذها سِنةٌ من النوم وهي تقصُّ عليها حكاية ما قبل النوم، ولكنه لا يفعل، بل ويُغلِق باب الغرفة من الداخل .. مراتٍ ومراتٍ.

صار يعتذر كثيراً عن الذِّهاب إلى عملِه صباحاً، ويتحجج بأن جميع حصصِه في المدرسة باتت مُتأخرةً بعد أن كانت صباحيةً، فكانت تتركه وحيداً في المَنزل وتأخذ ابنتها إلى الروضة قبل أن تذهب إلى مدرستِها، فهي أيضاً مُعلمة ولكن للغة العربية والتربية الدينية في مدرسةٍ أخرى غير التي يعمل هو بها .

اليوم تركت له الطفلة في رعايته كما وعدَها؛ لأن حرارتَها مُرتفعةٌ قليلاً وذهبت لعملها، ظلت هناكَ لساعتين فقط، وعندما قامت بالاتصال به مراتٍ كثيرةً؛ لتطمئنَّ على الطفلة ولم يُجبها، اُضطرت إلى طلب إذن انصرافٍ والعودة إلى البيت ..

وكانت الصدمة ..

فضحَه سِجل التصفح!، لم تُصدق عينيها في البداية، ظلت لفترةٍ مصدومةً لا تَعي ما تراه عيناها، حتى إنها لم تخبره عما وجدته، ولكنها بدأت تراقبُه وفي كل مرةٍ تكتشف أنه لم يدخل إلى هذه المواقع من قَبِيل الصدفة، لم تكن فترة مراهقةٍ متأخرةٍ يمر بها والسلام، إنه يزورها بانتظامٍ يومياً، يترك عمله لأجلِها، بل وبدأت تلاحظ أنه ترك الصلاة أيضاً.

معقولٌ .. هل هذا «محمود»؟ !، الشابُّ المُهذب الذي تعرفه منذ مراهقتِها والذي أصبح زوجها منذ خمس سنواتٍ فقط.

لا .. لا .. بالتَأكيد سينتهي من هذا العبثِ قريباً، سيعود إلى رُشدِه بالتأكيد، وصمتت، ولكن الوقت مرَّ، والنزوة لم تنتهِ، والأمر تفاقم، فلم تجد بُدَّاً من المواجهة، خَجِل في البداية واعتذر ووعدها بالتوقف، ولكن لم يحدث، لم يتوقف، زادَتِ المشاجرات بينهما وتبادلا الاتهامات:

- أنت مُقزز.

- وأنتِ غير كافية لي.

وأخيراً أظلهما سقفان وافترقا بعد أن كانا تحتَ سقفٍ واحدٍ، وبدأ يجد لنفسه أعذاراً واهيةً، لماذا هي مُتصلبة الرأي مُتحجرة التفكير هكذا ؟، لماذا لا تتركه حتى يزهدَها وحده؟، هو رجلٌ، وهو مُسيطِرٌ.

أما هي.. فقد اختارَتِ الابتعاد والهَجر؛ ليُفيق مِما هو فيه، وقالت له بأعلى صوتٍ لديها:

- سأترك لك الغرفة وأنام بجانب ابنتك.. أتمنى أن تنفعك هذه القذارة وتغنيك عني للأبد.

ومن يومِها وهي تتجنبه ولا تتحدث معه سوى فيما يخصُّ شؤونهم المادية فقط، وهو قد استاء في البدايةِ، بل وجُنَّ وثارت عواصفه، ولكن مع الوقت بدأ يعتاد فراقها .. وحاسوبه، ووحدته.

وكلما أراد مُصالحتَها وإعادتها إلى غرفتهما كَذِب عليها وأعلن توبتَه، وبعد عدة أيام تعود «فنار» وتكتشف أنه لم يفعلْ، لم يترك إدمانه بعدُ، فتهجرُه وتبتعد، وهكذاً استمرت الحال على ما هى عليه.

وعلى المُتضرر التنازل أو الكَذِب أحياناً، على حسب حاجته!.

حتى حدثَتِ الكارثة، استيقظت فجر ليلةٍ ما على الحرارة الشديدة المُنبعثة من جسَد طفلتها الساكنة بين ذراعيها، الطفلة ترتعش وتنتفض وهي تُسرع بها تُجاه حوض الاستحمام وتفتح المياه فوق جسدِها، ولكن الدقائق تمر، والحرارة لا تستجيب لا للمياه ولا للأدوية، فهرولَت نحوه؛ لتستنجدَ به، لا بد أن يذهبا بها حالاً لأي مَشفى قريبٍ، طرقت باب غرفته حتى كادت تكسره ولكنه لم يفتح .. كان غارقاً في النوم بعد ليلةٍ طويلةٍ قضاها مع حاسوبه، وقد أغلق الباب على نفسه من الداخل كما اعتاد.

وقفت على بابه ضائعةً تائهةً، الطِّفلة تشتعل بين أحضانها، ودموعِها تُغرِق وجهَها خوفاً عليها، بينما رماها هو على طول ذراعه في صحراء وحدَها هي وابنته التي لا يستحقها، نعَم، لا يستحقها ولا يستحقُّ أن يكون زوجاً ولا أباً بعد اليوم.

ارتدت من ملابسها ما وجدته أمامها، ولفت ابنتها جيِّداً بين ذراعَيها وجرَت بها إلى والدها الذي فتح لها الباب بعد ثلاث طَرَقات فقط.. ومن يومِها لم تعد، حتى بعد وفاة والدها ظلت في بيتِه ورفضَتِ العودةَ معه راميةً في وجهه عبارةً لم ينسَها أبداً:

- لم تعُد مصدر أمان ولا حماية لنا.. الحياة هنا أو في بيتك واحدة .. كلاهما أعيشها وحدي.

ومنذ ذاك اليوم وحياتُها تمضي مع ابنتها كما هي بروتينيةٍ صماء، أدخلَت ابنتها في المَرحلة التمهيدية في نفس المدرسة التي تعمل بها، تذهب وتعود معها يومياً، تتناولان طعام الغذاء، ثُم تجلسان في الشرفة عند الخامسة مساءً كما اعتادت مع والدها تحتسي الشاي الساخن بأوراق النعناع، والدها الذي كُسِرَ آخر ضلع في جسد تماسكِها بمفارقتِه الحياةَ بهدوءٍ كما عاش حياته كلها، مالَتِ الجُدران فوق رأسها لشهرٍ كاملٍ عندما فقدت سندها الرئيسي، ولكنها اُضطرت للسير في طريقها والنهوضٍ مُجدداً من كبوتِها لأجل ابنتها، تعمل وتهتمُّ بها وتحبُّها، ولا يهمُّها العالَم من بعد ذلك.

حتى حدث منذُ أيام قليلةٍ ما لَم تكن تتوقعه، عندما طرق «محمود» بابها ذات مساءٍ ومرَّ بجوارهًا إلى الداخل وهو يحمل حاسوبه المحمول بين يديه، جلس علىً أحد مقاعد الصالة الصغيرة ووضع الحاسوب على الطاولة من أمامه قائلاً بصراحةٍ ودون مواربةٍ :

- لقد قمتُ منذ أسابيع بإنشاء صفحة على الفيسبوك لتوعية الشباب من خطر الأفلام الإباحية.. وفي الوقت نفسه أقوم بجمع مقالات ترشد الذين وصلوا منهم إلى حالة من الإدمان إلى طريقة العلاج.. وفي طريقي لعمل موقع خاص على الإنترنت يضم كل هذا .. ولكنني ضعيف يا «فنار» وأحتاج إلى مساعدتك.

قطبت حاجبيها وهي تناظره بريبةٍ وتدور بجانبه لتمرَّ إلى المَقعد المُواجِه له والذي تفصل الطاولة بينهما، وهي تحركُ رأسَها بعدم فَهمٍ وتطلب الشرح أكثر:

- لا أفهم .. ماذا تريد منِّي؟.

رفع عينيه نحوها وقد بدا جدياً جِداً فيما يقول:

- لقد حاولتُ مرةً بعد مرة أن أتوقف ولكن لم أفْلِح أبداً.. أتوقف لأَيَّام ثم أعود من جديد.. فلم أجد طريقة أخرى غير أن أقوم بإلغاء اشتراكي بالإنترنت في منزلنا حتى أقطع على نفسي الطريق من الأساس وسأظل هكذا حتى أتوقف تماماً وأشعر بالشفاء.

لا زالت صامتةً تحتمي بقشرتِها الباردة الخارجية حتى لا تنفجرَ فيه، إن كان يظن أنها ستصدقه فهو واهمٌ، فليضع صفحته تلك في مياهٍ ويشربها كاملةً حتى آخر نقطةٍ، فلم يعُد يخصُّها أيُّ شيءٍ له علاقةٌ به منذ وقتٍ طويلٍ.

- «فنار» .. لقد وجد الشباب بي ملاذاً لهُم.. وأنا لا أريد أن أتركَهم .. أريد أن أتعافَى معَهم وبينهم وقَبلهم أيضاً.. وتلكَ المُعضِلة لن يساعدني في حلها غيركَ.

- مِن فضلك قل ما عندك سريعاً.. فأنا أريد أن أنام.

قالتها بسَأمٍ وهي تتململُ في مَقعَدِها وتنظر إلى ساعة الحائط، فقال على الفور:

- أريد أن يبقى حاسوبي عندك .. وعندما ينتهي عملي في المدرسة سآتي إلى هنا لساعتين فقَط يوميَّاً.. أباشر عملي على شبكات التواصل وأعمل على أبحاثي أمام عينيكِ.. وعندما أنتهي سأذهب على الفور.

وقبل أن تهتف مُعترِضةً قاطعَها على الفور وهو يرفع كفَّه مفتوحةً يستوقفها:

- لن تشعري بي أبداً.. وستكون فرصة لأتقرب من ابنتنا وأراها يوميًّا فتشعر هي بأن الحياة بيننا عادَت كما كانت.. وبالتأكيد سيؤثر هذا على حالتها النفسية .. لن أسبب لكِ أيَّ إزعاج.. اختاري الوقت الذي يناسبكِ.

راقبَها وهي تفرك كفيها في حِجرها، وبين حاجبيها يضيق أكثر فأكثر، هي تعاني من الحَيْرة والتفكير وتصارع بين موجات الرفض والمُوافقة وعدم الفهم للأمر بشكلٍ كاملٍ، شعر بكل ما يخالجُها فعالجَها بالقول الحاسم:

- إن وافقت فسيكون لكِ دور عظيم في شفاء الكثير من الشباب والفتيات .. وأولهم أنا. لا تتركيني لنفسي .. فأنتِ تعلمين كَم هي سيئة وأمارة بالسوء! .. فأنا في النهاية والد ابنتكِ.. وتريدين أن تفخر بي عندما تكبُر.. أليسَ كذلك؟.

لم تستطع «فنار» الرفض، وافقت مُتجهمة الوجه، وعلى شرط ألا يتحدث معها على الإطلاق، يأتي فقط ليمارسَ عمله لساعتين ويجالس ابنته قليلاً ثم ينصرف في هدوءٍ، وهو وافق على شروطها جميعاً ووفَّى بوعدِه، ومع الوقت أثبتَ لها أنها قد أصابت بموافقتِها، فلقد عاد الأمر بالنفع على ابنتها التي تحسنت أمورها كثيراً، وأصبحت متعلقةً بوالدها وزاد تركيزها في تأدية واجباتها المنزلية أكثر.

ومن ناحيةٍ أخرى أرضت فضولها وباتت تراقبه من بعيدٍ، تعرف كل موقعٍ يدخل إليه بل وتشارك أيضاً برأيها في أبحاثه وطرق العِلاج، إلا أنها لا زالت تشعر أنه لا بد أن يُعاقَب، لا زالت أنوثتها مغدوراً بها، ما تزال تشعر بنفس الضياع الذي شعرت به وهي تقف باكيةً على باب غرفته، لقد سحق أنوثتَها وثقتَها بنفسها سابقاً، فلم يُبقِ لديها ما تحبُّه به!.



تناقضت حركته الخافتة وهو يَدلِف إلى الشقة مع صوت التلفاز المُرتفِع جعله يقطب جبينَه بتركيزٍ ويضطَّرب قليلاً، فنحن غالباً ما نميل إلى تحقيق توقعاتِنا تُجاه الآخرين مهما كانت مُمِلة لو اعتدنا عليها وتعايشنا معها.

وجدها تقف أمام التلفاز بتحفُّزٍ عاقدةً ذراعيها أمامه عاقدةً حاجبيها بشكلٍ مُبالَغ فيه وهي تتابع أحد البرامج الحوارية المُعادة، ألقت عليه نظرةً ناريةً، وعادت للمتابَعة مُجدداً.

تأملَها «عاصم» وهو يقترب منها بابتسامةٍ ترتسم بتلقائيةٍ فور أن يراها هكذا مجنونةً، ثائرةً، عنيدةً، أخطر أعاصير العالم تلتفُّ حولَها بينما تقف هي ثابتةٌ كالسَّاحرات، حبيبته الصَّهباء غاضبةٌ، فالوَيل له.

- عاصم.. تعالَ واسمع.. ألمْ أقل لكَ: إنَّهم يسخرون من تحقيقي الصحفي ويتهمونني بالمُبالغة ومحاولة إشعال الفتن!.

كانت تشير بكلتا يديها كعادتها وهي تهتف بنَزَقٍ، بينما طفلهما «عمرو» الذي لم يتجاوز التاسعة يتقافز من خلفها فوق الأريكة، وهو يلهو بلُعبة المُسدس خاصته هاتفاً بحماسٍ:

- سأُلقي القبض عليهم جميعاً يا أمي.. لا تغضبي.

زفر «عاصم» رافعاً رأسه للأعلى عابساً مُتمتِماً بنبرةٍ مُنخفضةٍ كي لا تسمعه:

- رحمتك يارب.

أنهى جملته الاعتراضية وتقدم لصغيره يحمله ويقبله مُداعِباً قليلاً قبل أن يلتفت نحوها مُقترِباً منها بحذَرٍ، فهي في حالةٍ مُتفجرةٍ، أمسكَ بكلتا مِرفقيها وأدارها إليه ببُطءٍ قائلاً بنفاقٍ:

- حبيبتي.. إنَّهم أعداء النجاح.. والشجرة المُثمِرة دائما ما تُقذف بالحجارة.

ابتعدت خُطوةً للخلف وقد لمحتِ الرياء في حديثه، نفضت يديه وهي تهمس بنبرةٍ مُهددةٍ:

- لا تستفزني يا عاصم .. أنا أعلم أنَّك لا تراني مُثمِرة.. بل لا تراني شجرة من الأساس.

جاهد ليبتلع ضحكته وهو يقترب منها مُجدداً مادَّاً أصابعه؛ ليتلمس شعرها كما يفعل دوماً؛ ليُهدئها:

- هل علمتِ الآن لماذا رفضت التعاون معكِ؛ لاستكمال هذا التحقيق الصحفي؟.. لن يستجيب لكِ أحد مهما فعلتِ.. القانون هو القانون ولن يتغير بسبب عدة حوادث مُتشابهة.. حبيبتي، لقد قلتُ لكِ كثيراً: هذه المهنة لا تليق برقيقةٍ مثلكِ.. ما رأيكِ أن تعودي للكتابة في قسم أخبار الفن.. أو حتى في باب مشاكل الناس؟.

نظرت إليه مصدومةً، هل يراها فاشلةً إلى هذا الحد ؟!، بدلاً من أن يقف بجوارها ويدعمها ضدهم يؤكد أنَّها لا تصلح، وعليها الهرب إلى قسم آخر!، ما الفرق بينه إذن وبين زميلها في المجلة الذي يسخر منها جِيئةً وذَهاباً، ويدعي أنها تقوم بفبركة تحقيقاتها الصحفية في الجرائم الشائكة؛ لتكتسبَ

شُهرةً لا تستحقُّها، ويشكوها كل يوم تقريباً إلى رئيس التحرير مُؤكداً أنها لا تصلح سوى لأخبار الموضة فقط؟.

- سأُحضر لك العشاء.

همست بها ببرودٍ وهي تستدير بقوةٍ؛ لتُوليه ظهرها فناداها بتأففٍ وقد أيقن أنه وضع القِدْر على النار بكلماته الأخيرة:

- أروى.

توقف كأنها صُدمت بجدارٍ فجأةً، فقال بعصبية:

- تناولتُ العشاء في القسم.

في كل الأحوال كانت تعرف، وعَرْضُها لم يكن سوى تحصيل حاصلٍ ليس أكثر، مجرد تأديةِ واجبٍ بدلاً من أن يزداد الموقف سخونةً أكثر أمام الطفل، فغيرت اتجاهها على الفور نحو غرفة النوم تاركةً له الصالة والطفل وصوت التلفاز وكل ما يزيد من إرهاقه أكثر.

ظل «عاصم» يُشيعُها بعينيه حتى اختفت تماماً في الممر الداخلي، أطرق برأسه للحظاتٍ ونفسُه تُحدثه بأن يدخلَ؛ ليطمئن عليها وفي نفس الوقت لا يريد الدخول في مشاحناتٍ ومهاتراتٍ لن تُثمِر بفائدةٍ معها ، زوجته «أنثى الماعز العنيد» لن تهدأ وهناكَ مَن يشكك بعملِها، ولكن ماذا يفعل؟، ماذا بيده؟، هل يفعل كما قال ولده ويُلقي القبض عليهم جميعاً؟.

ابتسم لأفكاره بإرهاقٍ وهو يتابع طفلَه يختبئ من لص وهمي ثم يُطلق رَصاصاتٍ وهمية عليه، ألقى بنفسه إلى الأريكة بتعبٍ، وهو يتناول جهاز التَّحكم عن بُعدٍ ويقوم بتغيير القناة.

- لااا .. « محمود عبد العزيز» مُجدداً .. هذا ما كان ينقصني.

كان «محمود» في تلك اللحظة يتابع مناقشاتِه مع مُقدم البرنامج الذي كان يسأله عن أعراض إدمان هذه المواد الإباحية، بينما «محمود» يؤكد له أنه إدمان حقيقي، وتتصاعد وتيرته كلما شاهد الشخص هذه المقاطع لساعاتٍ طويلةٍ، وانعزل أكثر وأصبح انطوائياً مع الوقت، ويبدأ في طلب الزيادة فيبحث عن المقاطع الأكثر شذوذاً وألَماً؛ لينتعش أكثر، ثم يبدأ في التفكير في تنفيذها على أرض الواقع سواءً مع زوجته أو أيِّ فتاةٍ أخرى، أو حتى مع طفلٍ أو طفلةٍ، سواءً برضاهم أو رغماً عنهم.

رفع «عاصم» رأسه يحرِّكُها، وعضلات عُنُقِه تتصلَّب وتُؤلِمه، وهو ينظر إلى الشاشة، وقضية السيدة «جليلة» تخطر على ذهنه بحضور طاغٍ وصور طفلها الذي قُتِل لنفس السبب تتراءى أمام عينَيه، والقضايا الأخرى التي تدور في نفس الفَلَكِ، هل هذه إجابة أسئلته؟، لماذا كثُرتْ تلك الجرائم، الخطف والاغتصاب المؤدي إلى القتل؟.

مرت تلك القضايا تِباعاً أمام ناظريه في تلك اللحظة، هذه الأم المفجوعة في ولدِها، وهذا الأب الذي انتهك ابنته، التضارب بين شهادات الطب الشرعي والمُستشفيات والعيادات الخاصة، الأول ينفي، والآخرون يؤكدون .. حكم المَحكمة بمنع تلك المواقع وعدم إمكانية التنفيذ لأسبابٍ واهيةٍ غير مدروسةٍ، هل هناك مُستفيدٌ ما؛ لتظلَّ هذه الدائرة المُظلِمة مستمرة الحدوث كل يومٍ؟!.

قُبلةٌ رقيقةٌ طُبعَت على وجنته فجأةً أيقظَته من تماوج أفكاره وتناطُحِها، التفتَ بقلبه قبل عينيه تُجاه قطعة قلبه «عمرو» الذي قال بصوته الطفولي:

- بابا.. تعالَ ونَم بجواري الليلة.

جذبه «عاصم» نحو صدره وهو يقبله بخشونة في رقبته يدغدغه بذقنه النامية حديثاً وهو يهتف به مُلاعِباً:

- سريركَ صغير للغاية مثلك.. ستنام بجواري اليوم في غرفتي.. لو أصرت «أنثى الماعز العنيدة» على خِصامي اليوم.

- أنثى الماعز ؟!.

كرَّرها الطِّفل بصوتٍ مرتفع، فكتم «عاصم» فمَه وهو ينظر نحو الممرْ الذي اختفَتْ «أروى» بداخله هامساً بتحذيرٍ:

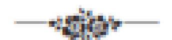
- شششششش .. اخفض صوتك.

ناظرَه طفله بنظرةٍ مُبتزةٍ وهمسٍ بلُؤمٍ:

- إذن .. سيكون هذا سرنا الصغير .

أومأ «عاصم» عدة مراتٍ بتكرارٍ غريبٍ مُستسلماً للابتزاز الواضح في نبرة الصغير الذي مد إليه كفه الصغيرة عاقداً اتفاقاً كبيراً بينَهما:

- المساومات تناسبني!



شريكة الغرفة

قبلَ عامٍ...

أمل .. ممر ضيق نوعاً ما مُغلفة جُدرانه بالأبيض، وإضاءاتٌ دائريةٌ مزروعةٌ بالسقف في خط طُولي مُستقيم، درجتان مُنخفضتان، مُنحنى دائري بسيطٌ، ثم يعود الممرُّ لاستقامته مرةً أخرى، الخُطوات السريعة تتباطأ، وقبضة المُمرضة على ذراع « أمل» تخفُّ تدريجياً، وتتوقف بها أمام غرفة الطبيب.

ثلاث طَرَقاتٍ على الباب الذي تفتحه المُمرضة على الفور ثم تجذبها للداخل مُغلِقةً البابَ خلفها، ينهض دكتور «يحيى» الطبيب الذي عاد إلى عمله مؤخراً في المصحة بعد فترة انقطاعٍ بسبب وفاة زوجته، مُولِياً كل اهتمامه إليها وتبدأ الجلسة العلاجية.

هذا كله لم يحدث بعدُ.

لقد كان شريطاً مُكرراً يدور بعقلها كلما سمعت خُطواتٍ قويةً تمر أمام باب غرفتها المُشتركة بداخل المصحة النفسية، بينما شريكة غرفتها التي لا تنهض من أمام حاسوبها المحمول إلا لدقائق قليلةٍ تقضي فيها حاجتها أو

تأتيها زيارةٌ من زوجها أو تذهب لجلستها العِلاجية، أو لساعة أخرى تتحدث فيها مع شخصياتٍ وهميةٍ، ثم تُنهي الحديث دوماً وهي تخبرهم بأنهم غير مُتواجدين سوى بعقلها فقط، ويجب أن ينصرفوا وإلا قتلتهم بالأدوية التي لا تتناولها حتى الآن.

ترى هل من المُهِم أن يعرف أحدكم اسم شريكة غرفتها تلكَ ؟!، لا أظن أنَّ أحداً سيهتم، فهي ليست شخصية أساسية، كل مُهمتِها أنها تسرد عليكم الحكاية فقط!.

ها قد أتتِ الخُطوات التي كانت تنتظرها «أمل» ثم تبعتها مباشرةً الطرقات المُتسارِعة والدخول غير المُفاجئ، وها هي تجلس أمام طبيبها كالمُعتاد بعد رحلة الممر التي تحفظها عن ظهر قلبٍ، يعتذر منها عن خشونة تصرفات مُمرضته المُفضلة «رجاء» والتي تغيرت في الآونة الأخيرة بعد حالة مأساويةٍ عاشتها وخرجت منها بأُعجوبةٍ دون أن تُجَن، وهو مُتعاطِفٌ معها للغاية ولأقصى درجةٍ.

رفعت «أمل» عينيها عندما ناداها للمرة الثانية، ابتسم « يحيى» بارتياحٍ وهو يحاول دراسة ملامحها جيداً والتغيرات التي تطرأ عليها، لقد استجابت لندائه للمرة الأولى منذ تولى الإشراف على حالتها كما دون في تقريره عنها.

في البداية كانت نظراتها مزروعةً في أرضية الحُجرة لا يستطيع اقتلاعها نحوه ولا حتى لثانيةٍ واحدة، ملفُّ حالتها الصحية والنفسية على سطح مكتبه، بياناتها تكاد تكون مكتملةً ولكنها خاليةٌ من التفاصيل، كان أشار في إحدى أوراقه أنه حاول التواصل مع أختها الوحيدة التي جاءت بها إلى المصحة ودفعت مبلغاً نقدياً مُقدماً، ثم اختفت بعد أن قالت: إنها ستُسافر لتتابع عملها مع زوجها في الخارج.

وليس لديها أقارب يهتمُّون بمتابعة حالتها:

- أمل.. أعلم أنكِ لا تشعرين بالارتياح لمشاركة مشاعركِ وبخاصة لو كانت مُؤلِمة.. يكفي أن تتحدثي فقط.. عن أيِّ شيء تحبين الكلام عنه؟.

المرة الأولى التي يفشل فيها في سبر أغوار أحد مرضاه ولا يعلم لماذا؟!، فالجميع يشهد له بالكفاءة في مجاله برغم عدم تخطيه الخامسة والثلاثين بعدُ.

ربَّما كانَ تأثراً بوفاة زوجته التي كانت كل حياته في يوم من الأيام، والتي - وللعجَب - أصيبت بالاكتئاب الشديد قبل وفاتها ولم يُفلِحْ في علاجها، لهذا يُحمل نفسه المسؤولية عن موتها فانقطع عن العالَم والعمل وانقطعَتْ معه أخباره، فخفَتَ نجمُه قليلاً.

ولكنه عاد منذ أشهرٍ، أكثر قوةً وجديةً وصلابةً وتعاطفاً مع المريضات وخاصة الصامتات منهن، كل واحدةٍ منهن شعر معها بأنها مسؤولةٌ منه، يسعى ليكون سبباً في شفائها مهما كلفه الأمر من جُهدٍ وسهَرٍ وصبرٍ مع حالتها حتى تخرج من صمتها وتبدأ بالتحدث.

وقتها فقط يتنفس الصعَداء كمَن يُمسكُ بتلابيب شخصٍ كان على وشك القفز من فوق البرج لولا تدخله في اللحظة الأخيرة.

دقيقةٌ كاملةٌ من الصمت كانت كافيةً ليعرف بأنَّها لن تتجاوب معه مُجدداً، إنها تتابعه بعينيها فقط بنظراتٍ مُبهَمةٍ.

كان يُقاوم الإحباط بداخله ليحافظ على ابتسامة الثقة في نفسه وليخفف من وطأة الحَيرة التي قاومت؛ لتظهر على وجهه للحظاتٍ، يُفكر بأن يثير مشاعر الألم بداخلها ليجعلها تنفعل وتغضب ليجبرها على الحديث.

يخشى أن تؤذيَ نفسها فيما بعدُ كردَّة فعلٍ تلقائيةٍ لمريض الاكتئاب عندما يُجبَر على شيءٍ ما.

لقد كان مُتعجلاً لجَعْلِها تتكلَّم معه، أن تقول أيَّ شيءٍ، لقد كانت بمثابة تحدٍّ ما، وبالرغم من ذلك صبر معها لأربعة أشهرٍ كاملةٍ، وماذا تكون أربعة أشهرٍ في عمر العلاج النفسي؟!، لا شيء.

هل تُذكِّرهُ بزوجته في مرحلةٍ مُتأخرةٍ من حياتها؟، عندما عادت من الخارج ذات يوم ودخلت غرفتها، ثم اختارَتِ الصمت ولم يستطع أحدٌ ولا حتى هو أن يُخرجَها من عُزلتِها حتى ماتت دون سابق إنذارٍ؟.

لن يسمحَ بمزيد من هذا الصَّمت القاتل.

قام بوضعِها مع شريكة غرفةٍ يعلم بأنَّ لديها وعياً نفسياً بالرغم من حالتِها المرضية، ويثق بأنها ستساعده فيما ينتويه، وفوق ذلك لن تسمحَ لها بالانتحار إن حاولَته يوماً.

شهر.. اثنان.. ثلاثةٌ، لا تتقدم خُطوةً واحدةً، تأبى التفاعل مع الجميع، كيف تُثمر خُطته بينما شريكتها في الغرفة أكثر صمتاً منها؟، تجلس طوال اليوم كالصنم أمام حاسوبها، وبما أنَّها تعاني عدم اكتراثٍ مزمنٍ؛ فهو مضطرٌّ لأن يطلب منها المُساعدة بشكلٍ مباشرٍ.

وجاء اليوم الذي طلب فيه من مُمرضته «رجاء» أن تُحضِر له شريكة غرفتها تلك إلى غرفته، يذكُر جيداً شبح الابتسامة الذي رسم نفسه فوق شفتيها وهو يطلب منها أن تهتم بـ «أمل».

ما هذا؟، هل تم ترقيتها من مريضةٍ إلى رتبة طبيبةٍ دفعةً واحدةً؟!، ولِمَ لا؟.. فلتجرِّب.

فأجابته بعد تفكيرٍ قائلةً:

- أشعر بأنَّه يتم تجنيدي.

ولماذا ترفض؟!، فمنذ أن أصبحت صاحبة عامودٍ في مجلةٍ أسبوعية، تجيب فيها عن المُشكلات التي تُرسَل لها من القُراء الذين يعرفون جيداً مكان تواجدها الآن، بل ويجدون الأمر أكثر جذباً لهم أن تكون القائمة على حل مشاكلهم عبر البريد الإلكتروني مُقيمةً في إحدى مصحات العلاج النفسي إقامة إرادية رافضة الخروج منها، أصبحت تهتمُّ بمشكلات الناس أكثر من ذي قبلُ، وتجد نفسها مسؤولةً عنهم بشكلٍ أو بآخر، وتطور الأمر لديها بأن باتت تكتب القصص المُستوحاة من الواقع، وتهتمُّ بالأدب.

وبرغم كُرهها للاختلاط بالآخرين بشكلٍ مباشرٍ، إلا أنَّ سر « أمل» الذي تُخبئه جعلها تراهن نفسها على أنها لن تُفصح به لأحدٍ سواها.

ولمَ لا؟، فالجميع هنا يعلم طبيعة مرضي النفسي، حتى وإن أفشيتُ سرها يوماً ما فلن يصدقني أحد، فالهَذَيان أحد أعراض نُزَلاء هذا المكان البارد .. أليس كذلك؟!



تجاهل أحياناً لتحصل على نفس نتيجة الاهتمام!، انشغالي عنها هو ما جعلها تنشغلُ هي بي!، هذا ما لفت نظر «أمل» ، إنني مشغولةٌ دوماً بعملي على الحاسوب، تتغيَّر معالم وجهي مع كل كلمةٍ أقرؤها من القصص التي تأتيني يومياً على بريدي الإلكتروني.

كلما تجاهلتها شعرت بالفضول نحوي، ذلك الفضول الذي كان يتحرك كالسُّلحفاة خلال عدة أسابيع لم يصدر عني أيُّ علامةٍ من علامات الاهتمام بها سوى مرةٍ واحدةٍ منذ أيامٍ قليلةٍ، تتذكرها «أمل» جيداً.

تلك الليلة راودها فيها كابوسٌ مُروعٌ فاستيقظَت فَزِعة لتجدني جالسةً على طرف فراشها أناظرها بتأملٍ.. وببرودٍ، كما لو كنت أتلذذ برؤيتها تصارع كوابيسها وتنازع لتستيقظ.

لم تعلم أنَّني أنا التي أيقظتُها بالفعل، مُستخدمةً طريقةً شريرةً لأجعلها تستفيق، فقمتُ بنغزِها في طرف قدمِها فوق الكاحل مباشرةً بطرف ظفري المكسور والحاد كالإبرة، النتيجة كانت جيدةً واستيقظَت « أمل» على الفور، تتنفس برُعب، وخفقات قلبها تظهر من خلف ملابسها كما لو كان القلب يندفع محاولاً الخروج من صدرها مرةً بعد مرةٍ.

تبادلنا النظر للحظاتٍ قبل أن تسقط «أمل» على فراشها مرةً أخرى نائمةً بعمقٍ تبدو كمَن فقد الوعي ببطءٍ.

وفي الصباح كانت تبحث عني حتى وجدتني أجلس على أريكةٍ مَوضِعُها مختلفٌ عن التي اعتدتُ الجلوس فوقها لفترةٍ طويلةٍ، كنتُ أختبر حَدسي، أو بمعنى أصح أريدُها أن تبذل جهداً للعثور علي، فبَذل الجُهد يمنح الشيء قيمةً حتى وإن كان لا قيمةَ حقيقيةً له بالفعل.

« منذ متى وأنتِ لئيمةٌ إلى هذا الحد؟»، لم ألتفت للتي تحدثني عن قُرب، فهي أمي كالعادة توبخني، ولماذا ألتفتُ وأنا أعلم أنَّها وهمية؟ ... حتى وإن كانَت تجلس بجواري الآن.

حاولتُ التركيز أكثر على الخُطوات التي تقترب مني، ظلت « أمل» تقترب بخُطواتها المترددة حتى جلست بجواري.

– مـ... ماذا تفعلين؟.

– أقرأ مشاكل المجانين بالخارج.

قلتُها سريعاً وبطريقةٍ مازحةٍ لأجعلها تبتسم وتشعر بالأُلفة نحوي، ولكنَّها لم تفعل، بل تابعت تتساءل بفضولٍ أكبر:

– هل.. هذا عملكِ كما سمعت عنكِ؟.

– نعَم.

إجاباتي كانت سريعةً فاصلةً حتى لا تتردد وتخبرني بما لديها؛ فالوقت ليس في صالحها، راقبتها وهي تفرُك كفَّيها، تُذكرني بالضعيفة الخائفة التي كنتها يوماً ما، تُذكرني برهينة الناس المُرتعِبة من رأيهم فيها، بالتي كانت تستجدي العطف حتى من أمها ...

« لا زلتِ تكرهينني يا دميمة ....»

- ششششش ...

انتبهت «أمل» تنظر لي بعينين حائرتين، تظنُّ بأنَّني كنتُ أُخرسُها هي، بينما لا تعلم أنَّني أُخرِس أشباحي الخاصة.

- لمْ تكوني المقصودة .. آسفة.

قُلتُها باسمةً فزادت حَيرتها وهي تتلفَّتُ بمقلتيها حولنا حتى استقرت نظراتها نحوي وكأنها تذكَّرتْ أخيراً أنها تُحادث مريضة فِصامٍ لا تتناول دواءها، فلا يجب أن تتوقف عند كل كلمةٍ أنطقها كثيراً !.

- كيف تستطيعين التماسك والاستمرار بدون جرعات الأدوية؟!.

كانت مندهشةً وهي تطرح سؤالها الذي لم أعتقد أبداً أنَّه سؤالٌ، وكيف تسأل وهي تسمع مجادلاتي المسائية كل ليلةٍ مع « رجاء» وهي تحاول إقناعي مخلصةً كصديقة بأن أحافظ على الجَرْعات الدوائية بانتظام لأنها ستُساعدني في حربي مع أعراض المرض، بينما الآثار الجانبية له لن تسبب مشاكل كبيرةً مادمت لا أسكن مع زوجي، فلن يكون هناك مُتضررٌ منها؟.

لا أحد يفهمني هنا سوى الدكتور «يحيى»، بل ويقوم بمساعدتي للوصول إلى تخفيف الأعراض بالجَلسات وقوة إرادتي مع القليل من الحفاظ على جرعات الدواء.. أنا لا أريد أن أستكمل بقية حياتي رهينةً لتلك الأقراص.

- لقد تم اغتصابي.

قذفَتْني بعبارتها تلكَ كحَجَرٍ ارتطم بوجهي بعنفٍ، فالتفتُّ نحوها بحِدةٍ وعينين مذهولتين، فتابعت وقد ثبتت نظرتها الميتة على الشجرة المواجِهة لنا ربما خشيةً من رؤية ردة فِعلي وتابعت بحروفٍ نازفةٍ:

- دخلتُ المَشفى ليلاً على إثر نزيف نتيجة إجهاض مُفاجئ .. كان زوجي مُسافراً فذهبت مع أختي التي استنجدت بها وقد كنت مُرتعبة مِما يحدث لي ولا أفهم سبب النزيف.. وهناك تم تشخيصي بأنها حالة إجهاض ولا بدَّ من دخول غرفة العمليات لتنظيف الرحم.

شعرتُ بأن أنفاسي حُبستْ في صدري وأرغمت نفسي على كتم صوت تنفُّسي الذي ارتفع دون إرادةٍ وأنا أُحاول استيعاب ما تقول وتخيُّلَه:

- استفقتُ من المُخدر وأنا في غرفتي وأختي بجواري تُطمئنُني أن الطبيب أخبرها بتوقف النزيف.. وأن حالتي جيدة فعُدتُ إلى بيتي ظهراً.

كانت أصابعي على وشك ترك حاسوبي المَحمول يسقط من فوق حِجري كما تسقط دمعاتُها الآنَ بغزارةٍ، ولكن دون شهيقٍ، ملامحها ثابتةٌ كنظرتها للشجرة، حاولت استجماع نفسي سريعاً، ووضعت الحاسوب بيننا على الأريكة الخشبية، والتفتُّ نحوها بجسدي كله، ريثما تستكمل هي مُردِفةً:

- مر ثلاثة أسابيع.. كان زوجي قد عاد من سفره.. وقف بجواري ودعَّمني نفسياً.. واتفقنا أن ننتظر بضعة أيام ثم نذهب إلى طبيبة؛ لتخبرنا عن سبب الإجهاض حتى نتجنَّبه في الحمل القادم .. ثم جاءني اتصال من ممرضةٍ تعمل في المَشفى التي أجريت بها الجراحة وتقول: إنَّها تريد مُقابلتي.

وهنا ارتعشتْ نبرة صوتها وبدأت قطرات الدموع تتزايد وتسقط على إحدى ذراعيها المعقودتين فوق صدرها فتأخذ خطاً دائرياً بطيئاً للأسفل وتختفي هناك:

- وعندما ذهبتُ إليها.. أخبرتني أن الطبيب بعد إجراء العملية أمرها هي والمُمرضة الأخرى بأن يخرجا خارج غرفة العمليات بصحبة طبيب التخدير.. خرجتْ بالفعل هي وزميلتها وتركتني وحدي معه .

«لماذا ؟» نطقتها بداخلي فقط، فلم أجرؤ على البوح بها أبداً، فأنا بالكاد أُحافظ على انتظام أنفاسي المقطوعة، بينما قلبي ينهِتُ أَلَماً وأنا أراها تتحول أمامي إلى حِلسٍ بالٍ تَودُّ لو تختبئُ في باطن الأرض، لم تكن في حاجة إلى سؤالي فقد كانَتْ في تلك اللَّحظة تريد أن تحكي، تريد البَوْح ولو حتى للشَّجر:

- قالَتِ المُمرضة بأنني لست الأولى ولا حتى الثانية، وأنها أخبرَت السابقات كما أخبرتني، ولكنهن خفْن الفضيحة وسكتْن، فكل منهن زوجة وأم، والفضيحة لن تكون لها وحدها.

- وفعلتِ مثلهما بالطبع؟.

همستُ بها بقنوط .. ففاجأتني بنظرةٍ حادةٍ وهي تلتفتُ ناظرةً نحوي لأول مرةٍ منذ أن بدأت تقصُّ حكايتَها هاتفةً بـ : لا.. ثم تابعت بعنفٍ:

- لقد فضحتهما في كل مكان.. قدمتُ بلاغاً للنيابة.. وطلبت شهادة المُمرضة وزميلتها.. وعندما تواصلت وسائل الإعلام معي تكلمتُ وحكيتُ كلَّ شيءٍ.

أومأت برأسي بابتسامةٍ مُشجعةٍ وأنا أشعر بالفخر، فها هي أنثى تخرج عن المألوف أخيراً .. وتطالب بحقوقِها بلا خوفٍ من المُجتمع، فعالجتني بنظرةٍ ضائعةٍ وقد خَفَتَ صوتُها وكأنه يختبئ هناكَ.. خلف أوراق الشجرِ وهي تهمس:

- زوجي طلقني .. قال: إنني فضحته..

ورغم كُرهي لِلَمْسِ أحدهم وجدتني أقترب منها؛ لأواسيَها ولكن يدي عادت مكانها مرةً أخرى، لم أقوَ على ذلك، ولا أعلم لماذا؟، حافظتُ على المسافة بيننا بترك الحاسوب كحد فاصلٍ يفصلني عنها، ليتَها كتبَت لي قصتها في ورقةٍ أقرؤُها ثم أمزقها لتذروها الرياح.

– في البداية رفض التصديق وقال: إن الممرضة تكذب؛ لتوقعني في المشاكل أو لتبتزني بصمتها.. وعندما عصيته وقدمت البلاغ.. اختفت المُمرضة تماماً.. ولم يُعثَر لها على إثر.. بينما حضرت زميلتُها تلك ومعها مُمرضة أخرى لا أعرفها ولم تدخل معي غرفة العمليات ولم أرَها على الإطلاق يومها.. وشهدت كلتاهما بأنهما لازماني طوال فترة الجراحة.. منذ دخولي وحتى خروجي منها.. ولم يحدث أيُّ شيءٍ غير طبيعي.. وأرسلَ المشفى أوراقاً يوثِّق بها شهادتهما !.. أنا سأُجَنُّ.!!

وحدث ما تمناه دكتور «يحيى» وزيادةٌ؛ انفجرت «أمل» في البكاء وبدأ نشيجها يعلو وجسدها يختضُّ وهي تحاول السيطرة على حديثها المُتقطع وجسدها المُتداعي ألماً وحزناً على نفسها وعلى ما وصلت إليه.

– حتى أختي تخلت عني عندما أمرها زوجها بالابتعاد.. الجميع كرهني حتى بعد أن بدأت تتسرب من عيادة الطبيب الحقير كلمات هنا وهناك عن تحرشه ببعض المريضات مما ساعد في قوة اتهاماتي له .. ولكنها في النهاية بلا دليلٍ.

صمتت للحظات محافظةً على وتيرة دمعاتِها الغزيرة قبل أن يتحول الصمت إلى نشيجٍ مُتقطع كأنفاسها المُتلاحِقة، وفجأةً غادرت العصافير الشجرة المُنتصبة أمامنا دفعةً واحدةً مُتفاعلةً مع ذبذباتِ العنف الصادرة منها وكأنها تنذرهم بزلزالٍ قادمٍ وهي تصرخ هاتفةً:

- هل تُصدقين؟ !.. خرج جواب الطب الشرعي لصالحه هو.. فنصحني المُحامي الذي تولى القضية أن أتنازل وأحاول الصلح معه.. حتى لا يرفع ضدى قضية تشهير وتعويض وقد يصل به الأمر إلى أن يصدر حكم بسجني .. تخيَّلي؟!.. في النهاية أنا مَن كان سيدخل السجن.. وخرج المُجرم في أحد البرامج؛ ليقول بشفقةٍ: إنَّني أعاني من اضطرابٍ نفسيٍّ وأنه سيتنازل عن حقه رحمةً منه فقط لا غير.

نهضت واقفةً، واقتربت واقفةً أمامي مباشرةً قاطعةً الطريق على نظراتي لشيءٍ سواها، ضاقت عيناها وهي تقول بِكُرهٍ لم يكن موجهاً نحوي:

- ربما كانوا على حق.. ربما أنا المُذنبة حقَّاً.. أليس كذلك؟!

نعم، كانت تقطع الطريق على نظراتي، ولكنها لم تستطع منع أشباحي الخاصة من الظهور بجوارها، «لماذا لا تنتقم هي أيضاً كما فعلتِ أنتِ بزوجك» ؟

كان هذا دوري لأنهض واقفةً أمامها بتحدٍّ وأجدنى أسألها بنبرةٍ آمرةٍ:

- لماذا لم تنتقمي منهم جميعاً؟!

- فكرتُ.. والنتيجة كانت أنني انتقمت من نفسي.

همست بها وهي تطرق للأرض بضعفٍ، رفعت قدمها قليلاً جانباً، وقامت بدهس نملةٍ مسكينةٍ كان قدرها أن تمر بجوارنا في تلك اللحظة، ثم رفعت عينيها الضائعتَين تثبتهما في عيني مُجدداً وتعود لتهمس:

- أغلقتُ على نفسي أشهراً طويلة أعلم عددها.. لا أفعل شيئاً سوى الصمت.. وحيدة تماماً.. رنين الهاتف وقرع الباب أسمعُهم كصُفارات الإنذار في الغارات.. فأختبئ أسفل فراشي برُعب.. حتى جاء اليوم الذي وجدتُ فيه أختي تأتي مع زوجها وتنظر لي وللشقة بازدراء .. ثم وجدتُ نفسي هنا.



صفقات

قبل أيام ...

العجيب أننا في أكثر لحظات طلب الموت وعدم الرغبة في الحياة نتخلَّى عن كل شيءٍ إلا الكرامة.

نموت ولكن تبقى كرامتنا شاهدةً على أنَّ مَن مات هو الجسد فقط.. الكرامة.. كلمةٌ غريبةٌ على عالم السُّجون، فهناك تبقى بجسدكَ فقط .. ميتٌ على قيد الحياة.

مع أول ليلةٍ له هناك استعاد «حسن» شراسته من جديد، وكشر عن أنيابه وأخيراً وجد فائدةً من مُمارسة المُلاكمة لسنواتٍ غير لكمِ الجُدران والوسائد وإطارات السيارات ... ووجه أنور برهان.

عرف «حسن» معنى أن ينام كالقطط مُتحفزاً، تعلم كيف يستغل كل مهارةٍ يعرفها؛ ليصدَّ بها ثغرات الضعف خلف الأسوار.

ضعف المادة تغلَّبَ عليها بالأموال التي كان يدخرها فترة عمله في إصلاح السيارات، الضعف البدني كان أبعد ما يكون عنه، ولم يتبقَّ من الثغرات سوى ضَعف علاقاته مع القادة في الداخل، وقد تكفلت أصابعه الذهبية كما كان

يُقال عنه بتغطية تلك الثغرة أيضاً وأصبح يُلقب بين السُّجناء والحُراس بـ ميكانيكي المأمور!.

تحسَّس «حسن» تلك الندبة القديمة بجوار عينيه والتي بلغ عمرها عاماً كاملاً وابتسم وهو يشكرها؛ فهي صاحبة فضلٍ كبيرٍ عليه، وربَّما لولاها لَمَا كان على قيد الحياة، بل لولاها لَما كانت لديه كل تلك الهيبة الآن بين المَسجونين، ولولاها أيضاً لَما تخلص من تلعثمِه البغيض.

فحالة الرغبة في الموت التي جاء بها إلى السجن واستسلامه للأوامر وانطوائيته جعلتهم يظنون أنه لُقمةٌ سائغةٌ سيبتلعونها سريعاً، فاجتمعوا عليه ولقَّنوه درسه الأول في حُبِّ البقاء، وفهم بالطريقة الصعبة معنى ذائقة الموت ورَيب المنون، ومعنى أن تكون حياته تستحق أن يُدافع عنها، وكرامةً ورجولةً لا بد أن تظل رايتُهما خفاقةً دائماً خلف جدران تلك الغابة الصغيرة وإلا التهَمَتْه الضِّباع قبل الوحوش فيها.

- حسن ؟!

رفع عينيه تُجاه محاميه الذي كان يجلسُ أمامه منذ ما يقرب من خمسَ عشرةَ دقيقةً يشرح له الخُطوات القانونية نحو قضيته.

- من الواضح أن براءتك لم تعد تهمك يا حسن !!

زفَر حسن وهو يشعر بالسأم الشديد، ذلك الرجل منذ أن عرفه وهو يشرح له أشياء قانونية مُعقدة، ربما هو نفسه لا يفهمها، بل ربما لو كان يفهمها لاستطاع إخراجَه مِما هو فيه منذ عامٍ كاملٍ.

وصل به الأمر أن ينسى مرةً موعد الجلسة ومرةً أخرى مذكرة دفاعه .. متكاسلاً .. تسبب له في تأجيل قضيته أكثر من مرةٍ لنفس السبب دون داعٍ.

سنةٌ كاملةٌ مرَّتْ بين تحقيقات النيابة وصدور الحكم الابتدائي ضده، ثم تلاها سنتان أوشكتا على الانتهاء ما بين إجراءات الاستئناف الذي انتهى إلى الحكم بتخفيض العقوبة من عشر سنواتٍ إلى ثلاث سنواتٍ فقط، ثم إجراءات النقض الذي تحدد موعد النطق بالحكم فيه بعد أسبوعٍ من الآن.

- أنا أعلم أنك مُستاء وغاضب.. ولكن هانَتْ يا حسن .. الخميس القادم جلسة النُّطق بالحكم في النقض، وأنا مُتفائل خيراً.

لماذا لا يفهم؟ .. إنَّه لا يريد البراءة، هو فقط يسعى إلى الخروج مِن هنا، يريد أن يخرج إليهم.

لا بد أن يدفع الجميع الثمن، كل من تآمر عليه.

آن الآوان ليذوقوا معنى الموت وهم على قيد الحياة.. مثله تماماً.

كل منهم له فاتورةٌ خاصةٌ به، وسيدفعها كاملةً شاءَ مَن شاء وأبَى من أبَى.



- ما معنى إصرارك المُتواصل هذا على أن يكون عقد القِران والزفاف في نفس الليلة يا حافظ؟ .. لماذا لا نعقد القِران اليوم أو غداً ؟.

وضع حافظ إحدى ساقيه على الأخرى مُطمئناً وقد أبلغه محاميه أن جلسة النطق بالحكم النهائي الخميس القادم، وبدا أكثر ثقةً وأكثر قُدرةً على مواجهة «أنور برهان» نداً له وليس كأسير شهادته ضد «حسن» .

التحمت أصابع كفيه ببعضهما البعض وهو يُومئ برأسه قائلاً بثقةٍ:

- هذا آخر كلام عندي.

لقد صبر ثلاثة أعوامٍ على مُماطَلة «حافظ» له بطلب مُهلةٍ بعد أخرى في انتظار الحكم النهائي؛ ليطمئن على ولده، حتى إنه لم يرَ خطيبته سوى مرةٍ واحدةٍ، وهي المرة التي ألبسَها فيها خاتم الخِطبة.

إنه يذكرها جيداً، لقد كانت مُتورمة الوجه، حمراء العينين، شاحبةً كالأموات، ودموعُها لم تفارقها لحظةً، لم يتساءل عن حالتها تلك فهو بالتأكيد يعرف أن «حافظ» أجبرها بل وضربَها حتى تورمت، ووجهها يشهد بذلك.

إلا أنه لم يكن يعرف أن والدها هدَّدَها بتطليق أمها وطردها من المنزل إلى الشارع إن لم توافق على تلك الزيجة.

عندها لطمَتِ الأم خديها، فأيقنت «غفران» أنها ميتةٌ لا محالة حتى إن كان جسدها يتحرك بينهم جسداً بلا رُوحٍ، أو لم تفارقها روحها منها عندما علمت بما جرى لـ «حسن» والصفقة التي كانت هي إحدى قرابينها؟.

«أنور» يشعر أنهم يتملصون من الزواج مرةً بعد مرةً، فبعد أن كانوا سيقبِّلون قدميه حتى لا يفضح ولدهم صاروا يشترطون عليه أن يُسجل عقد بيع منزله المُكون من طابقين باسم «غفران» قبل أن يتم عقد القِران، أغبياء ..إنه يريدها نعم، ولكنه في نفس الوقت لا يترك أحداً ينتزع منه قرشاً واحداً، أمواله هي أبناؤه الذين لم ينجبهم .. هي روحُه، يموت إن انتقلت إلى غيره.

لولا تدخل «صفوان» من البداية لذهب وقام بتغيير شهادته ضد «حسن» بعد أن ماطلَه «حافظ» للمرة الأولى، حتى إنه أخذه من يده وذهب به إلى ذلك المُحامي الذي يتعامل معه «صفوان» منذ سنواتٍ وبينهما مصالح مُتبادلةٌ، وهو الذي قام بالدفاع عن «رمزي».

حذره المُحامي بشدةٍ من تغيير شهادتِه وقال له بالحرف: إنه سيتمُّ سجنه بتُهمة الشهادة الزور، وربما يتم توجيه تهمةٍ أخرى : هي التواطؤ مع القاتل الحقيقي !، ومن حينها وهو في حربٍ وديةٍ مع «حافظ»، وبين كرٍّ وفرٍّ، تهديدٍ وتراجع، ويئسَ من أن تتم الصفقة التي لم يستفد منها سوى عداوة «حسن» أكثر وأكثر .. وبعض المصاريف!!



خطابٌ آخر يقرؤه ثم يمزقه بعُنف، بينَما حبات العرق تندفع حول جبهته فيرفع ظهر كفه؛ ليمسحها مُرتجفاً مُتمتماً بنفس الكلمات التي يقولها له «صفوان» دائماً؛ ليُطمئنه بها.

- حتى ولو خرج من السجن.. فلن أسمح له بالاقتراب منك.

ظل يكررها مراتٍ ومراتٍ وهو ينهض بتثاقلٍ من فراشه الذي يصدر صريراً خافتاً ناتجاً عن حركته المُتخبطة، صار ببطءٍ وهو يسعُلُ حتى توقف أمام المرآة المُعلقة على الجدار منذ زمنٍ، تأمل شُروخها الطويلة التي تعكس صورته بشكلٍ أزعجه، شعره الرمادي الكثيف المُتناثر حول رأسه مُختلِطاً بعرق جبينه الغزير، عيناه جاحظتان رغماً عنه، يشعر بمِطرقةٍ تضرب ركبتيه مُصدِرةً أزيزاً كلما تحرك.

شيخوخته باتت تُخيفه أكثر مما يجب ، في الماضي كان لا يزال بكامل عنفوانه وقوته فاستطاع التصدي له مِراراً، أما الآن ... ماذا سيفعل إذا وجدَه في مواجهتِه في يومٍ من الأيام؟، هل سيرافقه «صفوان» ليلَ نهارَ؛ ليحميه منه؟.

رفع راحة كفه ضاغطاً بها صدره مُتألماً، وتلك الجملة الوحيدة التي قرأها في الخطاب تضرب أركانه فتزرع الخوف بين جنباتِه (ستموت يا أظلم).

طَرقاتٌ سريعةٌ على باب شقته جعلته ينتفض فجأةً، وهو يستدير نحو باب غرفته والألم يضرب صدره أكثر فأكثر، ويزحف نحو مَعِدَته فيشعر بها وقد سقطت بين قدميه، بينما شهقةٌ عاليةٌ أطلقتها حنجرته رغماً عنه قد سمع صداها.

منذ أن علم بتخفيف الحُكم على «حسن» إلى ثلاثِ سنواتٍ وهو يُعاني تلك الحالة المُرعِبة من الخوف مِما هو قادمٌ، الطرقات تسرع كخفَقَان قلبه، ويا للعجب ... فالخميس القادم يحمل له كل المُتناقضات .. زواجه المنتظر من «غفران» كما وعدَه والدها، وموعد النطق بحكم النقض في القضية.

لو تم تأييد الحكم فسيخرج له «حسن» في نفس اليوم، وربما يجده أمامه وجهاً لوجهٍ، يخاف تلك اللحظة منذ أسابيع عندما جاءه أول خطابٍ منه يحمل نفس الجملة (ستموت يا أظلم).

وقتها عثر عليه أسفل باب شقته، ولا يعلم مَن وضعه؟، ولا يوجد عليه أختام أو عنوانٌ أو حتى أسماءٌ، مجرد ورقةٍ تحوي جملةً واحدةً تقتله في اليوم ألف مرةٍ، جعلته يضع أقفالاً كثيرةً على بابه، ويحتفظ دائماً بسكينٍ أسفل وسادته؛ ليحمي نفسه.

أسابيع عاشها في رعبٍ متواصلٍ، يُغمض عيناً واحدةً كالقطط، وطرقاتُ بابه تفزعه كما تفعل الآن وهو كالصنم لا يتحرك، فقط تتسع حدقتاه ويضغط خافقه مُتألماً بذُعرٍ.

- افتح يا أنور.

كررها «صفوان» مراتٍ كثيرةً حتى بدأت قدماه أخيراً تتحركان ببطء شديدٍ للخروج من غرفته، وفتح الباب بيدٍ مُرتعشةٍ وهو على حالته تلك، فنظر له الأول وهو يتأفف بسأمٍ وقال مُوبخاً:

- ساعة !!.. ساعة؛ لتفتح الباب يا أنور؟.. ألا زلت مذعوراً على حالك منذ تركتك؟.

قال كلمته الأخيرة وهو يدلِف إلى الداخل، بينما بدأت دقات قلب «أنور» تنتظم قليلاً وتهدأ وهو يشعر أنه لم يتنفس منذ دقيقةٍ كاملةٍ، والشعور بالدوار ينتابه، وبارتخاءٍ يستشري في كامل جسده، فكاد أن يهوى أرضاً، اندفع «صفوان» نحوه؛ ليسنده ويسير به نحو أقرب مقعدٍ كان بجوار الباب يعلوه الغبار ولم يهتم أحد منذ سنواتٍ بنظافته ولا أن يحركه من مكانه .

ثم اعتدل بجذعه المُمتلئ وعصاه الغليظة التي لا تفارق أسفل إبطِه مهما حدث:

- قلتُ لك سأحميك منه.. لا تخف هكذا .. ثم هو لم يخرج بعد.. فلماذا كل هذا الرعب منه؟.

- أرسل تهديداً آخر يا صفوان.

اتسعت عينا «صفوان» متعجباً وهتف بحدةٍ:

- كيف ذلك ؟ فلقد وعدني حضرة الضابط عندما أريته الورقة الأولى بأنه سيُرسل له في السجن مَن يؤدبه.. وسيبلغ إدارة السجن بذلك؛ ليضيقوا عليه حتى لا يستطيع التنفس حتى.

- أنا أعلم أن نهايتي ستكون على يدِه.

قالها «أنور» وهو يهز رأسه بيأسٍ مُختلطٍ بالخوف الشديد وكأنه يُعاين جثته الآن.

وضع «صفوان» كفَّه العريضة على كَتِف أنور، وهو يشد عليه بقوةٍ ويدعي المرح قائلاً بحماسٍ مُصطَنعٍ:

- أنت «عريس» يا أنور.. عقد قرانك بعد خمسة أيام فقط .. انسَ تلك الخُرافات وقُم هيأ نفسك واستدعِ مَن ينظف لك تلك الخرابة التي تعيش بها.

ثم أشار بيساره كالسهم نحو أرجاء الصالة الواسعة والفارغة في نفس الوقت إلا من طاولةٍ خشبيةٍ عتيقةٍ مسجونةٍ بين أربعة مقاعد تغير لونها جميعاً، وأريكةٍ عريضةٍ أسفل النافذة ملتحفةٍ بقماشٍ ممتلئٍ بالورود الملونة المطبوعة أكل عليه الغُبارُ وشرب حتى باتت أطرافه مُهترئة باهتة، وذلك التلفاز العتيق بصورته المهزوزة التي رحلت وتركت له الصوت فقط بعد أن أظلمت تماماً، والجدار من خلفه تعلوه تلك الصورة الصغيرة باللونين الأبيض والأسود والتي تضمه هو وزوجته الراحلة يوم زفافهما .

لم يتفاجأ «صفوان» بتلك الصورة فلقد سأله عنها منذ سنواتٍ عديدةٍ، لماذا لا تزال محتفظًا بها ؟!.

ألم تنجب لك من الحرام ؟! لماذا تُبقِى على صورتها ؟!

حينها أجابه «أنور» بعد أن نظر إلى الصورة للحظاتٍ قائلاً، ومُتصنعاً اللا مبالاة:

- «لا أعلم ... هكذا فقط».

لم يستطع «صفوان» أن يرفع عينيه بسهولةٍ عن وجه «زينب» في الصورة المُعلقة، وما الجديد؟ هذا دأبه منذ ثلاثين عاماً، عندما رآها لأول مرة في منزل صديقه «أنور» في اليوم التالي مباشرةً بعد زفافه، كانت عروساً جميلةً مُطرِقةً برأسها دائماً، ذات لهجةٍ ريفية مُحببة ومُميزة وضفيرتين سوداوين، اختفَتا بعد سنةٍ واحدةٍ فقط منذ دخولها لهذا المنزل زوجةً لهذا البخيل، مع قلة الغِذاء ورَداءته والحمل والولادة والمجهود المُضاعَف المُصاحِب لهما؛ تساقط الشلال الأسود جديلةً خلف الأخرى حتى توارى تماماً أسفل المِنديل الصغير الذي استخدمَتْه لربط شعرِها وتوارى معه جمالُها وتورُّده إلى غير رجعةٍ.

ولكنها ظلت في عينيه (زينب) التي لأجلها فقط وطد علاقته بهذا الشحيح وظل يزوره يومياً مُحملاً بأكياس الفاكهة والعصائر؛ ليملأ « أنور» مَعِدَته رَيثما يملأ هو عينيه منها وهي تُهرول هنا وهناك لخدمتهما.

كل يوم يمر يكره أنور أكثر من اليوم الذي سبقَه مُحاولاً التقرب منها أكثر وأكثر .. ولٰكن بحذرٍ شديدٍ.

حتى جاء ذلك اليوم بعد سنواتٍ من الصبر عندما وجدها وحيدةً في المنزل ومعها طفلها الوحيد الذي قد بلغ منذ أيام عامه الثالث، وقتها .. وقتها فقط، علِم أنها ليست بالضعف الذي كان يتخيله عندما هوت على وجهه بصفعةٍ قرويةٍ هادرةٍ تصحبها نظرةٌ صاعقةٌ جمدتِ الدماء في عروقه، علم أنها تربَّتْ على أن تخضع لزوجِها في نفس الوقت الذي تقطع فيه عُنُق مَن يحاول المساس بشرفها كما تُقطَع جذوع الأشجار.

– صفوان !!

جذبه «أنور» من ذكرياتِه المُخزية وهو يناديه مرةً بعد أخرى ويسعُل بقوةٍ يريد أن يستند إلى يديه في مُحاولة منه للعودة إلى فراشه مُجدداً.

- كيف ستتزوج وأنت بهذه الحالة؟ .. لو تريد نصيحتي .. قُم بتأجيل الزواج حتى تتحسن صحتك قليلاً.

ضغط «أنور» صدره بألَمٍ وهو يتحركُ ببطء لاهثاً قائلاً بسخطٍ وانفعالٍ شديدٍ:

- يا سبحان الله .. لم أعد أفهمك أبدًا .. في البداية كنت أنت صاحب فكرة الصفقة ومُساومة أهل رمزي على الزواج من ابنتهم مقابل الشهادة لصالح ولدهم.. وفجأةً بدوْتَ مُقتنعاً بما يريدون وتحاول إقناعي بالتأجيل .. والآن وبعد أن وافقوا أخيراً على تحديد موعد نهائي للزفاف تريدُني أن أؤجله مُجدداً .. ماذا يحدثُ معك ؟!

- أووف .. انتهينا يا أنور.. افعل ما يحلو لك.

قالها «صفوان» بتأففٍ وسأم وهو يدفعه بخفة نحو الفراش وبدلاً من أن يسقط أنور على الفراش سقط أرضاً على وجهه مُتعثراً بالسجادة المُهترِئة وهو يصرخ بألَمٍ شديدٍ، اشتد عليه الوجع الذي هجم بقوةٍ ناهشاً صدره ويقتلع فؤاده بلا رحمةٍ.

راقبه «صفوان» قبل أن يزفر بارتياحٍ، لقد أثمرتِ الخُطة أخيراً، وسقطَ الأحمق صريعَ رُعبه من رسالتين كتبهما هو بيدِه، ووضعَهما أسفل بابه بنفسِه، واحدةً تلو الأخرى!



العودة

قُفلٌ.. اثنان.. ثلاثةٌ، أقفالٌ كثيرةٌ يُوصَد بها باب هذا المَخزن القديم ذى المساحة الواسعة والمُنعزِل عن العمران، والذي قام بتأجيره فور خروجِه من السجن بعد إطلاق سراحِه منذ أيام وهو يعلم جيداً، ماذا سيفعل وكيف سيسترد حقه الضائع؟، موقعه كاد يتطاُبق تماماً مع احتياجاتِه، لولا اقترابه بعض الشيء من الطريق المُمهد للسيارات، لقد راهن على خوفها عندما وصلت أفكاره لتلك النقطة، ابتسمَ مُتعجباً، لقد اضطربت وارتعش جسدُها خوفاً من قوله لها بأن هذا المكان مسكونٌ بالأشباح ولو صرخت فلن يسمعَها أحدٌ سواه .. والعفاريت!. أكثر من الخوف الذي اعتراها عندما استفاقت من غيبوبتها ووجدت نفسها مُختطفةً!.

يبدو أنها تخاف العفاريتَ أكثر منه!.

اتسعت ابتسامته أكثر قليلاً وهو يجلس خلف مقود سيارة «أنور» الذي قام بسرقتِها ليجتذب بها عيني «غفران» ويجعلها تقترب بقدميها من الفخ الذي أعده لها.

قام بتشغيل مُحركها ليخرج بها من الأرض غير المُمهدة نحو الطريق المُمهد مُنطلقاً بشغف وباتجاه ذلك المَشفى الحكومي الذي يرقُد بداخله صاحب الرقم الثاني على قائمة انتقامِه.

اختفت الابتسامة فجأة وتلاشت، ذكرى أكف الظلم التي اجتمعت عليه محتها عُنوةً عن شفتيه، فبرقت عيناه بقسوةٍ وبرودٍ قاتلٍ بدأ يعتاد نزع الحياة منهم يوماً بعد آخر، وللمرة الثانية على التوالي!.

دلف «حسن» إلى المَشفى العام وهو يتخطى الحديقة على الجانبين بجوار الباب الحديدي العريض، والتي تساقطت أوراقها لعدم العناية بها وامتلأت بعُلَب الكشري الفارغة والأكياس المُتطايرة هنا وهناكَ، لم يُوقفه أحدٌ كما كان يتوقع.

المساحة الواسعة التي تلي الحديقة تحولت إلى موقف «تكاتك»، أكواب الشاي وأعقاب لفائف التبغ المسحوقة تعلو السور المنخفض للمشفى والذي يجلس أسفله بائع المشروبات الساخنة والباردة، دار نصف دورةٍ حول المشفى ليصل إلى قسم الطوارئ والحوادث، القسم في الطابق الأرضي ويتضمن غرفة المُلاحظة حيث يرقد هدفه الآن، الممر يُوحي بالنظافة في بدايته.

أما وبعد تعمقه في الداخل وجد ما قام بوضع خُطته كلها على أساسه هو ومُعاونيه، الباعة الجائلون يتجولون هنا وهناك بين الأسر المنكوبة التي تجلس فوق الأرض المُزدحمة بهم في انتظار مصير مرضاهم المجهول، والأطفال الصغار يلعبون ويصرخون في الطرقات التي تحولت إلى سوق شعبي، المُمرضات مشغولات الآن في تناول وجباتٍ ساخنةٍ من فاعل خيرٍ لم يحلُمنَ بها يوماً، فلم يجد شخصاً واحداً ليوقفه أو يسأله إلى أين؟، مجموعة شباب يقفون بنهاية الممر يحملون طفلةً صغيرةً تنزف من رأسِها ويديها، وممرضةٌ وحيدةٌ صغيرةٌ بالسن هي التي تحاول وقف النزيف بينما هم يصرخون بأنها تعرضت لحادث سيارة ويحتاجون إلى مساعدة .

وللأسف لا وجود للأطباء، فهم مُنشغِلون الآن في عراكٍ بينهم يتشاجرون حول دورية الإشراف اليومي، بينما تقفُ بجانبِهم المُمرضة الوحيدة والمسؤولة عن غُرفة المُلاحظة، والتي أشارت له بعينيها بأن يدخل الآن سريعاً، كما تم الاتفاق معها من قبل.

الغرفة مُمتلئةٌ بالأَسِرَّة إلا أنها جميعاً خاليةٌ من الفُرشِ والمَرضى، إلا من مريضٍ واحدٍ فقط يحتل بجسدِه الضخم السرير الأخير منها المُلتصق بجدارٍ مُتهالك الطلاء ومُلقَى فوقه ملاءة كانت بيضاء يوماً ما.

لم يستطع «حسن» رفع عينيه لتأمل بقية الجُدران المُزدحمة بالشروخ، فلقد تصلبت فوق جسد «أنور» النائم بالرغم من كل تلك المعارك الدائرة بالخارج بينما صوتُ شخيره يعلو وينخفض بلا انتظام وكأن أنفاسه تتحشرج بداخل صدره تأبى الخروج، أغلق الباب من خلفِه وبدأ يقترب منه شيئاً فشيئاً، كل خُطوةٍ نحوه تقفز به إلى ذكرى سيئةٍ معه، ضغط أضراسَه وضاق ما بين عينيه القاسية، وبلا إرادةٍ رفع أصابعَه يتحسَّس بها أثر الضربة خلف رأسه وكأنه تلقاها الآن فقط، مشاعر كالموج الهائج تضرب كِيانه فتبعثره وتُلقي به تحت قدمي «أنور» الذي طالما ضغط أنفاسه بحذائه المُهترِئ وهو فتى حديث البلوغ رَيثما يتحداه أن ينهض لمواجهتِه إن كان رجلاً.

- الآن انقلبت الآَية يا «أظلم».

همسَ بها بكُرهٍ شديدٍ وقد وصل إلى فراشه المَعدوم وانحنى يتأمل وجهه، لقد بلغ الستين وتهدل جِلدُه بينما لا زال يرغب في الحياة ويتمسك بها كعادته، وفي نفس الوقت يبخل على نفسِه حتى بالعلاج في مكانٍ آدمي آخر، لقد دفع بعض الأموال مُقابل سجنه وضن على صحته بمثلها.

رفع «حسن» يدَه تاركاً راحته تزحف نحو عنق «أنور» بينما طائر البغض الأسود يفرد جناحيه صارخاً في عينيه المُحدقة به وهو لا زال نائماً يصارع أحد كوابيسِه بأنفاسه المُتقطعة بأن يفتحَهما ليراه وهو يقتله.

ولقد استجاب «أنور» للنداء، فتح عينيه وهو يلهث شاعراً بذلك الضغط حول عنقِه فوق حلقه مباشرةً، انتفض فجأةً في الفراش وهو يعتقد بأنه لا زال يحلُم، لقد كاد يقتلُه في الحُلم، فاستيقظ مُنتفِضاً ليجده قابضاً على أنفاسه في الحقيقة، نظر له بهلع، وكأنه يُعاين ملك الموت في تلك اللحظة، لحظةٌ يعجز فيها اللسان عن الحركة، والأعضاء عن إبداء أيِّ مُقاومةٍ، ولا يبقى سوى فزعٍ، وعينين مُتجمدتين، وخافقٍ يقفز بجنون نحو نهاية الرِّحلة!.

- تذلل يا «أظلم».. ابكِ طلباً لحياتِك العفِنة.

لن يقتله سريعاً، يريد أن يراه مُتذللاً تحت قدميه أولاً.

لقد تخيل هذا المشهد مراتٍ عديدةً خلال سنوات سجنِه الأخيرة، يتمنى أن يعيش هذا الشعور بكل جوارحه، شعور النشوة وهو يراه مكسوراً أمامه كما فعل بوالدتِه من قبلُ.

شعور الخزي والضعف والنقص الذي صاحبه طِيلة عمره بسببه، إزهاق رُوحِه فقط لا تكفي، ولا يظن أنه سيكتفي بعد اليوم.

- أرجوك.. ارحمني.

استطاع «أنور» أن يهمسَ بهما بأنفاسٍ لاهثة وقد بدأ يستوعِب الأمر، لقد رأى نظرات الكُره والشر في عيني «حسن» كثيراً من قبلُ، أما ما يراه الآن، فنظرات قاتلٍ شرسٍ، لن يتراجعَ.

تأكد أن حياته ستنتهي في التوِّ، وبدون إرادةٍ منه وجد يده ترتفع حتى قبضت على كف «حسن» الساكنة بتصلب فوق عنقِه، فشعرَ ببرودتها وكأنها تحولت إلى يد آلةٍ للقتل لا تنتمي للبشر، فبدأت عيناه تدمعان، ثم يبكي مُتوسلاً حياته كما طلب منه.

- ارحمني يا حسن .. لخاطر أمك الطيبة ارحمني.

- لخاطر أمي؟!!

قالها «حسن» بدهشة، وبدأت ضحكاته الخافتة المُتقطعة تزداد جنوناً رويداً رويداً، نظراته المجنونة زادت من هلَع «أنور» وانهمرت دموعه أكثر وتعالَى نحيبُه وهو مازال قابضاً على يد «حسن» ، يريد أن ينجو ولا مفرّ، خرج صوته مُتحشرِجاً وإرادة الحياة تدفعه دفعاً وهو يقول باكياً:

- أُقبِّل قدميك.. سامحني.. عندما أخرج من هنا سأقبل رأسك أمام الجميع وأرد إليك كرامتكَ.. سأعترف بكل شيءٍ.. أنت ابني.. ورمزي هو مَن قتل «سلمى» .. أرجوك.

مال «حسن» برأسه يميناً وهو ما زال مُحتفِظاً بنظراته المجنونة وهو يكرر بسخريةٍ الكلمة التي لا يبدو أنه لم يسمع سواها:

- أنا ابنك؟!

حاول «أنور» أن يُحركَ رأسه مؤكداً بالرغم من الرُّعب المُسيطِر عليه ولكن قبضة قاتلِه لم تسمح له، فعاد يكررها بتأكيدٍ أكبر بينما عقله يرفض ما سيقوله:

- نعم.. أنت ابني ..أنا ظلمتُك وظلمتُ أمك.. سأكتب لكَ البيت والورشة باسمِك.. وكل ما عندي لك.

- عندي لك اقتراحٌ آخر.

تعلقت روح «أنور» بكلماته بأمل في النجاة، بينما يدُه ما زالت تقاتل في معركةٍ خاسرة لتحرر عنقَه، بينما يرفع «حسن» حاجبيه ويقول مُقترحاً:

- ما رأيك بأن أقتلك الآن.. فتذهب إلى أمي في العالَم الآخر وتعتذر لها هناك؟ وسأخرج أنا من هنا دون أن يعلم أحد بأنني قتلتكَ.. أَرِثُكَ وآخذ كل ما كان لديك.. ونرتاح منك.. ويعود الحق لأصحابه.. فأنت كنت من البُخل والغباء لدرجة أنك لم ترفع قضية لتنفي نسبي لك.. واكتفيت بأن تُوصمني طِيلة عمري بـ «ابن الحرام».

انهار «أنور» باكياً بقوةٍ، وبدأت خفقات قلبه تتباطأ، ويشعر بالدوار وبصقيع يلف جسده من كل جانبٍ، وبأنه يودع آخر لحظاته من الدنيا، وككل المُسافرين الذين يتذكرون كل ما نَسَوه قبل انطلاق القطار مباشرةً، مرت أمام عينيه صورة زوجته الراحلة «زينب» بجمالها الهادئ وصوتها الدافئ وخجلِها منه وصبرها عليه، لم تكن تطلب منه سوى طعامٍ جيدٍ لابنِهما وحياةٍ عاديةٍ آدميةٍ لها.

نعم، لقد كان يحبُّها ولكن حبه لأمواله أكثر وهي بدأت تتدلل وتستنـزفُه بطلباتِها كما كان يقول له «صفوان» دائماً، ثم أنجبت طفلاً يُشبه خطيبها الأسبق وابن خالتِها، وعندما بدأ يتكلم بدأ يتلعثمُ مِثله وظل هكذا، وفي النهاية أرادت القضاء عليه بأن يدفع أموالاً لا آخرَ لها عند أطباء تأخر الكلام والنطق وما شابه.

كل تلك الذكريات مرت عليه في لحظات قليلة حتى سقطت يده بجوارِه مُستسلِماً لمصيره، وارتفعت مُقلتاه نحو عيني «حسن» المواجهتين له بسخريةٍ

مريرةٍ، وبدأ لسانه يتثاقل عن الحركة، فخرجت حروفه مُتعثرةً مُتبعثرةً كما كان يتكلم ولده سابقاً وهو يقول:

- عدم رفعي للقضية .. لم يكن بخلاً ولا غباءً.. يا ولدي.. صدقني.

خفَّ الضَّغط حول عنقِه فجأةً وبدأ الهواء يمر إلى رئتيه من جديدٍ، ولكن بصعوبةٍ والألَم يضرب صدره بشدةٍ وذراعيه، بينما شعر باقتراب «حسن» منه أكثر وسمع صوته يخترق أذنيه بفحيحٍ غريبٍ وهو يسأله وكأنه يريد الإجابة بالفعل:

- لماذا لم تحاول رفع قضية؟.. تكلّم.

أغمض «أنور» عينيه اللتين باتتا تدوران في سقف الغرفة وهو يشعر بروحه تنسحب شيئاً فشيئاً من أطراف جسدِه، بينما الدوار العنيف لا يفارق رأسه، هل سيقابل «زينب» بالفعل في العالَم الآخر؟، كيف سيواجهُها؟، هل مسموحٌ هناك بالاعتذار؟، هل كانت الدنيا تستحق ما فعله ؟!.

جاءه صوت «حسن» يسألُه بإصرارٍ أكبر مُكرراً ينتزعه من لحظات نزعه، فهمس باعترافٍ شحيحٍ مثله يواجه به نفسَه للمرة الأولى:

- أمك كانت تريد.. أن تعالجك بمبالغ طائلة.. وعندما رفضت وضربتها.. سرقتني.. وذهبت إلى ابن خالتها .. ليساعدها في علاجك.

دقيقةٌ كاملةٌ مرت في صمتٍ مُطبقٍ بعد أن انتهى « أنور» من اعترافه، بينما تتلاقى العيون لا يطرف لأحدهما جَفنٌ، يحدقان ببعضهما البعض في مواجهةٍ غير مُتكافئةٍ، بين الثأر والرجاء، فهل تكون مواجهة الأخطاء والاعتراف بها بصدقٍ، أفضل بكثيرٍ من الاعتذار الباهِت لمجرد القفز فوقها؟.

- أنت مُثير للشفقة.

قالَها «حسن» وهو يرفع يده عن «أنور» الذي شهق بقوةٍ وبدأ في نوبةِ سُعالٍ متقطعةٍ واضعاً يده فوق صدرِه بإعياءٍ شديدٍ.

اعتدل «حسن» بجذعه واقفاً مُكوراً قبضتيه بقوةٍ وهو يتابع بنظراتٍ جامدة حالة «أنور» وهو يهدأ قليلاً ويتنفس بعُمقٍ، فيعود ليسعل من جديدٍ، لا يعلم أيَّاً منهما يحتاج إلى التنفس بعُمقٍ، يحتاج أن يخرج من هنا على الفور، هو الذي يختنقُ وليس «أنور»، ثورةٌ عارمةٌ تتعارك بداخلِه، لماذا تركه ولم يقتله؟. لماذا أراد أن يعرف ؟ ما الداعي؟.. بل ما الفارق؟! .

وجد قدميه تتراجعان للخلف ويبتعد عن الفراش نحو باب الغرفة، وعيناه لا زالَتا مثبتتين على طريح الفراش وسُعاله المُتقطع الذي بدأ يهدأ وينتظم، رفع قبضته خلف ظهره مُعتصِراً مقبض الباب المعدني بقوةٍ، وعندما عادت عيناهما للمواجهة من جديدٍ، سأله «حسن» بهدوءٍ ظاهري:

- هل تعلم لماذا لم أقتلك يا « أنور» ؟.

تحركت عينا «أنور» باضطرابٍ، فقال «حسن» على الفور دون أن ينتظر إجابةً وقد صارت عيناه بلون الدم:

- لأنني لو فعلت.. فسأكون ابن حرام بحقٍّ، ولكني لست كذلك.

قالها وفتح الباب وفرَّ، فرَّ بكل ما تحمله الكلمة من مَعنى، برغم كل ما مر به، لا زالت آدميته تعافِر بداخلِه، لا زال يشعر أنه «والده» ، بعد كل ما مرَّ به، لا زالت أمه قابعةً في مكانٍ ما في قلب الوَحش المُظلم، تؤنبه وتدفعه نحو النور، يكاد يُقسِم أنه رآها منذ لحظاتٍ تقف بينه وبين والدِه وتنظر له بتحذيرٍ

«أنت لستَ ابن حرامٍ لتقتل أباك»، ضرب السيارة بغضب قبل أن يدفع جسده بداخلها بعنفٍ لا يعرفً كيف يوجهه؟، لقد نجا «أنور» بعد كل ما فعل لمجرد أنه والدُه، استطاعت «زينب» أن تنقذَه من بين يديه.

فهل ستنجح في إنقاذِ «غفران» ؟!.



جسدُها يئن وذهنها ينهار طلباً للنوم، جفناها يتوسلان السكوت بينما خوفها يصارعهم جميعاً ليبقيَها متيقظةً لكل صوتٍ أو حركةٍ تشعر بها من حولها، ماذا سيحدث؟.

سؤالٌ مُعلَّق بحبلٍ غليظٍ يخنقُها، لا يقتلها ولا يُبقيها على قيد الحياة.

لقد نهضت بحذرٍ بعد انصرافه وبدأت عيناها تتجولان في المكان أولاً قبل أن تسمح لقدميها بالتحركِ، خُطواتها ثقيلةٌ بسبب السلسلة الحديدية المُكبلة لإحدى قدميها، جرت عيناها على طول السلسال حتى توقفت عند الحلقةِ الحديدية المثبتة بطرف نهايتها في الحائط، ماذا يريد الجميع منها؟ لماذا يجب دائماً أن يُذيِّل إمضاؤها كشوف حسابات الآخرين؟.

منذ صغرِها وهي تدفع الحساب عنهم، يلومونها لكونها أنثى، يلومونها عن نظرات الرجال لها ثم يعاقبونها لطمع أخيها بها، وتُنفَى لدى خالتها ليعود هو إلى عرش المنزل مَلِكاً مُتوجاً كما كان، إلا أن الجارية ليست هنا لتلبي نزواته الدنيئة.

كُسِرَت ذراعها ثم قدمُها كالذين يسعون في الأرض فساداً لمجرد رغبتها في قول الحقيقة، خُطِبت لكهلٍ شحيحٍ ثمناً لسكوته، وأخيراً ها هي أسيرةٌ .. عنده، حتى هو ظلمَها وأجبرها على دفع الثمن، ولكن هذه المرة لا تعرف كم ستدفعُ ؟ وعن أيٍّ منهم ستدفع الثمن ؟ !.

جرت قدميها ببُطءٍ خارج الجُدران الضيقة إلى جدرانٍ أخرى أكثر سَعةً، نظرت بفضولٍ حولها، الجُدران في الخارج مَطليةٌ بنفس اللون، لا نوافذ على الإطلاق سوى واحدة مرتفعة حتى قاربَت السقف كما هو الحال في غرفتها، يبدو أنه مخزنٌ مهجورٌ، فالأرض مُغبرةٌ ببلاطٍ قديم تحفره نقاطٌ سوداء، كل هذه المساحة الواسعة فارغة تماماً سوى من مقعد عريض منجد بكسوة كانت حمراء في يوم ما، مجاورٍ للباب الكبير المواجِه لها مباشرةً إلا أنه بعيدٌ جداً مقارنةً بطولِ السلسلة الخانقة لقدميها، الباب حديدي عريض جداً يكفي لمرور سيارةٍ من خلاله.

هل كل هذه الاحتياطات والتحصينات من أجلها ؟ غير مهم كل هذا، لا أهمية له بجوار مصيرها المجهول الذي ينتظرها .

هل تخافُه بالفعل؟ سؤالٌ آخر ليس له إجابةٌ، الظاهر أنها أصبحت بيدقاً على رُقعةٍ في لُعبةٍ ما يديرها حبيبٌ سابقٌ إلا أنها لا تعلم متى سيبدأ استخدامها؟، وفي أي الاتجاهات سيتم الدفع بها، الحقيقة أن كل الطرق نهايتها مُشتعلةٌ وهي في الوسط تماماً.

حاجتها لاستخدام الحمام هي ما جعلتها تدير رأسها يميناً، لقد تم استبدال الستارة التي كانت تغطي باب الحمام ببابٍ خشبي صغير، يتسع قليلاً عن عُلبة الثقاب، ثلاثة جدرانٍ خشبية، والرابع جدار الغرفة التي تضمُّ سريرها.

مدت يدها لتفتح الباب أكثر لتستطيع المرور من خلاله ففتح الباب إلى الخارج فولِجت داخله بحذرٍ بينما صلصلة الحديد الرتيبة على الأرض تتبعُها وتذكرها بوضعها المرير، حاولت إغلاق الباب جيداً، ودارت نصف دورة حول نفسها لتواجه المرآة الصغيرة جداً المعلقة بمسمار فوق حوض الغسيل الأكبر منها قليلاً.

هل رؤية الكدمات تجلب ألم الشعور بها ؟، تورم بسيط بجانب عينها اليسرى تحول إلى اللون الأزرق الداكن جعلها تتألم حتى قبل أن ترفع إصبعها وتضغطه بتفحص، شعرها مشعثٌ حول وجهها ووضعه مُزرٍ جداً .. هل رآها هكذا؟، لا بد أنه اكتشف الخصلات المموجة والأطراف المتقصفة ..

أنت مجنونة بالتأكيد، هل هذا وقت تقييم المظهر؟، ماذا سيفيدك إن كان شعرك أملسَ بينما هو يقتلك، الأنثى هي الأنثى .. حتى وإن كانت في ساحة الحرب ربما لا تخشى أن تُقصف بمدفعية بقدر ما تخشى أن يسوء مظهرها أمام من تحب .. وإن كان من الأعداء !.



عندما عاد إليها كان في عنفوان ثورته محملاً بكل الإخفاقات، لم يقتله كما أراد وكما خطط واستعد منذ أيام، ترك عنقه بإرادته، تركه يتنفس الحياة من جديد، فشل في مهمته الثانية، أول فشل يواجهه منذ أن تغير، وأصبح شخصاً آخر لا يرحم ولا يريد أن يرحم أحداً على الإطلاق.

أراد أن ينفث نار الهزيمة الأولى فوق رأسها هي، أخت «رمزي» هي المتاحة أمامه الآن كعرض مجاني؛ فلقد نفَّض كل الأماكن التي يرتادها أخوها ولم يجده.

حاول الحصول على أيّ معلومة تفيد بمكان مخبئه ولم ينجح، لم يرَه أحد من أصدقائه منذ فترة ليست بالقصيرة، حتى والده يبحث عنه ويتساءل .. هكذا أخبروه صادقين بإرادتهم أو رغماً عنهم .. صديقاه اللذان شهدا زوراً ضده في القضية.

قالا كل ما لديهما من أخبار عنه منذ أن خرج غير مدانٍ من القضية وعاد إليهما منتصراً، بينما دماء «سلمى» المسكينة لا زالت تقطر من يديه، عاد إليهما بضمير منعدم أكثر مما كان، يريد أن يفترس الجميع وقد تأكد أنه لا رادع له .. والبركة في أبيه وهذا القانون المليء بالثغرات، مبارِكاً خطوبة الصغيرة على الكهل.

بمجرد الإفراج عنه أخذه والده عند أحد أقربائه في محافظة أخرى؛ ليخفيه عن الأعين لفترة، وبعد أن أنهى كل اتفاقاته المُخزية أعاده من جديد

لأحضانه، يتمتع بوجود ولده الذَّكَر الوحيد أمام عينيه حراً طليقاً ولا يهمُّ أي شيء بعد ذلك ولا حتى أن يحترق العالم بأكمله.

عاد «رمزي» لشقاوته المعهودة وأدواره التمثيلية البارعة التي يحصل بها على ما يريده، ينتقل من عمل لآخر يسحب الأموال من والده متوغلاً أكثر في عالم المخدرات ويتجرأ أكثر على الفتيات، أو بمعنى أدق كل ما هو أنثى وبكل الطرق المقززة.



كانت تفترش جزءاً من غطاء السرير على الأرض المغبرة تتخذه موضعاً للصلاة، وبينما هي مستغرقةٌ في صلاتها استمعت إلى صرير الباب الخارجي يُفتح فجأة بقوة فانتفض جسدها أثناء السجود، ولكنها تابعت معتدلة إلى وضع الجلوس وعندما وقفت لتكبر دمعت عيناها رهبةً وخوفاً بينما قلبها يناجي ربها؛ ليخلصها مما هي فيه.

فتح باب غرفتها بعنف أرعبها، وجعلها رغماً عنها تشهق، وتختض فزعة وتستدير نحوه بجسدها بالكامل وقد قطعت صلاتها، عندما وقعت عيناها عليه عادت بظهرها إلى الزاوية بين الجدار وأحد أعمدة السرير واضعة كفها على صدرها وقد شعرت بخافقها يتقافز بين ضلوعها بهيئته التي اقتحم بها الغرفة، وقف ينظر إليها للحظاتٍ محاولاً استيعاب ما كانت تفعله قبل اقتحامه للغرفة، إحدى كفيه كانت تعتصر مقبض الباب بينما الأخرى منبسطة عن آخرها وأصابعها متباعدة بتشنج وكأنه يستعدّ لصفعها، أنفاسه متسارعة يناظرها بانتقام يريده.

أخيراً استطاع استيعاب أنها كانت تصلي وقد لفَّتْ حجابها بإتقان حول رأسها، وجزءٌ من الملاءة متدلٍّ على الأرض بغير ترتيب.

هل تتصور مثلاً أنها تستجلب عطفه بتلك الطريقة؟!، اندفع نحوها بهياج جالساً القرفصاء أمامها، بينما كفه المتشنجة ترتفع لتقبض على رقبتها لتخنقها، وقد توهجت الشراسة في ملامحه كلها وليس فى عينيه فقط وهو يهدر بعنف.

- أين هو؟ أين خبأتموه؟.

شحب وجهها، بينما لا تستطيع التنفس والطنين يزداد جلبته ارتفاعاً في أذنيها، عيناها جاحظتان، والشهقات لا تتوقف وهو يكرر سؤاله بعنفٍ أكبر بينما يضغط حلقها بأصابعه.

- كيف استطعتم أن تخفوه بهذه البساطة وكأنه تبخَّر؟ انطقي.. أين هو؟.

بدأ الدوار يهاجمها ويداها اللتان كانتْ قابضةً بهما على رسغه في محاولة منها لإبعاد كفه عن حلقها تتراخيان، واللون الأزرق يزحف على شفتيها ببطء وقد سلمت أنها قتيلته لا محالة، ضعفت شهقاتها المترجية للهواء وخارت قوتها، وفي لحظة تركها دافعاً إياها جانباً .. بدأت تسعُل بقوة ممسكة بحلقها وهي لا تصدق دفعة الهواء التي جرت إلى رئتيها بغتةً؛ لتعيدها إلى الحياة من جديد.

لكنه لم يرحمَها .. القسوة تغلف قلبه ببرودة لا تجعله يفرق بين بريء ومتهم، أو ظالم ومظلوم، الجميع عنده الآن شركاء فيما حدث له إن لم يكن بالفعل، فبالسكوت.

- ستظلين معي هنا حتى يخرج الفأر من مخبئه ليجدكِ.

وعلى طريقة الزهرة التي نبتت بين الصخور ابتسمت ابتسامة ضعيفة وساخرة على طرف شفتيها اللتين استعادتا احمرارهما الطبيعي، تلك الابتسامة التي أغضبته معتقداً أنها تسخر منه وهي في تلك الحالة المُزرية، قبض على كتفيها وأوقفها عنوةً على قدميها مثبتاً عينيه على وجهها الذي انسحبت منه الدماء مجدداً، وهو يهمس بغلٍ واضح :

- أتسخرين مني ؟!

سريعاً حركت رأسها نفياً قبل أن يتهور قائلة:

- لا، لا.. أبداً .. لم أقصد ذلك.

ضغط كتفيها بقوة أكبر جعلها تتألم مغمضةً عينيها، وهو يتساءل بنبرة مهددة مرسلاً إليها أنفاسه المشتعلة تحرق وجهها:

- لماذا ابتسمتِ إذن ؟.

بلا إرادة منها رفعت كفيها لتدفعه للابتعاد عنها، ولكنها افتقدت القوة لذلك فاستقرتا على صدره مرتعشتين وهي تفصح بنبرةٍ متألمة:

- أنت لا تفهم .. أنا لا أساوي شيئاً لديهم.. رمزي لن يظهر أبداً.. ولا يهمه سلامتي في شيء من الأساس حتى ولو هددتهم بقتلي.. والدي لن يستجيب إلى أيِّ تهديد قد يؤذي ولده الغالي حتى ولو كنتُ أنا الضحية.. سيبلغ الشرطة ويغامر بحياتي فداءً له.

الخوف في حديثها كان ممتزجاً بمرارةٍ ذابحةٍ، كانت قد اعتقدت بأنها اعتادت على ذلك الشعور ولكن ما دام المنبع يفيض فتظل الانكسارات القديمة تنضح بصديدها في مناسبات مشابهة تصب جميعها نحو الهزيمة الأولى دائماً، فالهزيمة الأولى هي المنبع الذي لا ينضب أبداً، إنه أصل كل الخيبات والهزائم، ولولاه ما كنا هنا الآن نعاني من تبعاته.

لا تعلم «غفران» متى ابتعد عنها تحديداً؟، كل ما وجدته عندما عادت بذهنها المشوش إليه أنه كان يخطو إلى الخلف وقد طغى التوتر فوق ملامحه وكأنه يعيد حساباته من جديد وهو يقول بحيرةٍ حقيقية:

- لماذا ؟.

غلالة سوداء من الدموع غطت حدقتيها، وهي ترفع كتفيها المتألمتين وتخفضهما بحيرة أكبر من حيرته:

- لا أعرف .. هكذا !!

الدموع التي هطلت على وجنتيها كالمطر، وانكسار روحها أمامه وهي تحكي عن نبذ عائلتها لها، ذكَّرته بماضيه، بشخص كان يعاني نفس المعاناة ولا يعرف أيضاً .. لماذا؟ .. مثلها تماماً.

لم يُلقِ عليها حتى نظرة أخيرة، خرج على الفور مغلقاً الباب خلفه، لا وقت للتعاطف والمقارنات، لو كان كلامها صحيحاً، فستكون كارثة، كل خططه ستنقلب رأساً على عقب وسيكون قد احتجزها دون فائدة.

ولكن مهلاً .. لن يستسلم هكذا سريعاً، سيستنزف والدها لآخر رمقٍ وبكل وسيلة ممكنة، إن لم يكن التهديد بالقتل يؤتي نفعاً فهناك تهديدات أخرى ستكون مثمرةً .

عادت إليه روح العناد والقتال مجدداً، وقد اختفى تعاطفه معها تماماً، لا مكان للضعفاء، فتح بابها مرة أخرى ووقف مستنداً إلى حافته يبادلها النظر بينما هي متصلبة كالتمثال لا يتحرك فيها سوى دموع عينيها المنهمرة فقط، وبعد مرور لحظات من الصمت، قال بصوت آمر جمد الدماء في عروقها:

- اخلعي حجابكِ.



رد شرف

- لقد قُتلا بنفس الطريقة تقريباً.

نطق بها «عاصم» وهو يمرر عينيه فوق الصور الملتقطة لجثتيهما، شاهين وسيد، المتَّهَمَيْن سابقاً بقتل الطفل الصغير ثم الاعتداء عليه، تلك القضية التي لم ينسها عاصم أبداً، لم ينسَ الحاجة «جليلة» المرأة الصعيدية ذات الشكيمة والسلسال الحديدي الغامض الذي يلف رقبتها، وعبارتها التي لم يُلقِ لها بالاً وقتها، ولكنها الآن تصرخ وتتقافز في ذاكرته:

- السلسال الحديدي عادة قديمة يا حضرة الضابط.. لا نخلعه حتى ترتاح روح قتيلنا في قبره.

ضيق عينيه بتركيز فوق الخنق الواضح حول رقبتيهما، بينما مأمور السجن يقف بجواره محاولاً سماع ما يهمس به.

لقد استدعاه بشكل غير رسمي؛ لأنَّه قد قام بالتحقيق مع القتيلين من قبل وقد يساعده في بعض المعلومات خصوصاً أن الجاني لم يترك خلفه أيّ أثر أو دليل يدلان على شخصيته، ولا يوجد لديه سوى أقوال السجين الذي عثر على جثتيهما في حمامات السجن.

الأمر كله مستحيل، الجميع ينكر رؤية أو معرفة أي شيء، المشاهدات الأخيرة لهما متطابقة وكلها تدور حول نفس اللقطة، شاهدهما الجميع يتوجهان إلى الحمام بخطوات سريعة وكأنهما يتسابقان في الوقت القليل المتبقي قبل موعد عودتهما إلى العنابر مرة أخرى، وبطريقة أو بأخرى لم يكن الحمام مزدحماً كعادته وكأن الأمر قد أُعدّ لتلك الجريمة.

- لقد تم خنقهما بسلسلة من معدن صلب.. بعد ضرب مبرح على رأسيهما بعنف شديد وأن القاتل شخص واحد كما رجح تقرير الطب الشرعي.

كان «عاصم» ما زال يتفحص صور الجثتين حتى سقطت عيناه على الصورة الأخيرة التي تم التقاطها لكلمتين تم نقشهما بآلة رفيعة حادة على ظهريهما بدمائهما .. «رد شرف»!

بينما مأمور السجن يتحدث بتفاصيل تتجسد أمام عيني «عاصم» ويراها رأي العين كمَن كان حاضراً في نفس اللحظة التي وقعت فيها، يراهما يندفعان تجاه الحمامات الضيقة بالداخل ثم يتراجعان بقوة إلى الخلف على إثر ضربة شديدة تلقياها تباعاً في وجهيهما، ثم تبعتها ضربات متتالية حتى تم إنهاكهما تماماً، وسقط سيد فاقداً لوعيه مما أتاح للقاتل فرصة أن يجهز على شاهين مبتدئاً به، وعندما انتهى من خنق كليهما أمسك بسكين حادةٍ ونقش الكلمتين على جسديهما.

الأمر ليس انتقاماً فقط، هناك رسالة يتم بثها إلى مَن يهمه الأمر.. أو من تراوده نفسه ليفعل ما فعلاه سابقاً؟! .

- هل كانت لهما عداوات مع أحد من المساجين هنا؟.

شبَّك مأمور السجن أصابع كفيه خلف ظهره وهو يسير ببطء بجوار «عاصم» مفكراً قائلاً ببديهية:

– الجميع لديه عداوات هنا يا عاصم.. وأنت تعلم ذلك جيدًا.. وعلى الرغم من ذلك لم يمنحني التحقيق اسماً لشخص واحد أستطيع أن أتهمه بقتلهما... لذلك سأصارحك بأمر غريب يخطر على بالي بقوة.. مجرد خاطر لا أعلم مصدره.. أشك أن لأحد الضباط هنا يداً في الموضوع.. فالتكتم الذي أراه بعيني في أقوال السجناء يوحي بسلطة ما عليهم.

رفع «عاصم» عينيه فجأةً عن الصور، متأملاً بتوتر التجهم الواضح الذي أصبح جزءاً أصيلاً من ملامح وجه مأمور السجن المعروف عنه الذكاء والفطنة منذ سنوات ولم يحدث في عهده مثل تلك الجرائم وتمر دون حلٍّ.

كان لابد من أن يتصرف «عاصم» بسرعة ليصرف ذهن المأمور عن تلك الخاطرة الخطِرة، فقال سريعاً:

– أعلم أنني لست جهة التحقيق.. ولكن أريد أن أقابل المساجين الذين أدلوا بأقوالهم بنفسي.. فلربما نعثر على شيء ما قد يفيدنا.

أومأ مأمور السجن برأسه موافقاً بالرغم من التوتر الذي لاحظه على وجه «عاصم» بطريقة مثيرة للشك، ولكنه صرفه عن ذهنه قبل أن يكتمل؛ فأساساً هو مَن اتصل به بدايةً من أجل الحصول على تعاون مثمر، مجرد محاولة أخيرة قبل غلق القضية وتقييدها ضد مجهول كما يحدث دائماً في عالم السجون الذي يشبه كثيراً العالم الخارجي.

رئيس وتابعون لا يملكون من أمرهم شيئاً ولا يقدرون على قول (لا) وضعفاء يقدمون فروض الطاعة والولاء لا لشيء إلا لفرصة الحصول على حياة أيا كانت طبيعتها، المهم أن تكون حياة لا أكثر ولا أقل .



في بيت «حافظ رمزي» وعلى الأريكة الضخمة التي تحتل أقل من نصف الصالة تقريباً تجلس الخالة العجوز مستندة بكفيها إلى عكازها المواجه لها تماماً وعلى وجهها خليط من العصبية والتأفُّف وقليل من القلق، لماذا يدفعون بها دائماً إلى حِمَمِهم المشتعلة؟، ألا يكفي فتاتهم البائسة التي ألقوا بها في بيتها بحجة خدمتها متحملة حالات بكائها المتواصلة والتعاسة الملازمة لملامح وجهها منذ أن خطت أولى خطواتها لباب بيتها كشريكة سكن بشكل مؤقت؟.

ابتسامة ساخرة تركت طرف شفتيها تبعها التواءٌ كبيرٌ فيهما وهي تمُصمصهما بِسَخط وتكرر هامسة بعدم رضا «بشكل مؤقت» .

هذا ما أقسمتْ به أختها الصغرى وهي تجثو أمامها على ركبتيها منذ ثلاث سنوات بينما الدموع تغرق وجهها ترجوها أن تقبل «غفران» ضيفة عندها مؤقتاً حتى يوافق «رمزي» على العودة إلى المنزل مرة أخرى فوالده سَيُجَنّ وهو يراه يعمل صبي ميكانيكي في الورشة الكائنة بطرف الحي مفضلاً إياها على العودة لبيته، إنها تخشى على ولدها وفي نفس الوقت لن تقوم بإلقاء ابنتها في الطريق من أجله، فكان الحل الوحيد الذي اتفقتْ عليه مع زوجها أن تخرج «غفران» لمدة يسيرة من المنزل حتى تهدأ الأمور تماماً ثم تعود بعد ذلك، بقِيَ فقط موافقة الخالة المشهورة بعنادها المتزايد كلما كبرتْ في العمر، لقد زوَّجتْ كل بناتها وارتاحت من عبئهنَّ، فهل تفتح بيتها الآن لفتاة مراهقة تتهم أخاها بالتحرش بها ؟! ..

فتاة قليلة الأدب تستحق القتل لا الطرد فقط !!.

وقتها رفضت الخالة مراراً، ولكن أمّ «غفران» لم تيأس أبداً، جاءتها يوميًّاً تبكي تحت قدميها، تارةً تعدُها بأن «غفران» سيتم سحب أوراقها من المدرسة ولن يكون شغلها سوى خدمتها فقط، وتارةً أخرى تتعهد لها بأنهم سيتكفلون بطعامها وشرابها ولن تكلفها مِلِّيماً واحداً، أي أنها ستكون بمثابة خادمة بلا أجر ولا حتى بلقّمتها، مجرد غرفة وفراش فقط.

العرض كان مُغرياً جداً ولصالحها في كل الأحوال، وكان من الصعب عليها رفضه في هذه الحالة فوافقتْ أخيراً.

دخلت عليها «غفران» بحقيبةٍ صغيرةٍ ووجهٍ مظلم وروح محطَّمة، حرموها من استكمال دراستها مُلقِيَن بها في بيت خالَتِها العجوز لتعمل خادمة لديها، وكل ذلك ليعود إليهم فتاهم المدلَّل .. الذَّكر الوحيد في قفص الإناث .

حتى جاء اليوم الذى لم تعد فيه النفقات تكفي، فـ «رمزي» زُجَّ به في قضية قتل، يالهذه العائلة البائسة!، الكون كله اجتمع لينزع منهم وحيدهم وما زاد الطين بلَّة أن أخته المتآمرة تريد أن تذهب لتشهد ضده في تلك القضية التي لا تعلم عنها سوى محادثة جرَتْ بين والديها ليلاً، لقد وقفت متبجحة بأن «حسن» لا يمكن أن يفعل هذه الفعلة الشنعاء، ولكنها لم تستطع أن تكمل وقفتها فوالدها قد قام معها بالواجب وزيادة ونالتْ ما تستحقه، كسرٌ في إحدى قدميها ويدها اليمنى، وبالرغم من أنها كانت تستحق ولكن .. ياللمصيبة .. مَن سيخدمها الآن ؟

فاضطرَّت الأم أن تحضر إليهما يومياً وتقضي اليوم كله في خدمتهما ودموع عينيها لا تجف على تلك الحالة التي وصل إليها الجميع نادبةً حظَّها العَثِر.

وبعد أن مرَّت الأشهر الصعبة واكتمل شفاء «غفران» وعادت إلى رشدها، طلبتْ أن تخرج للعمل لتكسب قوتها بنفسها مخفِّفة العبء عن والدها، الغبية لا تريد أن تستفيد أبداً من خطبتها لرجلٍ عجوز على وشك الموت، صحيح أنه شحيحٌ ولكنه مقتدر يملك ورشة ومنزلاً من طابقين، يوماً ما سيموت ويؤول كل هذا لها، إلَّا أنها تصر على العمل حتى ولو كان في مصنع للملابس تحت السلم كما يقال، وتصر أن تقضي ليلتها باكيةً قبل أن تتهاوى متهالكة في النوم.

حتى جاء اليوم الذي لم تعد فيه «غفران» إلى المنزل واضطرتها إلى الخروج لتبليغ والديها بهذا الغياب المفاجئ وأن توقعاتها قد حدثت، فقد سبق ونبَّهَتْهما من قبل أن الفتاة حالها متغير مؤخَّراً، تارة تعود باكية وقد سُرقت نقودها، وتارة أخرى تعود ووجهها شاحب كالأموات.

بالتأكيد .. مسلسل الخطف هذا من إخراجها، ولكن ما ذنبها هي؟ .. هي العجوز الضعيف يزعجونها هكذا كلَّ يوم، يسألونها عن معلومات لا تعرفها عن الفتاة، إنَّها بالكاد تتذكر وجهها .

وبعد كل هذا تضطر إلى أن تأتي كل هذه المسافة؛ لأنَّ أختها الصغرى سقطت مريضةً بل والأدهى من ذلك أنَّها محمَّلة بأكياس الفاكهة، أختها الصغرى التي تجلس إليها في هذه اللحظة شاحبة كالأموات بينما زوجها قابضٌ على قطعة قماش بداخل يده ينظر إلى الفراغ بعينين متحجِّرتين نظرة تائهة لا يعلم ماذا يفعل؟، تلك القطعة التي كانت ترتديها «غفران» حول رأسها في آخر يوم رأتْها فيه.

أختها الصغرى التي نطقت أخيراً، وقد علا صوتها لمرة واحدة خلال عمرها الطويل مع زوجها، تصرخ في وجهه بانهيار:

- معنى هذا أنك كنت تعلم أنها مخطوفة ولم تفعل شيئاً.. ولم تخبرني أيضاً.. كنت تعلم أنها في خطر .. رد عليَّ يا أبا رمزي.

منذ أول كلمة نطقتْها صارخة به وهو ملتفتٌ نحوها بقسوةٍ، المرأة تجرأت عليه بعد كل هذا العمر وتصرخ أيضاً في وجهه وأمام أختها الكبرى الشمطاء، كان يضغط أضراسه بقوة محاولاً التَّماسك وعندما انتهَتْ من هتافها كان قد انتهى هو من إرسال نظراته المتوعدة إليها مشيراً لها أن تصمت وإلَّا فسيُخرسها إلى الأبد قائلاً بأنفاسٍ مشتعلةٍ:

- اخفضي صوتك يا امرأة .. كيف تتجرأين عليّ هكذا وأمام الناس؟ .. ابنتكِ سآتيكِ بها عاجلاً أو آجلاً، فلا أريد سماع كلمة أخرى.

ولكنّ المرأة كانت قد خرجت عن السيطرة تماماً عندما صدمها حديثه عبر الباب المفتوح نصفه مع «صفوان» منذ قليل دون أن يشعر بها خلفه تستمع إلى كل كلمة تُقال بينهما وهو يمدُّ يده بلِفافة صغيرة نحو «صفوان» قائلاً بنبرةٍ مهدِّدة:

- لقد وعدتني أن تجده يا صفوان ولم تفعل وها هي النتيجة .. أرسل إليّ حجاب ابنتي وهذا ليس له سوى معنى واحد ..

بينما «صفوان» يقاطعه بنبرةٍ هادئةٍ يشوبها بعض التوتر:

- اهدأ يا حافظ.. إنه يهددك فقط.. فلو كان يريد أذاها لفعلَ .. كل همهِ هو إيجاد رمزي وتهديده هذا يدل على أنه لم يجده حتى الآن وهي نقطة في صالحك.

- وابنتي ؟!

أتاها صوت «صفوان» وقد حلَّت السخرية مكان التوتر فيه، بينما ما زال محتفظاً بهدوئه:

- لقد نصحتكَ من البداية أن تُبَلِغ عن اختفائها ولكنك لم تفعل وخِفت من الفضيحة حتى زوجتك لم تخبرها.

- هل تريد أن يتكلم الناس عن شرفي وسمعتي يا صفوان؟ .. ألا تعلم ماذا يُقال عن الفتاة التي يتم خطفها حتى ولو لم يمسها سوء؟ .. إنك لا تساعد في شيء على الإطلاق يا صفوان.

قصف صوت «صفوان» أذنيها بنبرته الخشِنة الغاضبة وهو يقول:

- أنا لم أساعدك في شيء على الإطلاق يا حافظ!.. لقد بعثُ أنور من أجلك واتفقت معك ضد مصلحته، وتلاعبت بعقله فرضي بخطوبةٍ مزعومةٍ لثلاث سنوات كاملة.. هل نسيت كل هذا يا حافظ؟!

- أنت فعلت كل هذا لمصلحتكَ أنت يا صفوان.. أم نسيت أنت المقابل الذي طلبته مني بصفتي موظفاً في الشهر العقاري؟!.

عند هذه النقطة لم يعد في مقدرتها الوقوف على قدميها أو الشعور بأي شيء سوى بدقات قلبها المتسارعة والذهول التام ومن بعده سقوطها المدوي هاتفةً باسم ابنتها التي كانت تظن أنَّها هربت.

وعندما أفاقت شاهقةً تنادي على ابنتها «غفران» وجدت أختها العجوز بجانبها تحاول تهدئتها بنزق.

- الفتاة ستعود .. ستعود .. فهي بسبع أرواح.. فالفتيات لا يمتْنَ عادةً قبل أن يُهلكْنَ كلَّ عائلتهنَّ فرداً فرداً.

وهنا فقدَتْ والدة «غفران» سيطرتها على عقلها، وبدأت تهذي منادية على ابنتها بينما العجوز تغسل يدها من القضية برمَّتها وتخبرها بأن زوجها هو السبب؛ لأنَّه ترك لها الحبل على الغارب من البداية، والآن لا يريد أن يبلغ الشرطة حتى جاءه حجابها عند بابه مكتوباً فوقه بالشحم الأسود .... «غفران = رمزي»

فهم «حافظ» الرسالة وعلم أنَّ «حسن» يساومه على ابنته مقابل أن يأتي له بـ «رمزي» الذي اختفى منذ أيام وكأنه قد تبخر في الهواء.

مسحتِ الأم دموعها بعنفٍ جديدٍ عليها، ونهضت تواجهه غير عابئة بنظراته القاسية هاتفة:

- الفضيحة التي تخاف منها ستحدث لو لم تبلغ الشر .... .

ابتلعَتِ المتبقى من حروفها عندما قبض على رقبتها وهو يدفعها لتعود بعنفٍ جالسة على الأريكة يناظرها بشرٍّ محدق ، هامساً من بين أسنانه التي كادت أن تتحطم من قوة ضغطه عليها:

- واللّه .. إن لم تبتلعي لسانك يا امرأة.. فسأطلقكِ وأرمي بك إلى الطريق.. أو أقتلك وأدفنكِ هنا أمام أختك هذه.

اتسعت عينا الخالة باستنكار وهي تنهض واقفة ناظرة إليهما كالمجانين:

- كان يوماً لم تطلع له شمس.. اليوم الذي وافقت فيه على مكوث تلك البنت المشؤومة في بيتي.

ترك «حافظ» رقبة زوجته واعتدل واقفاً، بينما لا تزال نظراته تخنقها.

عدلت العجوز من وشاحها وهي تضرب بعصاها الأرض هاتفة بنفور:

- إنها غلطتي من البداية.. منذ متى وأنا أتدخل في مشاكلكم التي لا تنتهي.. لا أريد رؤية أحد منكم بعد الآن سواء وجدتموها أم لا؟..

وبدأت في التحرُّك بعصبية تُجاه الباب بينما جسدها الممتلئ يرتج من سرعة حركتها المنفعلة في سبيلها للخروج.

- يا عائلة المجانين .. تخافون من الفضيحة !! .. أنتم مفضوحون من الأساس.. يا ماشاء الله، مجرم ومخطوفة، ونِعمَ الخِلفَة.

صفعت الباب خلفها بقوة أزعجت زجاج النافذة، فانطفأ النور في عيني أم «غفران»، وبدا بياضهما كالحاً، لقد تركها آخر فرد في عائلتها معه مانحةً إياه كل الحق في تعذيبها، وهو لن يتوانى وقَبِلَ الهدية على الفور، التفت نحوها يعاين حالتها الرثَّة التي أصبحَتْ عليها في لحظات وقد تبدَّل حالها كله فجأةً، وطأطأت منكسرة وقد عادت إلى طبيعتها المستسلمة الخائفة، فانحنى يرتدي حذاءه قائلاً دون النظر إليها وكأنها حِلسٌ بالٍ:

- سأجد رمزي بأي طريقة.. وسنعمل أنا وهو وصفوان على إيقاع حسن في شر أعماله .. سنجده ونجدها كما وعدتكِ دون أن نفضح أنفسنا بأيدينا.

غادر وتركها كما فعل الجميع، غادر ببطءٍ وبساطة دون أن ينتظر منها أي جواب، كان يعلم أنها لن تنطق ببنت شفةٍ، وكيف تفعل وقد استخدم معها السلاح الذي يعمل دائماً وأبداً مع النساء؟ .. الطلاق!.



خمس درجات صعوداً على الدَرج، ثم مساحة مترين تقريباً كانت كافية؛ ليصل إلى الشقة المقصودة الكائنة في الطابق الأرضي، لا زال الباب كئيباً بلونه الأسود، حتى الباب يرفض أن ينهي فترة الحداد على الطفل الذي لم يكن يوماً طفلاً، إلا أن إصّيص النباتات الرخيص قد عاد ينبت من جديد بجوار الباب كحارس شخصي قد استيقظ فجأة من سُباته، لقد كان يذكره منذ ما يقارب ثلاث سنوات عندما حضر بنفسه إليها قبل أن يتم إلقاء القبض على «شاهين وسيد» قاتلَيْ ولدها، لقد كانت النباتات بداخل الحوض جافة وميتة على الأطراف متساقطة كضحايا حرب، يبدو أن السيدة «جليلة» عادت تهتم به من جديد وترعاه، ربما يكون هذا مؤشراً جيداً؛ لتحسن حالتها النفسية في هذه الآونة ، هل رضيت بالقدر، أم ...؟

وقبل أن تستكمل أفكاره دورتها الكاملة بداخل عقله فُتح الباب وأطلت منه سيدة يذكر «عاصم» أنه قد رآها من قبل، ولكنه لا يذكر أين ومتى على وجه التحديد؟، يبدو أنها صديقة السيدة «جليلة» وأنه قد رآها بصُحبتها أثناء التحقيق في الحادث.

اتسعت عينا المرأة متفاجئة بتوقُّفه أمام الشقة دون أن يطرق الباب قبل أن تتنحنح خافضة رأسها لتعبر بجواره بصمت، تابعها بعينيه حتى خرجت من باب البِناية بخطوات متعجلة.

- أهلًا بك يا ولدي.. تفضل .

أعاد «عاصم» رأسه إلى الأمام مرة أخرى مستمعاً إلى صوت «جليلة» الحاني مرحِّباً به وتدعوه للدخول.

- كيف هي صحتك يا حاجة؟.

قالها «عاصم» وهو يمر إلى الداخل بابتسامته الاعتيادية التي تشبه عبارته التي ألقاها للتوِّ، وقد عادت أفكاره إلى التحرك من جديد في نفس المسار، لم يَفُتهُ الوشاح الأبيض الناصع الملتفّ حول رأسها والراحة الململة بملامحها وابتسامتها الرائقة، كما لاحظ تلك النظرة .. نظرة من تتوقع قدومه، غامضة وغير متفاجئة بالمرَّة.

- سأعد لك فنجاناً من القهوة حالاً.

- انتظري يا حاجة جليلة.

استدارتْ إليه عندما أشار لها أن تتوقَّف ورفعت نظراتها نحوه وبنفس الهيبة التي يعرفها عنها إلَّا أنها كانت مختلطة بالثقة أكثر، تركها متجهاً نحو آخر مقعد بأسفل النافذة الموصودة دائماً، والمواجهة للباب وجلس مشيراً إليها أن تأتي لتجلس في المقعد المجاور له، وبتركيزٍ شديدٍ في كل ردّة فعل تصدر عنها مال للأمام مستنداً إلى ركبتيه فوق المقعد الخشبي العتيق ملاصقاً أصابع كفيه بعضهم ببعض، وهو ينصت لحركاتها البطيئة حتى وصلتْ للمقعد المجاور له، لم يسمع الصليل الذي كان يسمعه من قبل عندما تتحرك، دائرة أفكاره اشتدَّتْ في الدوران وهو يعرف أنه لم يعد يملك سلطة التحقيق معها الآن، وفي نفس الوقت لم يَبُحْ بشكوكه تلك لجهات التحقيق المسؤولة، رغبة منه في عدم زجٍّ اسمها في القضية! .

شعوراً داخليّاً سيطر عليه يخبره أنه على صواب إلى درجة كبيرة فيما يفعله وهذا يكفي لإراحة ضميره، والمرأة يكفيها ما عانته بعد فقد ولدها الوحيد.

يبدو أنه سكتَ زيادة عن اللازم، التقطَتْ أذناه نحنحة المرأة بجواره وهي تتململ فوق مقعدها وكأنه تحثه على بدء الحديث.

- خير يا ولدي ؟!

اعتدل في جلسته تاركاً إحدى يدَيْه ترتكز إلى فخذه، بينما الأخرى يشير بها إليها وهو يتحدث كعادته مائلاً قليلاً تجاهها مراقباً كلَّ خلجاتها اللإرادية وهو يقول:

- شاهين وسيد تم قتلهما بداخل السجن.

كما توقع تماماً .. لم يبدُ عليها أيّ دهشة أو تأثر بسماعها لذلك الخبر، قامت بفتح كفيها الساكنتين في حِجرها بلا مبالاة، ثمَّ قالت وهي ترفع عينيها قليلاً لسقف الغرفة وكأنها تناظر السماء:

- أمر الله ولا رادَّ لأمره .

- إذنْ فقد كنتِ على علم بالخبر.

جاء دورها لتثبت نظراتها في عينيه قائلة ببديهية :

- إننا نسكن نفس الحي كما تعلم.

- أين السلسلة الحديدية التي كنتِ ترتدينها يا حاجة جليلة؟.

ردَّة فعلها جاءتْ هادئة مثل ملامحها تماماً وهي تجيبه :

- تخلَّصتُ منها؛ فقد آلمتني كثيراً .

رفع «عاصم» إحدى حاجبيه مندهشاً لصراحتها الغامضة تلك التي تغلفها متسائلاً:

- وأين هي الآن ؟.

- نظَّفْتُ البيت منذ أيام وتخلصتُ منها مع الأشياء التي لم أعد في حاجة إليها.

حرّك رأسه بإيماءةٍ غامضةٍ وقد وصله المعنى المُبطن لحديثها:

- هل لديكِ فكرة كيف تمَّ قتلهما ؟.

رفعت يديها عن حجرها عاقدة ذراعيها أمام صدرها بدفاعية مستديرة تنظر إلى الإطار الكبير المعلَّق على الجدار الذي يضم صورة طفلها الفقيد صامتةً للحظاتٍ قبل أن تظفر براحةٍ، ويطغى الامتنان على نظراتها الراضية ثم عادت ورفعت عينيها للأعلى من جديدٍ وكأنها تناجي ربها:

- اللّه عَدْل يا عاصم بيه.. ويحبُّ العدل.

ثم أردفت وهي تنظر إليه بثقة وقوة مجدَّداً:

- وأنا وولدي .. وأنت .. لم نكن نريد سوى العدل .. العدل يُطَيِّب الخاطر وتلتئم به الجروح يا حضرة الضابط.

- وهل أنتِ مرتاحة الآن ؟.

تنفسَّتْ بعمقٍ وبراحةٍ كبيرةٍ قائلةً:

- كما ترى !

التفت إليها بكلِّيَّته متسائلاً وهو خير من يعرف الإجابة:

- وإذا اعتقد البعض بأنَّ لكِ علاقةً بالأمر؟.

نصف ابتسامة حامَتْ فوق ملامحها سوى أنَّ عينيها لا زالتا ثابتتين صريحتين وقويتين، وأجابَتْ باختصارٍ ساخرٍ:

- هل هذا اتهامٌ رسميّ ؟.

أطرق برأسه لثوانٍ وكأنه يفكر، إلَّا أنه لم يكن كذلك بالفعل، الأمر محسومٌ لديه، كثيراً ما كانت حالات الثأر تثير فضوله، حائراً هو في القوة التي تتملك من المظلوم وتحوله إلى قاتلٍ، ليس هو وحده.. بل ومَن يتعاطفون معه أيضاً.. مثله تماماً! :

- لم آتِ هنا لاتهامك بشيءٍ يا حاجة جليلة ..

من الجيد أنها لم تسأله لماذا أتى من الأساس؟، فهو نفسه لا يعرف لماذا؟!، جزءٌ ما بداخله يخبره بأنه جاءها بالبشرى فقط ليس إلا، وكل ما قام بالحديث عنه منذ أن وطأت قدمه بيتها لم يكن سوى هراء.

عادت لترسل إطلاق زفرة رائقة، وهي تنهض واقفة كعلامة لرغبتها في إنهاء المقابلة وهذا الحديث الصريح الغامض في آنٍ واحدٍ:

- أنا امرأة عجوز يا حضرة الضابط .. بالكاد أنظف بيتي .. المرة الوحيدة التي رأيتُ فيها قتيلاً كان ....

تركت عبارتها معلَّقةً فجأة تدافع دمعة حارقة غلبتها للحظة، ثم التفتتْ نحوه وقد تحجَّرتْ مقلتاها تكويهما الدمعة بحرقتها؛ لتحررها تاركة إياها منسدلة على وجنتيها، مستكملة برعشة قد ألَمَّتْ بنبرتها رغماً عنها:

- كان ولدي.



أربع خُطوات كانت كافية ليعبر بها الحدود الوهميَّة بين صالة الاستقبال معقل التلفاز وبين غرفة الطعام، فصهباؤه قد هدَمت الجدار الذي يفصل بين الغرفتين، كما فعلت من قبل مع النصف العلوي من جدار المطبخ، إنها تحب الاتساع والمرونة، بداية من الجدران ونهاية بالقوانين الجامدة من وجهة نظرها.

كانت أوراقها تفترش الطاولة الكبيرة المستديرة، وجِذعها مُنحنٍ فوقها منهمكة في الكتابة، لا بد أنه تحقيق جديد، الطاولة الآن تُذكِّره بمكتبه الخشبي بداخل حجرته في القسم، أوراق وصور لجثة في أوضاع مختلفة:

- جئنا لوجع الدماغ .. استر يارب!

- «عاصم» !!

قالتها «أروى» متأفِّفةً وهي تترك القلم يسقط من يدها بإرهاقٍ بعد يوم عملٍ طويلٍ شاقٍّ، لقد باغتها وهي مندمجةٌ في كتابة التحقيق وقد أوشكتْ على نهايته، لا زال أمامها أن تقوم بإعادة كتابته على حاسوبها المحمول وإرساله للمراجعة والموافقة من قِبل رئيس القسم ثم رئيس التحرير قبل النشر.

- أرجو أن تكون قد أحضرتَ طعام العشاء معك ولم تنسَ ما طلبته منكَ في الهاتف.

أشار بيده نحو الطاولة الصغيرة المرتفعة الساكنة أمام الباب وكانت إشارته كافيةً بالنسبة لها، الحمد لله فهو لم يجادلها كالعادة عندما تطلب منه إحضار عشاءٍ جاهزٍ من الخارج؛ نظراً لإرهاقها الشديد في العمل، كل مرة ينتظرها حتى تنتهي ثم يقول جملته الشهيرة «اتركي عملكِ ما دمت تشتكين منه، فنحن لسنا في حاجة إليه» ، يبدو أنه هو نفسه قد فقد الأمل فيها فلم يقلْها هذه المرة عبر الهاتف، أو .. ربما قرر أن يقولها وجهاً لوجه أفضل؟

– بالتأكيد، سيفعل !.

همستها «أروى» تجيب أفكارها بنفسها، فربَتَ «عاصم» على ذراعها وهو ينظر نحوها بشفقة ساخرة ويقول:

– هل تتحدثين إلى نفسكِ هذه الأيام؟ .. مَن هذا الذي سيفعل؟.

أعادت خصلات مبعثرة على جانبي وجهها خلف أُذنيها ثم تعود بكفيها لتمسح وجهها، ربما تُزيل آثار الإرهاق البادية عليه قائلة ريثما تمرُّ بجواره في اتجاه الأكياس المتكدِّسة فوق الطاولة:

– دقيقة.. وسيكون كلُّ شيء جاهزاً.

شيعها بنظراته للحظات قبل أن يعود برأسه إلى نسخ مُصورة من صور الجثة وكذلك الأوراق، مدَّ يده ليشاهدها عن قرب بتمعُّن، جثة لرجل مُلقَى على وجهه فوق سرير للكشف الطبي وعارٍ تماماً، وقد نُقش بخطوط دامية فوق ظهره جملة انتقامية ضيق لها «عاصم» عينيه وهو يحاول قراءتها جيداً.

– «ردّ شرف» !

التفت «عاصم» نحو «أروى» التي ألقت عليه الجملة من بعيد بصوت مسموع ثم اتجه نحوها وهو يسير خلفها نحو المطبخ مُكرراً الكلمتين بهمس، وقد وصلت دهشته للحد الأقصى وتساءل باهتمام ظهر جليًّاً في نبرة صوته الجدية:

- ما قصة هذه الجريمة؟.

- أخيراً.. حصل شيء ما أفعله على اهتمامك؟!

- أنجزي يا «أروى».

قالها بنبرة آمرة اعتاد الحديث بها مع الجميع، فابتسمت وهي تحرك رأسها بيأس من عادته تلك وهي تقوم بإفراغ الطعام في الأطباق قائلة:

- طبيب أمراض نساء.. وصديق شخصي لابن أحد عمالقة الاستثمار في الدولة .. وجدوه مقتولاً في عيادته الخاصة .. ممرضته هي مَن اكتشفت جثته مساء اليوم التالي.. ووجدوا هذه العبارة مكتوبة على ظهره باستعمال أداة طبية حادة .

- وماهي نتيجة التحقيقات؟.

- الحادثة وقعت منذ وقت قريب.. وقد كان هناك تعتيم كامل حتى خرج تقرير الطب الشرعي اليوم فقط .. القاتل مثَّل بالقتيل قبل أن يقضي عليه تماماً.. ثم قام بإكفائه على وجهه وكتابة هذه العبارة على ظهره مستعملاً مبضع القتيل الذي يستخدمه في عمله .. ولا توجد أيّ بصمات غريبة في المكان .

قالت تعليقها الأخير بتفكير وهي تضع الطبق الأخير الذي تم تجهيزه أمامه وجلست على المقعد المرتفع المجاور له، ثم تلتفت إليه؛ لتتابع انفعالاته المتتابعة البادية على وجهه وهو يُكمل طريقته الاستجوابية لها بينما يضع أول قطعة لحم مشوية في فمه قائلاً:

- كيف تم التمثيل به .. وكيف لم يستغثْ؟!

زمت شفتيها بتفكير وببعض الارتباك وهي تُضيف إلى نتائج التحقيقات حتى هذه اللحظة رأيها الشخصي:

- لا أعلم .. يبدو أنها إحدى جرائم الشرف .. فقد تم حزّ عضوٍ مُهمٍّ جداً من جسده وفصله تماماً ثم تركه ينزف حتى الموت .. من الواضح أن القاتل كان يملك متسعاً من الوقت!

كاد «عاصم» أن يختنق بقطعة اللحم فضربته «أروى» على ظهره بقوة، أبعد قبضتها بنزق مستاءً، وباليد الأخرى يتناول الكوب، ويدفع بكمية كبيرة من المياه إلى فمه.

قطعة اللحم الحبيسة كانت تؤلمه، وهي تتحرك للأسف ببطء وهو يحاول ابتلاعها أكثر من ألمها وهي متوقفة هناك، احتقن وجهه بصورة كبيرة وسعل عدة مرات وهو يستند إلى طاولة المطبخ المرتفعة قائلاً لها بتحشرج:

- قُلتُ لكِ مليون مرة: لا أُحبُّ هذه الطريقة.. بعض الماء وكفى.

أخفت ابتسامتها المُشاكسة وهي تتظاهر بالانشغال بتناول الطعام وهي تقول ببراءة مزيفة:

- آسفة حبيبي.

هي تعرف أنه لا يحب طريقتها في التظاهر بإنقاذ حياته، بينما هي في الحقيقة تضع في قبضتها كل غيظها منه ومن أسلوبه في التقليل من قدراتها، أو ربما الهدفان يجتمعان في اللحظة التي تتوقف لُقمة ما في حلقه، مساعدته وضربه انتقاماً في نفس الوقت.

تابع تناول طعامه بهدوء ظاهري، بينما عقله يدور حول نفس الكلمتين، لا علاقة على الإطلاق من الممكن أن تربط بين الجريمتين، لا بد أن يحصل على تفاصيل أكثر من جهة التحقيق مباشرة.

- ألا تلاحظ معي يا عاصم.. أن ارتكاب الجرائم بهدف الانتقام قد زاد هذه الآونة؟!

حرك رأسه موافقاً بصمت غارقاً في أفكاره، فتركت الطعام مُلتفتةً نحوه باهتمام لتناقشه في أفكارها قائلةً:

- تُرى هل سيلجأ أي شخص مهما كان إلى أخذ حقه بيده لو أصبحت القوانين أكثر مرونة ودقة وتغيرت بعض التشريعات التي ...

التفت نحوها بانزعاج واضح مُقاطعاً ومُكشِّراً عن حسه الأمني الذي ارتفعت وتيرته من جديد أمام وقع كلماتها هاتفاً بصلف:

- هذا الأمر لا دخل لي به.. أنا أنفذ القانون فقط.. أقولها لكِ كم مرة لتفهمي؟!

اتسعت عيناها شاعرة بالإهانة الشديدة فكشرت هي الأخرى عن أنياب كرامتها المُهدرة فهاجمته بالقول وهي تتحفز في جلستها:

- في لحظة نسيت أنني أفدتُك بمعلومات لم تكن لديك منذ قليل وبِتُّ قليلة الفهم.

أعقبت هتافها بقفزها من فوق المقعد واقفة وتحركت بعصبية بعيداً؛ لتستكمل عملها ولكنها لم تكف عن الهتاف مُعلنة عن رأيها وقد تخيلت نفسها قد عادت مُجدداً إلى ساحة ميدان التحرير إبان الثورة وهي تلُفُّ الشال الفلسطيني فوق كتفيها:

- للأسف ستضطر أن تقولها لي كثيراً يا حضرة الضابط.. فأنا سأظل أتكلم وأعترض وأكتب عن هذه القوانين الجامدة التي تدفع المجتمع إلى أن يتحول لغابةٍ الغلبةُ فيها للأقوى.

صمتت للحظات فظن أنها قد قالت ما لديها وانتهى الأمر، فأغمض عينيه؛ ليحتوي غضبه، ولكن رائحة اللحم التي لا تزال عالقة في أنفه دفعته إلى تذكرها، وبالتالي تذكر بأنه لا زال جائعاً، وقبل أن يلتفت للطعام من جديد، عادت مرة أخرى محتقنة الوجه هاتفةً وهي تتخصر بتحدٍّ:

- لن تستطيع أن تجبرني كل مرة على العودة كما فعلت سابقاً في ميدان التحرير.. هيا اقبض عليَّ بتهمة قلب نظام الحكم يا عاصم بيه.

كانت تنفث النار حرفياً من بين شفتيها المنفرجتين قليلاً، وعيناها تتوهجان بالإصرار بينما اندفعت الدماء إلى وجنتيها غضباً، ضيق «عاصم» عينيه وهو يلتفت ببطء ثم ينهض متجهاً إليها وهو يتفحصها بتهديد مُبطّن قائلاً:

- اقتراح جيد.

تنحنحت وقد فهمت تهديده، فتوردت وجنتاها وهي تُسرع الخُطى نحو غرفة صغيرهما، ناداها وهو يسير خلفها ولكنه لم يستطع اللحاق بها، دلفت للغرفة وأوصدت الباب من الداخل.

- هل انتهت فقرة النكد اليومية؟.

التفتت على عقبيها لتجد الصغير ذا السنوات التسع يجلس فوق الفراش مُستنداً بوجنته فوق كفِّه، ومن الواضح عليه أنه كان يستمع لحديثهما الصارخ من مكانه هذا، فاقتربت من الفراش بتبرُّمٍ وتمددت بجوارهِ هاتفة:

- قلت لك من قبل: لا تتدخل في أحاديث الكِبار.

عاد ليتمدد من جديد وهو يمنحها ظهره ويُفسح لها فراشه وهو يهمس بمشاكسة:

- أنثى الماعز العنيدة !.

ظلت «أروى» تتقلب لساعات فوق الفراش، وقد جافاها النوم بينما التفكير لا يسمح لها بغمضة عين، الأمر ليس عنادها فقط، فهي بالفعل من واقع عملها في قسم الحوادث وجدت وتيرة القتل تزيد كل يوم أكثر من اليوم السابق، ألا يكفي جمود القوانين أمام جرائم سرقة الأعضاء البشرية وخطف الأطفال والاغتصاب حتى خرجت علينا نوعية جديدة من جرائم الثأر بين أهل المدينة والتي لم تتواجد إلا لتقصير التشريعات في إعطاء كل ذي حقٍّ حقه!.

بل أيضاً لا يريد أحد أن يسمع أو يتحرك أو حتى يُناقش ما يحدث، سحبت هاتفها من جيب بنطالها البيتيِّ، وقامت بمراسلة صديقتها المقربة بكلمات مقتضبة لا تستطيع التعبير عن بركان العناد والجنون الذي يتفجر بداخلها « أريدُ مساعدتك» .



عدالة القتل

- حافظ.. ارتدِ ملابسك.. والحق بي في الأسفل على الفور.

حاول «حافظ» أن يفهم ما الأمر ولكن «صفوان» كان متعجلاً، ولم يبدُ عليه أنه سيبوح بأكثر من هذا، ارتدى «حافظ» ملابسه التي لم يخلعها إلا منذ ساعة فقط بعد عودته من العمل ونزل مهرولاً خلف «صفوان» دون أن يكلف نفسه ويجيب تساؤلات زوجته عن سبب ذهابه بهذه السرعة.

دقائق طويلة مرت عليه بداخل سيارة الشرطة لا يفهم ماذا يحدث؟، حتى مأمور القسم الذي كان ينتظر حضورهما هناك لم يُفصح له عن سبب استدعائه بهذه الطريقة الودية، وأخيراً توقفت السيارة، ووجد نفسه أمام لافتة باهتة كئيبة خُطَّ فوقها بحروف أكثر كآبةً «مشرحة زينهم» .

انهمرت حبات العرق على جبينه فور قراءته للافتة، واشتعلت درجة حرارته وكاد خافقه أن يقفز من صدره مما جعل قدميه تتعرقلان بلا سببٍ حقيقيٍّ، وهو يسير خلف المأمور وبجانبه «صفوان» الذي أسنده على الفور بتعاطف محاولاً تجنب النظرات الحائرة المتسائلة المسلطة عليه، وهو يقود صاحبها خلف مأمور القسم في مهمة شاقة للحاق بخطواته الواسعة وهو يتجه

نحو غرفة كبيرة المساحة، دلفوا جميعاً خلفه إليها وقد كان ينتظرهم بها طبيبٌ ومساعده والعامل الذي سبقهم إلى حجرة داخلية كمسؤول عن الأدراج الكثيرة الموجودة فيها التي تقل درجة حرارتها عن الخارجية، فاقشعر بدن «حافظ» الذي كان في عالم آخر منذ قرأ اللافتة، أما تلك البرودة فقد غلفت قلبه واعتصرته بقبضتها مُعرقلة خفقاته عن المعدل الطبيعي لها مما أشعره بالدوار في نفس اللحظة التي مد فيها العامل يده وأخرج الدرج المقصود بعد أن أشار له الطبيب بالتنفيذ، ثم رفع الملاءة عن وجه الجثة وتحرك بعيداً بمهنية اعتادها بحركة متناغمة مع صوت المأمور الذي توجه بالكلام إلى «حافظ» قائلاً بعمليَّةٍ:

- هل هذا ولدك «رمزي» يا حافظ؟.

تجمد «حافظ» مكانه بالكلِّيَّة حتى عيناه تصلبتا على وجه المأمور، وزاد ثِقل وزنه على ذراع «صفوان» الذي كان يسنده من البداية بينما رأسه يتحرك بالرفض حركة لا إرادية دون حتى أن ينظر للجثة.

تقدم مساعد الطبيب وقد كان رد فعل «حافظ» متوقعاً بالنسبة له، وأسنده من ذراعه الأخرى، وهو يُشير برأسه إلى «صفوان» أن يساعده وهما يتقدمان وكأنما يحملانه ليستطيع رؤية الجثة بشكل أكثر وضوحاً ليتعرف عليه.

- تماسكْ يا حافظ.. وانظر إلى الجثة نُريد أن نُنهي عملنا.

قالها المأمور بضيقٍ، بينما هاتفه لا يكف عن الرنين، فيُخرجه ويضعه على الوضع الصامت بعصبية ثم يعود إليه بعينيه من جديد مُردفاً:

- لن نقضي بقية اليوم كله هنا.. لا زال أمامنا تحقيقات وأعمال أخرى لننجزها .

لم يستطع «صفوان» بأن يتفوَّه ولو بكلمة واحدة، أو حتى يحث «حافظ» على النظر، فلقد نظر هو ووجد ملامح الشاب تكاد تكون متآكلة إلا من بعض المواضع في وجهه، يكاد يعرف تلك العينين التي اختفت منهما الحياة، رفع عينيه بعيداً في اللحظة التي اضطر فيها «حافظ» إلى أن يخفض نظراته للأسفل، نظرة واحدة كانت كافيةً ليسقط على ركبتيه بذهول وهو يهتف بحسرة قطعت نياط قلبه:

- ولدي ....

انحنى معه «صفوان» ومساعد الطبيب بِفِعل ثُقل جسده أثناء سقوطه المروع، بينما يناظر «صفوان» وينتحب بنبرة متحشرجة ونبضات خافقه تتباطأ وكأنه يُقدِّم استقالته من عملٍ شاق طيلة ستين عاماً، ولم يعد في حاجة لأن يدقَّ بعد الآن، فالسبب الذي كان يحيا لأجله قد زال، فصاحب نصيب الأسد فيه قد مات فكيف سيعمل بالفتات المُتبقِّي؟!:

- ولدي يا صفوان.. رمزي.. قتله حسن.. ابن الحرام .

صرخ بها «حافظ» مودِّعاً مَن حوله، وقد قُبلت استقالته من الحياة، وقُبل أيضاً اتهامه الواضح ضد «حسن أنور برهان» !.



قصة قصيرة للغاية لا تحوي سوى كلمة واحدة» السخرية»، قاعدة اتبعها «عاصم» عند لقائه الأول بـ «رائد» ، منذ سنوات كان قد اشترك معه في تحقيقات إحدى الجرائم ولم يستطع أن يتحمل «عاصم» لأكثر من ثلاثة أيام فقط!، قصة شيَّدَتْ جدراناً من الكره والغيرة، وما زالت قائمة بأعمدتها الراسخة.

بدأها «عاصم» عندما مد يده لمصافحته وهو يُغلف سخريته بالمزاح البريء قائلاً:

- «رائد» ! .. يبدو أنه تم حجز مقعدك في كلية الشرطة منذ ولادتك.

وأنهاها «رائد» بشكواه إلى عمه سيادة اللواء، والذي قام بدوره في تعنيف «عاصم» مرة بعد مرة « قلتُ لك: إنه ابن أخي يا «عاصم»، ولقد كلفته بالعمل معك ليكتسب من خبرتك لا لتسخر منه يومياً .. وهذا آخر تحذير»!

لكنه لم يعبأ بالتحذير، بل زاد رغبة في إيذاء الفتى معنوياً، ذاك الفتى الذي وُلد وفي فمه مِلْعَقة من ذهب، لعائلة تحوز المال والسلطة، حاز كل شيء دون تعب، وفي النهاية يريدون من «عاصم» أن يُغلِّف خبرته التي اكتسبها بمجهود قاتل وعناء لسنوات في غلاف لامعٍ ويمنحها له كـ هدية يوم مولده السعيد!

عاد «عاصم» يستند إلى ظهر مقعده وهو يبتسم ابتسامة عريضة وهو يتذكر المرة الأخيرة التي سخر فيها من «رائد» الذي يصغره في العمر والرتبة قائلاً:

- ماذا ستفعل عندما يتم ترقيتك إلى رتبة مقدم مثلاً؟.. هل ستقدم نفسك قائلًا: أنا المقدم رائد؟!!

لقد تسبب الغبي بأن تمَّ نقله إلى أقصى الصعيد لعامين على الأقل، ضحك «عاصم» ضحكة حركَّتْ كتفيه، بينما يضغط زوايا عينيه بسبَّابته وإبهامه ويحرك رأسه متعجباً من نفسه وقتها، لا يعلم لماذا كان يكره الفتى إلى هذا الحد؟، وما ذنبه هو بأن جاء للحياة ليجد كل شيء في جاهزية تامة ينتظره؟، هل أذنب لأنَّه حلُم أن يكون «سوبر مان» ووجد من ينفذ له أحلامه دون تعب؟.

أم ذنبه أن في المجتمع مثل «عاصم» الذي حفيت قدماه، وقدَّم تنازلات ليجد وساطة تساعده في دخول كلية الشرطة بالرغم من توفر كل الشروط اللازمة به، وعندما وجدها والتحق بحلمه الوحيد عاركَتْه الدنيا وعاركها حتى قُطعت أنفاسه، ورمى بنفسه تحت قطار الموت مرات ومرات دون أن يعبأ حتى وصل إلى مبتغاه، ثم يأتي غِرٌّ ساذج ذو شعر لامع من أثر مُثبِّت الشعر ويريد أن يأخذ خبرته على الجاهز هكذا.. فقط؛ لأنَّه أتى إليه تحت جِناح عمه سيادة اللواء! .. هل أكلت القطط أطفالها أم ماذا؟!

- لا أفهم هل تقرأ ملفات التحقيق أم تقرأ كتاباً للنُّكَت؟!

رفع «عاصم» رأسه محتفظاً بابتسامته الكبيرة على إثر العبارة التي أطلقها «رائد» للتوِّ، نعَمْ .... بعد كل تلك السنوات من عدم اللقاء وجد نفسه مرة أخرى وجهاً لوجه معه، مضطرًّاً للعمل معه .. كفريق واحد.

وهذه المرة بتكليف من مساعد وزير الداخلية شخصياً لحل لغز قضية مقتل ذاك الطبيب الذي نُقشَتْ على ظهره عبارة «رد شرف» كما حدث مع جثتيْ «شاهين وسيد» .

هل يشكر مأمور السجن الذي رشحه للعمل ضمن فريق التحقيق في القضية؛ لأنَّه تعامل من قبل مع «شاهين وسيد» ويعلم تفاصيل قضيتهما هذا إلى جانب خبرته في حل مثل هذه القضايا، ولا بد من رابط يربط بين القضيتين؟.

أم يدعو عليه؛ لأن «رائد» كان وللأسف هو الضابط المسؤول عن التحقيقات في جريمة مقتل الطبيب؟، إنَّها وقعت في دائرته ولا بد أن يجتمع معه ويتعاونا من جديد معاً للوصول للقاتل.

- إذنْ فقد عرفتَ الجاني؟.

قالها «رائد» ساخراً من هذا الذي يجلس في مواجهته، وينظر له بابتسامة عريضة وبين يديه عدد لا بأس به من الأوراق والصور الأصلية للجثث ومكان وقوع الجريمتين.

- نعَمْ .. الجاني هو.. ستعرف في الحلقة القادمة.. فانتظرونا.

أجابه «عاصم» بسخرية أكبر تبعها بضحكة مرتفعة استشاط لها «رائد» غضباً، ولكنه كان قد اكتسب بعضاً من التَّأنِّي والحكمةً عبر السنوات القليلة السابقة، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل؟، مشاعره متضاربة، غريمه هو رئيس الفريق، وهو الآن في نظر مدير الأمن لم يستطع أن يتوصل للفاعل وحده لذلك «عاصم» هنا، لو تعاون معه لنُسِب النصر لـ «عاصم» وسيكون هو المُلام وصاحب التقصير.

نهض؛ ليتجنب نظرات هذا السَّمِج وليمنح نفسه فرصة للتفكير كما يفعل منذ صباح اليوم، لا زالت مفاجأتهما بتواجد بعضهما البعض في نفس القضية يسيطر عليهما، بينما الذكريات السيئة تعصفُ بهما بداخل حجرة التحقيقات بمديرية الأمن.

- لقد خلت أوراق التحقيق من أقوال النساء اللاتى تواجدْن في العيادة للكشف لدى الطبيب ليلة وقوع الجريمة!

عالجه «عاصم» بعبارته المتعجبة فاستدار «رائد» لمواجهته وهو لا يزال عاقداً كفَّيْه خلف ظهره وقد ضيق بين حاجيه متسائلاً بدهشة دون تفكير:

- وما علاقتهن بالجريمة التي وقعت بعد انصرافهن بكثير؟!

مال «عاصم» برأسه يميناً بشكل مبالَغ فيه، وهو يدَّعي الصدمة لبُرْهة قبل أن يعتدل واقفاً، ويقترب ببطءٍ منه حتى وقف قُبالته تماماً مُحاصِراً لنظراته الحائرة وهو يقول بنبرة يحفظها «رائد» منذ أول مقابلة:

- العلاقة كبيرة جداً يا سيادة النقيب.. رائد!.

ضغط «رائد» أضراسه بعنف فظهر تحرك صدغيه بوضوحٍ واحتلَّتْ نظرات الكُرْه مقلتيه من جديد وهو يهمس بعنف خفي:

- إذن، استدعِهنَّ؛ لنرى مدى عبقريتك الفذَّة.

- سأفعل.. فالخبرة مهمة..

ظل «عاصم» مبتسماً وقد ترك عبارته مُعلَّقة وهو على يقين بأن «رائد» قد فهمها، نعم فالوساطة من الممكن أن تُلحقَه بالشرطة، ولكن الكفاءة مجهود شخصيٌّ.

تحرك «رائد» ملتفّاً على عقبيه يبتعد عنه بجسده الذي يصدر عنه ذبذبات عنف كان يريد أن يجمعها ويضعها في لكمةٍ لأنف ذاك المغرور، ولكنه آثر الخروج من الحجرة لبضع دقائق ليهدأ.

راقب «عاصم» انصرافه المتشنج بابتسامة اختفت بمجرد أن أُغلق الباب وأصبح وحيداً، وعادت جديته تحتل ملامحه من جديد، فهو لم ولن ينسي بشكل كبير تلك العداوة القديمة مع شريكه، ومهما كانت أهمية القضية التي يعملان عليها، فلن يفتح معه صفحة جديدة على الإطلاق، ولن يقدم له خبرته على طبق من فضة هكذا دون عناء.

لذلك أراد بخُبثٍ أن يُذكِّر «رائد» بماضيهما معاً.. وكأن الآخر قد نسيَ.

يريد أن يسخر منه؛ لينتقم لنفسه، فهو لا يمتلك وسيلة أخرى ليمنح روحه بعض الرضا، ويُشعرها بأنه بخير ويستطيع أن يكون مؤذياً إذا أراد، ووقتما يشاء، دون ركنٍ شديدٍ ينتمي إليه كما هو ذلك الفتى المدلل صاحب الشعر الكثيف اللامع دوماً.

ولكن الجزء الأكبر بداخله كان له حاجة أخرى أكثر إلحاحاً، فقد كان من اللازم أن يتحرك بحرِّيَّة أثناء التحقيقات دون ظلٍّ يلاحق كل تفصيلة يقوم بها، ستكون تلك العداوة هي الستار الذي سيخفي «عاصم» ما يريده خلفها!

استدار متجهاً نحو المكتب الخشبي العريض المُمتلئ بالأوراق، جلس خلفه وهو يتناول عُلبة سجائره، ويُخرج واحدة جديدة بشفاهه؛ ليبقيها هناك دون أن يُشعلها.

لم تكن المرة الأولى التي رأى فيها الصور المُلتقطة للجثث الثلاث ولا حتى المرة الثانية، فلقد عاينها أكثر من مرة في النسخة المطبوعة التي تحوزها

زوجته، وعندما سألها: كيف حصلَتْ عليها بهذه السهولة قالت له الجملة التي يرددها الجميع كتعويذة سحرية « لديَّ مصادري الخاصة».

حينها ابتسم لها بخبث وقال على الفور: «تكتبون عن الفساد والرشوة ثم تستخدمونها لتصريف أعمالكم .. أليس كذلك؟!»

ولكن «أروى» كان لديها منطق يشبهه، بل يشبه الجميع أحياناً ووقفت قبالته بثقة هامسة «الغاية تُبرر الوسيلة يا حضرة الضابط، ألا تضرب المتهمين لديك في القسم؛ لتستخرج منهم اعترافاتهم؟».

لم تكن تسأله، لقد كانت تقر واقعاً، لذلك شعر أنَّ الجملة التي قالتها تُشبهه إلى حد كبير، وأن هذا العالم لا يوجد فيه بريء مائة بالمئة، دائماً ما نستخدمها للعبور إلى أهدافنا المشروعة وغير المشروعة، هناك دائماً نسبة من العكر مهما بلغ النقاء .

لمع في ذهنه فجأة اسم السيدة «جليلة» بينما حديث «أروى» يصخب بحروف اللافتة التي رفعتها أمام عينيه، وكأنها تُهديه حل المعضِلة.. الغاية تبرر الوسيلة.

رفع كفَّه ليمسح بها على مقدمة شعره التي بدأت تخف تدريجياً مع تقدمه في العمر وهو يقول لنفسه ساخراً معترفاً:

– اعترف يا عاصم.. أنت لا تغار منه؛ لأنَّه لدَيْه عائلةٌ تمنحه إشارة عبورٍ لأيِّ حُلمٍ يريده وقتما يشاء فقط.. بل تغار من شعره المُستفزِّ أيضاً.!



انزوَتْ في أقصى ركن من سجنها الصغير، وهي تضم ركبتيها إلي صدرها بخوف وريبة، لقد استمعت منذ قليل لصوت فتح الباب الحديدي الخارجي ثم دخول الشاحنة الصغيرة ببطء، والتي استبدلها بشاحن والده كنوع من المراوغة، كانت تتوقع أنه سيدخل إليها بعد لحظات ومعه الطعام ثم يتركها ويخرج؛ لينام على المقعد العريض الباهت المجاور لباب المخزن، لقد كانت تراقبه في كل مرة يفعل فيها ذلك.

عندما أخذ منها حجابها عُنوة خرج وتركها، وفي الليل أتى لها بغيره، حجاب جديد أكبر حجماً من الذي سبقه وبصحبته جلباب يفوقها طولاً وعرضاً، ارتدَتْه ولم تنم تلك الليلة حتى استمعت إليه يغادر مُسابقاً لخيوط الشمس الأولى.

أما اليوم فهو لم يلج إليها حتى إنها تشك في كونه هو أم لا؟، وحده أم بصبحة أحدهم؟، لقد سمعَتْه يتحدث بنبرة منخفضة برغم القسوة التي خرجت بها ولكنها لم تفهم الحديث، ثم حدث ما أرعبها فجأة، وصل لمسامعها صوت شيء يتحطم وخرج صوته كزئير أسدٍ يتألم في معركة لا يريد الخسارة فيها .. وخصمه غير هيِّن على الإطلاق!

حاربت نفسها كثيراً كي تظل قابعة مكانها تنتظر إما هدوء العاصفة أو أن تطولها الزوابع، ولكن الفضول الذي قتل القطة سابقاً تملك منها الآن،

تسللت مرهفة لسمعها حتى هبطت ببطء على الأرض، وبدأت تمشي هنيهة حتى لا يجذب قيدها انتباهه، وهي تجر قدميها نحو الباب، وألصقت أذنها هناك للحظة قبل أن تتجرأ وتفتح الباب بحذَرٍ، فُرجة صغيرة من موضع الباب المواجه لمساحة المخزن الواسعة أمامها كانت كافية لترى كل ما يحدث.

لقد كان يضرب المقعد بقدمه ثم يلكم الجدار وهو يشتُم نفسه، يقف قليلاً مُحاولاً تهدئة نفسه، ولكن الغضب المتملِّك من أوردته وعروقه المنتفخة ووجهه المحتقن للغاية يجعله يعاود لَكْمَ الجدار مجدَّداً.

ثم استدار نحوها فجأة، تراجعت هي في سرعة شاهقة وقبل أن تُغلق تلك الفُرجة البسيطة كان قد وصل إليها، دفع الباب بعنفٍ فسقطت، وعندما أطلَّ بوحشيَّته من خلفه نظرت له برعبٍ وهي تُتمتم معتذرة وقد سقط قلبها بين قدميها خشيةً:

- آسفة .. لم أكن أقصد التلصُّص عليك.. أنا سمعت فقط..

ولكنه لم يمهلها الوقت، لقد كان يبحث عن شيء يُفرِغ غضبه فيه فوجدها أمامه، كان جاثياً أمامها في خطوة واحدة، وعيناه تحملان نظرة أرعبَتْها ثم قال بنبرة متشفية:

- عندي لكِ خبر بمليون جنيه .. أخوكِ الآن في المشرحة بعد أن...

ابتسم بشرٍّ، وهو يتوقع صرخةً مدوية تخرج من حنجرتها وهو يشير إلى رقبته بعلامة الذَّبح مُتابعاً:

- قُتِل .. وربَّما تلحقين به قريباً.

أشاحَتْ بوجهها بعيداً، وظهر التوتر على تحركاتها وهي تعود خطوة للخلف زحفاً متسائلة بارتجافٍ:

- هل علموا مَن قتله؟.

صدمَتْه، فاجأته بسؤالها ومن قبله بردَّة فعلها، كلما توقَّع منها شيئاً وجد شيئًا يصدمه في اتجاه مُخالف تماماً، حتى الفِطرة الطبيعية التي توقَّعها بصدمتها عند تلقِّي خبر مقتل أخيها لم يجدها، كأن تصرخ وتبكي وتُمسك بتلابيه ناعتة إياه بالقاتل، خالفَتْها، فقط تُشيح بوجهها وتسأل عن قاتل غيره، هل هي مجنونة ولم يلاحظ؟!

اشتعل غضبه فقبض على مؤخرة رأسها مُمسكاً بكومة من شعرها أسفل حجابها صارخاً بها:

- أنتِ معتوهة أم ماذا؟!.. ولماذا لا أكون أنا قاتله برأيكِ؟.

حاولت تخليص شعرها من قبضته، وقد تجمعت الدموع بعينيها بغزارة من شدة الألم وترجوه أن يتركها، ولكنْ رجاؤها وبكاؤها أفقداه عقله أكثر، إنَّها معه هنا منذ أيام، لم تطلب منه مرَّةً أن يطلق سراحها، لم تحاول الهرب ولو مجرد محاولة، تأكل كل الطعام الذي يأتيها به بشهيَّة، ترتدي الملابس التي منحها إياها، كل ردَّات فعلها غريبة وغير طبيعية وكأنها .. راضية عما يفعله معها!

- وهل ستكونين بنفس البرود عندما أخبركِ أنَّ أباكِ أيضاً مات بأزمةٍ قلبيةٍ عندما شاهد جثة أخيكِ في المشرحة ؟.

- أبي؟!

هتفت مصدومة، وقد اتسعت عيناها ودموعٌ من نوعية أخرى بدأت تتقافز منها، تركها وتراجع للخلف ناهضاً مؤنباً نفسه ولا يعلم لماذا؟، لقد رمى إليها بالأخبار التي حَصل عليها وكأنه يختبر مشاعرها لوالدها هذه المرة.

«ماذا تفعل يا حسن في نفسك؟، وما دخلك أنت في مشاعرها تجاه هذا أو ذاك؟، ألا يكفي أنك فاشل كبير للغاية».

ظل يؤنب نفسه طيلة ساعات بعد أن تركها وخرج يُعيد المقعد البائس إلى حالته الأولى ثم يرتمي فوقه مُغمِضاً عينيه، وهو يستمع إلى بكائها في الداخل، لو كان بيديه لكان خرج وتركها حتى تهدأ وتنام، ولكنه علِم أن البحث عنه جارٍ على قدمٍ وساقٍ.



مرت ثلاثة أيام أخرى لا يخرج إلا عندما تأتيه مكالمة محددة تخبره أن الطعام قد حضر، وعندما يعود بعدها بدقائق قليلة يدخل إليها يضع الطعام أمامها على الفراش التي انزوَتْ بداخله لا تنام ولا تأكل ولا حتى تنظر نحوه، لقد أصبح سجيناً معها، مُحاصَراً ببكائها المتواصل.. بكائها الذي كان متواصلاً طيلة الأيام الثلاثة الماضية، أما الليلة فقد صمتتْ تماماً، تذبل على عودها، تُنازع شيئاً بداخلها، بل أشياء تُنازعها وتدفعها إلى الهاوية.

لم يكن أمامه سوى أن يتشبث بها حتى لا تهوي إليها مسحوقة، أجبرها على تناول لُقيمات من طعامها والقليل من العصائر، يستجيب فمُها لإجباره، ولكنّ عيناها لا تستجيبان ولا حتى بنظرة.

المرة الرابعة التي يهتم فيها بصحة أحدهم من بعد أمه ومُعلمه «أسطى رحيم» .. و«كريم» الشاب الهزيل الذي تم سجنه بتهمة سرقة مُلفقة كما أقسم له، وهو صدقه، وكيف لا وهو أيضاً تم تلفيق تهمة القتل له وسُجن ظُلماً؟، ولم يكن تصديقه له نهاية المطاف بل صار أيضاً يحميه من الافتراس في الداخل .. لم يغفل عنه سوى مرة واحدة، ولقد كانت كافية؛ لينتهي!، وكافية؛ ليتعلم «حسن» بطريقة عملية أن هناك ما يسمى بعدالة القتل!

أغمض «حسن» عينيه، وتغضَّن جبينه متحاشياً الذكرى ولكن همستها باسمه جعلته يفتحهما من جديد عائداً إلى أرض الواقع، الفتاة يتم تصفيتها بين يديه داخلياً وهو السبب!

- لو استعدتِ عافيتك، فسأُطلق سراحكِ وأُعيدكِ إلى بيت عائلتكِ.

قالها قبل أن يتراجع عنها، لا يريد مزيداً من خسائر ممَّن ليسوا لهم في هذه الحرب ناقة ولا جمل، ولكنها كانت في عالم آخر، تهذي دون توقف:

- لماذا لم تكن تنظر لي وأنت ترد سلامي كل يوم؟.

- أي سلام؟!!

سألها مندهشاً وهو يجلس القرفصاء أمام فراشها الصغير المنخفض والذي يستند إليه بذراعيه ويُحادثها وهي نائمةٌ مغمضة العينين وشاحبة، زهرة تُفارق الحياة:

- كل يوم .. عند عودتي من المدرسة كنت .. أمرُّ بك وألقي السَّلام .. لم تكن ترفع رأسك قط.

يعتصر ذاكرته محاولاً التذكر، وجبينه يتغضَّن أكثر فأكثر بينما هي لا تزال تُوَدعه بعبارات غير مكتملة:

- نظرتَ نحوي مرة واحدة فقط .. ضربت الأشقياء الذين اعترضوا طريقي .. صرخت في وجهي أن أعود إلى بيتي.

نعم .. لقد بدأت تراوده الذكرى، ولكن ملامحها لم تكن واضحة له، يبدو أنه لم يهتم بالنظر إليها بالفعل، كلُّ ما همَّه وقتها هو أن ينقذ فتاة في ورطة، فتاة مراهقة تمر به كل يوم ..

وتُلقي السّلام !.

- لا تُعيدني إلى البيت .. أنا السبب .. أبي سيقتلني.

عيناه تابعتا دمعة يتيمة فرَّت من طرف عينيها؛ لتبتلعها الوسادة الخشنة على الفور، فبدأ يهزها برفقٍ لتفيق وهو يذكرها حائراً من أمرها:

– أفيقي يا غفران .. لقد مات والدك .. وأنتِ لستِ السبب في شيء.

سكت قليلاً وهو يرى الدمعات التي تبعت الدمعة الأولى تند قافزة من حواف عينيها المغلقة تلحق بها إلى الوسادة في سباق لا ينتهي قبل أن يقول بتردُّدٍ دون أن يحسم أمره بعد:

– أنتِ لستِ السبب.. لستُ أنا قاتل رمزي .. ولا أحد يعرف من قتله بعد.

فتحت عينيها ببطء وهي تناظره عن قرب بمقلتين ضائعتين هامسة:

– أعرف.. أنت لم تقتل سلمى .. ولم تقتل رمزي .. بل أنا التي فعلت!.



بدأ «عاصم» التحقيقات من البداية، وسمع أقوال كلِّ مَن لهم علاقة بطبيب النساء القتيل سواء من قريب أو بعيد، ولكن شهاداتهم لم تختلف، المرضة التي اكتشفت الجريمة لا زالت محبوسة على ذمة التحقيق، ولقد استغل «عاصم» رعبها وحالتها المُزرية التي وصلت إليها على إثر الحبس وكونها مشتبهاً بها، واستطاع أن يستنطقها فيما يخص علاقات الطبيب غير المشروعة والتي كانت تُنكرها في البداية.

لم يكن الأمر مجرَّد حدس بالنسبة له، ولكن المحضر الذي قُدِّم ضده منذ عام تقريباً من سيدة تُدعى «أمل» ، والمداخلات التليفونية التي أجرتها تلك السيدة على بعض البرامج الحوارية تتهمه فيها باغتصابها أثناء تخديرها لم يمر مرور الكرام عليه، حتى لو تنازل كلاهما عن حقوقه فيما بعد، وتم الصلح بينهما بشكل وِدِّي، وأمر باستدعاء «أمل» ولكنه لم يعثر عليها في محل إقامتها وعلم عن طريق التحريات أنها طُلقَتْ بعد أن قامت بأول مداخلة تليفزيونية ضد رغبة زوجها وعائلتها كلها بالتبعية والتي تتمثل في شقيقتها الكبرى وزوجها فقط .

كان يسير خلف كل خيط متدلٍّ من دائرة علاقات من الممكن أن تؤدي إلى انتقام مثل الذي حدث للطبيب بالطريقة التي عُذِّبَ بها قُبيل مقتله، ويجمع كل تلك الخيوط واحداً تلو الآخر بصبر.

وقد بدأ من أبعد نقطة عكس ماهو مُتوقع، وقام باستدعاء الزوج السابق للسيدة «أمل»، والذي لم يُبدِ أيَّ تعاون في البداية، وكانت إجاباته مقتضبة حاسمة، كان منغلقاً للغاية ينظر إلى ساعة معصمه كل دقيقة على الأقل، وقد ضغط آخر زر للتمدن عند «عاصم» وهو يقول متعجلاً:

- من فضلك يا فندم.. أنا مشغول جداً، وأريد الانصراف.

تُرى من الذي أتى صباحاً وهو يُحدث نفسه عن الصبر؟!، ضرب «عاصم» سطح مكتبه بكفه فانتفض المهندس «مازن» كما انتفضت الأوراق الساكنة فوق المكتب تماماً، ثم نهض ودار حوله حتى وقف خلفه منحنياً نحو أذنه هاتفاً بعصبية:

- مشغول هذه تقولها لـ.....

قطع «عاصم» عبارته معتدلاً وهو يزفر بضيق مُتأففاً، احتقن وجه «مازن» وعدّل من رابطة عنقه بارتباك، لقد كاد أن يُشتم منذ لحظة، تُرى من الذي أتى صباحاً وهو يُحدث نفسه عن الحقوق؟!.

وضع «عاصم» كفه على كتِف «مازن»، وضغطها بقوة مُهددةٍ مُحاولاً استدعاء ذاك الصبر المزيف قائلاً:

- اسمع يا بشمهندس .. أمامنا جريمة قتل .. والقتيل اتهمَتْه زوجتك سابقاً أنه اغتصبها .. فهل تدرك صعوبة موقفك؟.

التفت «مازن» على الفور بجسده بشكل مبالغ فيه وهو يهتف مصححاً بتوتر:

- طليقتي .. لقد .. لقد طلقتُها، وعلاقتي بها منعدمة تماماً.

- لماذا؟.

توتر «مازن» أكثر، وزاد ارتباكه فلم يفهم السؤال، انقطعت علاقته بها؛ لأنَّه طلَّقها فقط، ما المشكلة؟.

- لماذا قمتَ بتطليقها يا بشمهندس؟.

أطرق «مازن» وهو يعود بجسده مرةً أخرى إلى وضعه الأول وهو يجيب بخزيٍ:

- هي التي دفعَتْني إلى ذلك بعنادها.

سار «عاصم» ببطء حتى استوى على المقعد المقابل بأريحية منحنياً للأمام ومستنداً بمرفقيه إلى فخذيه وهو يومئُ برأسه قائلاً:

- أنا أسمعكَ .. أريد كل التفاصيل مهما كانت صغيرة .. تفهمني بالطبع.

تنحنح «مازن» وهو يرى التهديد المغلف بتلك الابتسامة الصفراء بوضوح، ثم ابتلع ريقاً وهمياً قائلاً:

- أخبرتْني أمل أنها استيقظت لتجد نفسها في حالة إعياء، وعندما ذهبَتْ مع شقيقتها إلى مستشفى قريبٍ قامت بعملية تنظيف رحم؛ لأنَّها أُجهضت .. وبعد أيام عند عودتي من عملي فوجئت بفتاة سمراء تغادر شقتنا كالهاربة .. بمجرد أن أغلقت باب الشقة سمعتُ صوت أمل من الداخل تبكي بشدة .. دخلت الغرفة التي كانت بها فوجدتها تجلس أرضاً وتشهق بنحيب كمَن يعاني سكرات الموت .. علمتُ بعد ذلك منها أن تلك الفتاة السمراء كانت الممرضة التي اصطحبتها إلى غرفة الجراحة ثم أخبرتني بـ....

صمت للحظة لم تطلْ، يبتلع فيها لُعاباً حقيقياً هذه المرة وهو يلاحظ التغضُّن على جبين الجالس أمامه مستعداً لصفعه على الدوام وتابع مستطرداً:

- أخبرتْني أن الممرضة اعترفت لها أن الطبيب بعد أن أنهى الجراحة أمرها والممرضة الأخرى وطبيب التخدير بأن يغادروا ويتركوهما وحدهما لعشر دقائق .. وانصاع الجميع وخرجوا دون أن يقدر أحدهم على الاعتراض حتى طبيب التخدير.

- ثم ؟

- ثم تلصَّصَت السمراء كما تفعل كل مرة ورأت كل شيء.

- كل مرة؟!!

تحرك «عاصم» بتحفز وقد جاءته «كل مرة» هذه كصاعقة ضربت كل من حوله، وتركته يتخبط فكررها متعجباً، ممَّا جعل «مازن» يخشى أن يورط نفسه أكثر فقال على الفور:

- هي التي حكَتْ لي هذا.. أنا لم أرَ شيئاً.

- أكمل.

- بعد أن استردت أمل وعيها.. وتمالكت نفسها نهضت تجذبني وهي تقسم بأنها ستستردُّ حقها.. وطالبتني بأن أذهب معها لتحرير محضر.. ولكنني رفضت .. فتركتْني وجذبَتْ حقيبتها وخرجت كالمجنونة.

- لماذا رفضت؟!.. هل كنت تفكر في الانتقام منه بيدك؟.

اتسعت عينا «مازن» وهو يشير بكلتا يديه هاتفاً:

- لا لا .. أنا لستُ من هذا النوع .. ولكننى لم أكن مستوعباً لأي شيء تتفوه به .. كنت أريد أن أفكر أكثر وأسأل أخي الأكبر أولاً.

- أخوك هذا هو زوج شقيقتها الكبرى . . أليس كذلك؟!

- بلى.

لاحت ابتسامة ساخرة على زاوية شفتيه، وهو ينظر لـ «مازن» ويُعيد تقييمه من البداية ومن جديد، يبدو أنه منحَه قيمة أكبر مما يستحقها، تحرياته عنه قالت بأن شقيقه الأكبر هو مَن قام بتربيته واهتم به، وهو مَن زوَّجه بـ أمل» بعد أن تزوج هو من أختها بعدت سنوات وله أفضال كثيرة عليه .

- وبماذا أمرك أن تفعل؟.

نبرته الهازئة تلك لم تمنع «مازن» من الاسترسال، فهو لا يرى أيَّ عيب في أن يستمع إلى قول مَن هو أكبر منه، وبالتأكيد يفهم أكثر منه كما كانت تؤكد عليه دائماً والدتهما المتوفاة وهي توصيه بألَّا يخرج عن طوع أخيه الأكبر مهما حدث..

- عقد أخي جلسة عائلية فيما بعد.. واستمع إلى الحكاية من أمَل بنفسه وعندما انتهَتْ، قال: إنَّ من الممكن أن تكون الممرضة السمراء تحكي قصة وهمية تفتري بها على الطبيب لعداوةٍ مثلاً أو شيء من هذا القبيل، أو تسعى إلى ابتزازنا فيما بعد بأي شكل من الأشكال.. فهي الوحيدة التي تقول: إنها رأت هذا بينما أنكرت الممرضة الأخرى وكذلك طبيب التخدير عندما تم استدعاؤهما على إثر المحضر الذي قدَّمَتْه أمل .. وقال: إنَّ المحضر مادام قد تم تقديمه وبدأت التحقيقات بالفعل فسننتظر ونرى عمَّ تُسفِر نتيجته؟.

- واختفَت الممرضة!.

- نعم.. وربما تكون هربت؛ لأنَّها تعلم أنَّها كاذبةٌ.

- أعتقد أنَّ هذا كان رأي أخيكَ .. أليس كذلك؟!

لا زالت النبرة الهازئة في كل سؤال يوجهه له، ولازال «مازن» ملتزماً جداً بالإجابة متظاهراً بأنه لا يفهم:

- بلى.. عقد أخي جلسة عائلية أخرى، وقال: بما أن الممرضة قد اختفت فهي كاذبة.. وكانت تريد ابتزازنا من البداية، وبِناءً عليه فقصتها كاذبة، ويجب أن يتم التنازل والصلح وأن نقدم اعتذاراً للطبيب .. ولكن أمَل أُصيبت بحالة هياج غير طبيعية، وقامت بتكسير الأكواب التي كانت أمامنا على الطاولة وهي تصرخ بأننا معدومو الرجولة.

- فقمت بضربها.

قالها «عاصم» بثقة وكأنه كان يجلس معهم مما جعل «مازن» ينظر له بدهشة، فتغاضى الأول عن تلك النظرة البلهاء، وأومأ برأسه يحثه على المتابعة واستطرد «مازن» في أقواله بمنتهى الطاعة قائلاً:

- لم أكن لأسكت وأخي يُهان من زوجتي.. حتى أختها نهرَتْها وتركتني أضربها .. ولكنها لم تتَّعظْ، فخالفتنا مرة أخرى، ورفضت التنازل، وبدأت تتحدث إلى القنوات الفضائية، وتذكر أسماءنا كاملة وتفضحنا أمام الناس بقصتها تلك .. فما كان مني إلا أن طلقتُها وتبرَّأَتْ شقيقتها منها وهجرَتْها.

وعندما وصل إلى تلك النقطة من الحكاية بدأت تراود الثقة حديثه وهو يتابع بفخر:

- ورغم ذلك لم نتركها.. فعندما اتصل بنا محامي الطبيب، وأخبرنا بأنهم سيرفعون قضية ردِّ شرف وتعويض، وسيسجنونها فهي ليس لديها شهود ولا أدلة شرعية .. تدخلنا على الفور وهددها أخي لصالحها .. إما أن تتنازل ويتم الصلح، وإما أن نتركها تُسجن، ولن يُسألَ عنها بعد ذلك مهما حدث.

- وتنازلَتْ.

هذه المرة لم تكن حروفه ساخرة، خرجت مستاءة ومُرَّة من الواقع الذي يعرفه وخبرته لسنوات، فأومأ «مازن» مؤكداً وهو يقول:

- تنازلت رغماً عنها وعقدنا الصلح .. ولكننا لم ننسَ ما فعلت .. بعد فترة أخي تم ترقيته، وانتقل لفرع الشركة التي يعمل بها في الخارج، ولكن شقيقتها أرادت أن تزورها للمرة الأخيرة قبل سفرها .. فتفاجأت بها في حالة رثَّة وغير طبيعية فأشار أخي عليها أن تقوم بإيداعها مصحة نفسية.

- تقصد أمرها.

سكت «مازن» ولم يجد داعياً للإجابة، فهو لم يكن سؤالاً، بل إقرارٌ بالحقيقة، وانتهى «عاصم» في أخذ كل ما أراده من تفاصيل لا توجد بالمحاضر، ومن بينها مواصفات تلك الممرضة السمراء التي اختفَت في ظروف غامضة، وادَّعى المشفى أنها طلبت إجازة طويلة، ولم تعد من وقتها فتمَّ تحويلها للتحقيق الإداري الذي لم تحضر إليه أيضاً ... واختفت الفتاة وكأنها تبخرت في الهواء.

- أُقسم لك يا فندم .. هذا كل ما أعرفه عن تلك المريضة.

كانت تقف باكية بجوار مكتبه، تُقسم بالله بعد كل كلمة، بل ربما بعد كل حرف تنطق به، وهي تُجيبه عن أسئلته للمرة الثالثة ربَّما أو الرابعة، لم تعد تذكر كم مرة قام بالتحقيق معها؟، وفي كل مرة يُعيد تساؤلاته بطرقٍ مختلفة، لقد أرشدته في البداية للدفتر الذي تقوم بتسجيل بيانات المريضات فيه والحجز لهن في مواعيد محددة، كل اسم مريضة له ملفٌّ خاص بتفاصيل مرضِها وبياناتها الشخصية، وقام هو بدوره في استدعائهن وأخذ أقوالهن حول سلوكيات الطبيب وما حدث في تلك الليلة، جميعهن إلا واحدة، واحدة فقط اكتشف أن اسمها وهمي وكذلك رقم هاتفها وكل بياناتها الشخصية ليس لها وجود على أرض الواقع، لقد كانت بالنسبة له اكتشافاً رائعاً، لذلك لم يكن ليفوّتَ تلك الفرصة وطلب من الممرضة أن تصف له تلك المرأة بالتفصيل، وفعلَتْ، ولكنها كانت أوصافاً مرتبكة، ترددت فيها كثيراً وهي تصفها، وكأنها تتذكرها بصعوبة، وكلَّما أعادت الوصف ازدادت اضطراباً وصعوبة في أن تجمع له تفاصيل وجهها بدقة، حتى الرسام الذي يجلس قُبالتها فشل في رسم ملامح كاملة لشخصية طبيعية.

إنها تخشى أن تظلم أحدًا بوصف لا تذكره جيداً، تعصِر ذهنها عصراً فيتشوَّش أكثر، وتُجيب بالنفي عندما يُريها الرسام الملامح الكثيرة التي يقوم برسمها ويعرضها عليها علَّها تجد ضالتها، وكيف تفعل وهي ترى يومياً عشرات

النساء، بعضهنَّ تعرفهن معرفة جيدة لطول فترة ترددهن على العيادة، ولكن هذه المرأة لم ترها سوى مرتين فقط، فكيف تميزها الآن بسهولة؟.

ألا يكفي أنها مشتبه بها منذ اللحظة الأولى واضطرت خوفاً في البداية أن تُنكر ما كانت تراه أو تسمعه من علاقات مشبوهة؟، كانت تحدث أسفل ناظريها وكل يوم دون أن تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة، فالطبيب هو صاحب فضل عليها ويمنحها الكثير من المال بما يغطي نفقاتها هي وأولادها التي تقوم على إعالتهم وحدها، نعم كان هذا المال مُلوثاً بسكوتها على النجاسة التي كانت تحدث، ولكن ماذا كان بيدها أن تفعل؟، وقديماً قالت لها أمها : «اربطي الحمار مطرح ما صاحبه عاوزه». ولتعشْ فقط، اضطرت إلى ربط الخنزير نفسه وليس الحمار فقط.

أما الآن وقد هددها «عاصم» بأنهم إن لم يجدوا القاتل، فسوف يتم اتهامها هي بالقتل، فلم تجد مفراً من فكِّ كل الحيوانات التي ربطَتْها من قبل، وقصت له كل ما تعرفه ورأته منذ عملها مع الطبيب.

- في أحد الأيام حضرت السيدة التي كانتْ قدَّمتْ ضده شكوى تتهمه فيها باغتصابها، وافتعلت فضيحة في العيادة .. ولكننا قمنا بطردها أنا وهو، وسمعتُه يقول لها: إنَّها لن تستطيع أن تثبت شيئاً ضده .. فهي لا تعرف مَن هو؟، وماذا يستطيع أن يفعله بعلاقاته الواسعة؟ ... أقسمُ لك ..

- اصمتي..

صرخ «عاصم» بوجهها فارتعبت وتراجعت للخلف باكيةً، وهي تضع كفها على فمها تُنفذ أمره حرفياً، بينما هو ينهض وقد أفلتت عصبيته من عقالها وجذبها من ملابسها عند كتِفها ودفع بها نحو المقعد المواجه لمكتبه:

- لا أريد أن أسمع صوتكِ لخمس دقائق كاملة .. اخرسي واستجمعي عقلكِ، وحاولي تذكّر وجه تلك المرأة بكل طريقة ممكنة .. هل تفهمين؟.

أومأَتْ له برأسها عدت مرات بطريقة هيستيرية زادت من غضبه فزفر حانقاً، وهو يعود؛ ليجلس خلف مكتبه ويقرأ أقوالها التي تم تدوينها سابقاً، بينما أصابعه تنقر سطح المكتب محاولاً تهدئة ما تبقى من أعصابه، كلما وصل إلى خيط ما وجده بلا قيمةٍ!، مواصفاتها كلها متضاربة، تارة تقول: إن المريضة وهمية الاسم، يظهر على ملابسها أنها من الطبقة المتوسطة على عكس جميع المريضات اللاتي اعتدَنْ التردد على الطبيب، ماذا سيأتي بامرأة كتلكَ إلى طبيب في حي المعادي وفي كل مرة تدفع كشفاً مستعجلاً يفوق ثمن الكشف العادي ضعفين؟، ثم تمنح الممرضة بِقشيشاً حتى لا تجلس منتظرة ولو دقيقة واحدة، يظهر عليها الكآبة وفي نفس الوقت تضع مساحيق بطريقة مبالغ بها، حتى تكاد ملامحها الأصلية تختفي وترتدي قفازات لا تخلعها.. هل طلب منها أن تصف له مُهرِّجاً في السيرك أم ماذا؟!.

أسند رأسه إلى كفيه، وأغمض عينيه فقد اكتسح رأسه صداع يضرب شقه الأيمن كالمطرقة، وهو يستمع إلى الرسام الهادئ للغاية يحاول استخلاص ملامح أكثر دقة منها، بينما قلمه يتحرك على الورق مع تحرك شفتيها.

رفع رأسه إليهما عندما لاحظ اهتماماً يعلو وجه الرجل وهو يعكف على إنهاء عمله، فأخذ يحثه على الانتهاء سريعاً، إنه في صراع مع الوقت.

- تقريباً انتهيت.. انظري إليها مليَّاً.

قرَّب الرسام الورقة من الممرضة التي صمتت للحظة تتأملها قبل أن تقول بتردد:

- أعتقد أنها تشبهها.. قليلاً.

نهض «عاصم» جاذباً اللوحة من بين يديها ونظر لها بتأمل شديد، إنها تُشبه امرأة رآها من قبل، ولكن متى، لا يعرف تحديداً، ولكن لا بأس فقد حصل على شيء ما أخيراً، أي شيء يؤكد له أنه يبذل جهده في الاتجاه الصحيح، مديرية الأمن كلها تضغط عليه كل يوم، زملاؤه ومديروه يسألونه كل يوم: «هل وصل لشيء؟» الإعلام يتحدث عن القضية بينما «رائد» يجلس في مقاعد المتفرجين، لا يتحرك ولا يتعاون معه بأي شكل من الأشكال، حتى التحقيقات لا يتواجد في معظمها.

لا يهُمُّ كل هذا، فلقد أوشك على الوصول، سيذهب الآن إلى المصحة النفسية كما خطط سابقاً ليتحدث مع «أمل» وليعرف تفاصيل إدارية حول إمكانية مغادرتها للمصحة ولو لدقائق قليلة أم لا، وعند عودته سيبدأ في طبع وتوزيع تلك اللوحة المرسومة يدوياً والبحث عن صاحبتها المجهولة!.



- كيف حالك اليوم؟

- الحمد لله.. جيدة.

- أرى ذلك.. هل تودين الخروج من المصحة؟.

- لا.. لازلت أحتاج إلى البقاء بعض الوقت.

حوار صباحي شبه يومي بدأ يشعرني بالملل، فبعد أن تحسنت حالة «أمل» كثيراً، وبدأت تتعافى مع الدكتور «يحيى» أثناء الجلسات وتهمس بما كانت تحمله على عاتقها قبل أيامٍ فقط.

قبل أن يأخذها الفضول لتتقدم من حاسوبي المحمول وتجلس أمامه وقد جذبها العنوان الأحمر الكبير الذي كُتب في الصفحة الرئيسية التي كنتُ أتصفُحها قبل مغادرتي الحجرة لرؤية زوجي الذي جاء إلى المصحة لزيارتي بصحبة طفلتيه.

«العثور على جثة طبيب النساء الشهير في عيادته الخاصة في ظروف غامضة» .

وعندما عُدتُ إليها بعد نصف ساعة وجدتها تضم كفيها أمام صدرها بينما دمعُها يهطل كالشلال على وجنتيها ويُغرق وجهها كله .. حتى شفتيها المبتسمتين، لقد كانت تبتسم وهي تشهق باكية، حالة تليق بنزيلة مصحة

نفسية!، أكادُ أُجزم أن ما يجعلها تبتسم ليس القتل في حد ذاته، بل طريقة القتل نفسها .. عادلة جداً، عادلة لدرجة أن حطمت قيد شفتيها .. فابتسمت، وهذا يكفيني!

- دكتور يحيى.

التفت نحوي بوجه مُشرق وابتسامة لامعة فقلتُ بشفرة بيننا:

- متى موعد جلستي معك؟.

احتفظ بابتسامته إلا أن عينيه تخلتا عن المرح الذي كان يلهو بداخلهما:

- بعد نصف ساعة .. بمجرد أن أنتهي من المرور على بقية الأصدقاء هنا.

ثم عاد بعينيه إلى «أمل» مجدداً، وودعها بابتسامة منصرفاً، ظلت تتابع خطواته حتى ابتعد تماماً دون أن تعلم أنني أُتابعها هي، هل أنا شريرة لأنني وضعت يوم أمس زهرة بيضاء على فراشها ثم ادعيت كاذبة بمشاهدة دكتور «يحيى» وهو يُسقطها خِفية على وسادتها أثناء مروره علينا وقبل مغادرته لغرفتنا؟.

إنها ليست غلطتي .. فأشباحي الخاصة هم أصحاب هذه الفكرة وأنا قمت بتنفيذ أفكارهم فقط.. إنهم يُحبون «أمل» ويريدونها سعيدة، وأنا كذلك، سأفعل كل شيء لتحصل على ما لم أحصل أنا عليه .. أن تكون محبوبة وسعيدة!

- أمل؟

ناديتُها فالتفتت على الفور بوجنتين متوردتين فقُلت أدفع الشعور إلى قلبها دفعاً:

- يبدو أن لكِ مكانة خاصة عند دكتور يحيى.

رمشت بعينيها مرتبكة حائرة وهي تقول بهمس :

- إنكِ تتوهمين.

نظرت لها بصدمة خادعة فاضطربت على الفور وهي تعتذر بتوتر:

- آسفة لم أقصد .. أنا أقصد ..

ضحكتُ فجأة وأنا أراها تبحث عن تعبير مناسب فابتسمت مكتشفة أنني كنتُ أُمازحها وتنفست الصعداء وهي تعتذر مجدداً لا إرادياً، ابتسامتها نادرة رغم جمالها، تُذكرني بصديقتي الراحلة بجسدها، الباقية بهالتها المشعة من حولي دوماً، وبأفكارها الرائعة للجميع، تريدهم جميعاً سعداء، لا تريد أن تعاني امرأة مما كانت تعانيه هي-رحمها الله -!

وبعد نصف ساعة حضرت «رجاء» لتصحبني إلى مكتب الدكتور «يحيى» ومررنا بالممر الأبيض كالعادة ونحن نتبادل الحديث.

طرقت «رجاء» الباب في روتينية وفتحته على الفور كمن لا يحتاج إلى الاستئذان أولاً.

لم يكن وحده، كان معه شخص آخر، نهض بمجرد أن دلفنا إلى الحجرة ووزع نظراته بيننا ولكن ليس بالتعادل .. لقد منحها كاملة لـ «رجاء» التي تراجعت خطوة لا إرادية للخلف مضطربة قبل أن تُسيطر على حركة جسدها وتقف ثابتة بينما هو يتأملها لدقيقة كاملة مُضيقاً ما بين عينيه بتركيز قبل أن يقول لها ببطء وبعينين تلمعان كمَن وجد كنزاً دون عناء:

- أنتِ صديقة الحاجة «جليلة»، أليس كذلك؟!



حملت «فتار» صغيرتها ودلفت إلى غرفتها؛ لتضعها فوق سريرها الصغير، سحبت الفراش فوقها لتُدفئها به وهي تحتضنها وتضع قبلة على شعرها بهدوء حتى لا تُوقظها ثم غادرت الغرفة على أطراف أصابعها وأغلقت الباب خلفها بحذر لصّ منازل قبل أن تتنفس الصعداء، وهي تستدير لتعود إلى غرفة المعيشة مجدَّداً.

كانت قد تركت «محمود» يعمل على حاسبه المحمول لتضع طفلتهما في سريرها ولكنها عند عودتها وجدَتْه مغمض العينين مُستنداً برأسه إلى ظهر الأريكة، ملامحه في حالة استرخاء برغم الإرهاق الذي لازمه طيلة فترة زيارته لهما اليومية كالمعتاد.

لا تعلم كيف يمكنه استغلال كل دقيقة في وقته بهذا الشكل، ما بين عمله النهاري في التدريس، وزيارته لها وقضائه الوقت مع ابنتهما ما بين لهو أو حكايات يحكيها كل منهما للآخر، العمل على موقعه الرسمي والرد على رسائل المساعدين له في إدارة الموقع أو حتى رسائل تضم معاناة وقصصاً طويلة وكثيرة لشباب يسيرون في نفس الطريق الذي كان يسير فيه مُغمضِي العينين ويريدون الخروج من هذا المستنقع.

- أنا جائع.. جداً.

قالها بتعبٍ وهو يفتح عينيه ببطء شاعراً بوجودها واقفة تجاهه تتأمل سكونه الظاهري، أما باطنه فهو مختلف تماماً، وكأنه يقول: إلى متى؟..

يشعر أنه مبعثرٌ في اتجاهات بعيدة جداً عن بعضها البعض، ينتظرها أن تجمع أشلاء شاشته ولكنها لا تفعل، يشعر بها ويُدرك التغير الذي يحدث يوماً بعد يوم في طريقة تعاملها معه، ولكن ألا يكفي؟، لقد دفع ثمن أفعاله بما فيه الكفاية ويريد أن ينعم بالغفران!.

- ماذا تريد أن تأكل؟.

نظر لها نظرةً مُطولة قبل أن يقول باستغاثة جعلتها تبتسم:

- أيّ شيء من يدكِ.. أنا أتضور جوعاً!

سارعتْ إلى مطبخها وهي تُخفي شعور الإرهاق الذي يتملكها هي الأخرى، فهي ما بين عملها وتحضيرها لطعامها هي والصغيرة ثم القيام بحل الواجبات المنزلية ..ثم يأتي هو!

وهو وحده مُرهِقٌ للغاية، وجوده حولها يُشتتها حتى وهي تحاول أن تتلهى بالكمية الكبيرة من الدفاتر التي تضعها بين يديها على الطاولة المستديرة والمقابلة لمكان جلوسه والتي تقوم بتصويب الأخطاء فيها للفتيات.

عامان وزيادة، والوضع يبقى على ما هو عليه، أطرافها متشنجة على أحبال مشدودة طوال فترة مكوثه وحتى ينصرف فتبدأ بالاسترخاء مُجدَّداً، هل هو مَن يقوم بصَلبها أم هي التي تفعل به؟.. لا يهم، فكلاهما تأكل طيور الهجر من جسديهما بلا رحمةٍ!

- هل تريدين المساعدة؟.

تفاجأَتْ به يقف على مسافة منها بجوار المبرد مستنداً إليه بتثاقل فتنحنحَتْ بحرج بالغ وهي لا تكاد تشعر بيدها التي تُمسك بالمضرب السلكيّ وتخفق به البيض بسرعة وعنف لا تقصده، أجابت بارتباكٍ:

– لا، شكراً .. سآتي لك بالطعام خلال دقائق قليلة.

هو يعرف أنها تقوم بطرده ولكنه لا يريد الخروج، يريد أن يتبادل معها أطراف الحديث، يفتقد تلك اللحظات الدافئة التي كانا يتحدثان فيها عن كل شيء فيما مضى، وياللغرابة!، لقد كانت تلك اللحظات تُشعِره بالسأم، كان يريدها أن تنتهي من أحاديثها المزعجة عن الأطفال والعمل وما أرهقها اليوم وماذا فعلت فلانة معها، حتى أنه لم يكن يستمع إلى نصف ما تقول على الأقل ولا يعلق في النهاية برأي، بل كان يُمسك بهاتفه وهي تتحدث ويهز لها رأسه المشغول بغيرها.

أما الآن.. فهو يموت فداءً لحديث واحد، أيّ كلمة تتفوَّه هي بها يستمع إليها بعمق وتبتلعها روحه بعطش، وتُشعره بأنه ما زال ربَّ هذه الأسرة، وبأنه في مجال الرؤية .. وبأنه موجود.

راقبها وهي تعمل على نقل البيض الذي تم طَهْوه إلى طبقٍ آخر دون أن تُغلق شعلة النار فتقدم نحوها بتلقائية ومد يده؛ ليغلقها فارتبك كلاهما للتَّلامس العفوي للأيدي، ولكنها سيطرت على الوضع بسرعة الصاروخ وابتعدت خطوتين جانباً وهي تستكمل عملها بإتقان وتماسكٍ ظاهري، ولأجل أن تقوم بتشتيت الباطن أيضاً قررت السير في طريق آخرٍ، طريق صاحبته مجنونة بالإجماع:

– أروى صديقتي سألتني عنكَ أكثر من مرة.

- ها؟.

هو أيضًا تفاجأ بانتشالها له من تلك الحفرة التي سقط فيها بمجرد لمسة بسيطة، وقال متجاوباً على الفور:

- كيف حالها؟.

قالتْ مازحة :

- بخير.. وفي كل مرة تحدثني.. تتكلم عنكَ بامتنان شديد.

كان عليه أن يُجاري الحديث، فلقد أصبحتْ لديه خبرة طويلة في كيفية تشتيت أفكاره:

- ولمَ الامتنان؟.. فما فعلتُه لم يقدم أو يؤخر أيَّ شيء.

- كيف ذلك؟ .. فلقد خاطرتَ بحياتك.. هل نسيت؟!

كانت تمازحه وهو يعلم ذلك، فتذكُّر تلك المناورة كفيلٌ بأن يجعلهما يبتسمان برغم خطورتها، فهما حتى الآن لا يتصوران كيف سيكون ردَّة فعل «عاصم» عندما يعرف.

لن ينسى أبداً ذلك اليوم الذي هاتفته فيه «فنار» برغم الخصام الصريح بينهما وقتئذ، وأخبرته بعملية أن صديقتها تريد منه خدمة سيستفيد منها هو الآخر لو كان صادقاً فيما يدعيه في سعيه ضدَّ كل ما يتعلق بنشر الرزيلة، ودبَّرت له موعداً مع « أروى» ، وهو وافق على الفور، كان يريد أن يثبت لها بأنَّ سعيه حقيقيّ وأنه في طريقه للتعافي.

تلك المقابلة التي كانت أشبه بتجنيد عميل مزدوج لم ينسها أبداً، لقد كانت «أروى» صريحة معه في كل شيء عندها:

- « أستاذ محمود.. أنا أريد بعض التفاصيل المهمة في عدة قضايا تدور حول نفس الواقعة وهي جرائم خطف الأطفال والتعدي عليهم .. وللأسف، المصادفة لم تكن في صالحي؛ فزوجي يمتلك كنزاً من المعلومات عنها ولا يريد مساعدتي .. يقول: إنه لا فائدة ولا يريد أن يعرضني لأي مساءلة قانونية .. لذلك أريدك أن تذهب أنت إليه .. وتطلب منه معلومات بصفتكَ تبحث في هذا الأمر وتهتم به».

لقد كانت حماسية جداً وهي تتحدث حتى أنه شعر بأنها لا تستطيع الجلوس مستوية مثله، تتحرك كثيراً وتُشير بيدها بينما نظرات التآمر لا تفارق عينيها، لم يكن مقتنعاً تماماً بما تقول، فهي صديقة زوجته منذ الطفولة وسمع كثيراً من الحكايات عنها وعن «عاصم» زوجها من «فنار» نفسها، ولكنه لم يلتقِه مباشرة:

- «أستاذ محمود .. عاصم منذ فترة وكل القضايا التي تقع تحت يديه لحالات مشابهة .. هو نفسه ضاق صدره بها وزادت عصبيته أضعافاً عمَّا كانت بسببها .. حتى أنه أصبح حريصاً جدَّاً على طفلنا ويتصل؛ ليسأل عنه كل ساعة تقريباً .. وبالرغم من ذلك فهو لا يعترف أبداً أن الحديث عن المساوئ بكثرة من الممكن أن يغيرها .. وهذا البند من القانون مُجحفٌ، وبسببه انتشر هذا النوع من الجرائم .. ولذلك لا يرى جدوى سلسلة التحقيقات الصحفية التي أريدُ بدْءَها. «

استطاعت «أروى» أن تصيبه بعدوى الحماسة فوجد نفسه يعتدل في مقعده متسائلاً:

- «أيّ قانون تتحدثين عنه؟.»

- «الحوادث الكثيرة المتلاحقة.. القتل والاغتصاب والجرائم التي لا يتم الحكم فيها بالإعدام لمجرد أن القاتل لم يتم الثامنة عشرة بعد .. حتى إن كان قد ارتكب الجريمة قبلها بشهر واحد!».

- «هل تريدين استثناءات مثلاً في القانون؟».

قالت وقد أصبح جسدها يصدر عنه طاقات حماسية مشتعلة قادرة على إصابة كل مَن يجلس في محيطها:

- «بل أريد أن يتغير القانون من الأساس.. ويكون الحكم في هذه القضايا رادعاً ومرعباً».

- «اشرحي أكثر من فضلكِ».

- «بأن يكون الحكم في هذه القضايا المفجعة بالبلوغ .. يكفي أن يكون القاتل قد وصل لسن البلوغ.. وهذا ما سيحدده الطب الشرعي في مثل هذه الجرائم .. وليس بضرورة إتمام القاتل لعمر الثامنة عشرة».

كانت مقابلة مجنونة كصاحبتها بكل المقاييس، فلقد رفعت من حماسته وفي نفس الوقت لم تُطمئنه تماماً تجاه ردَّة فعل زوجها، رسمَتْ له مخططاً عن كيفية الدخول في حوار مع «عاصم»، فطريقه الوحيد هو الصراحة ولذلك سيذكر له «محمود» نصف الحقيقة وسيخفي النصف الآخر والمتعلق بكونه زوج «فنار» فقط، وستنتظره حتى ينشر تلك المعلومات التي سيسمح له «عاصم» بنشرها على صفحته الشخصية، ثم تقوم هي بنشر التحقيق وكأنها نسخت المعلومات من صفحته لتقوم بالتغطية على مصدرها الحقيقي.

كانت تتحدث بثقة عن استحالة اكتشاف أمرهما، فهو وزوجها لن يتقابلا أبداً كما لم يفعلا من قبل برغم صداقتها القوية بـ«فنار»، ولكن «محمود» كان يعلم أنَّ المصادفة لا تترك شيئًا مخفيًّاً، وعندها سيكون هو الضحية، وربما تكون نهايته في أحد السجون متهماً بالجاسوسية!

- ألم تقل بأنك تضور جوعاً؟!

انتبه «محمود» إلى صوت «فنار» التي كانت قد أتمَّت وضع الأطباق فوق الطاولة الصغيرة وتقف قُبالتها حانقة، وبالرغم من أنها تدرك أنَّ سبب شروده هو أنها ذكَّرته بتلك القصة المَشوقة، ولكنها تكره أن تراه في هذه الحالة، شريد الذهن بعيداً عنها!

- ألن تأكلي معي؟.

كان ينتظر ردَّاً منها بالرفض وهو يسحب مقعده ليجلس، ولكنَّها تحركت كالآلة وقامت بسحب مقعدٍ آخر وجلست تراقبه وهو يتناول طعامه بنَهم دون حديثٍ بعد أن أثنى على طريقة إعدادها له وحسن مذاقه فلم تجبْه تاركةً الصمت يغلفهما لا يكسره سوى صوت أدوات المائدة المنخفض بوتيرة مملة حتى انتهى وقد شعر بما يفوق الشبع، نهضت بتكاسل وهي تعيد وضع الأطباق في المغسلة وهي تسأله سؤالاً دافَعَتْه كثيراً لكنَّه أبَى:

- هل تُعجبكَ أروى .. أقصد حماستها واندفاعها في حل الأمور؟.

قفزت ابتسامة صغيرة إلى طرف شفتيه وهو يقوم بتجفيف يديه وهو يجيب متظاهراً بالدهشة:

- هذا السؤال متأخر جداً . !

قالت بجفاء مبالغٍ فيه:

- لم يكن بيننا حديثٌ وقتها.

- من الممكن أن نقول بأنها تروقُني .. حماستها واندفاعها!

ثم تلكَّأ قليلاً وهو يراقب نظرات الاتهام التي تندفع من عينيها واحدة تلو الأخرى قبل أن يستطرد مُردفاً ومحاولاً الاقتراب:

- تروقُني؛ لأنَّها تصلح لحلِّ مشاكلها مع شخص مثل عاصم.. أما شخص مثلي .. فلا يصلحني سوى الصبر.. كما فعلتِ.

- أنا ابتعدتُ فقط.

همسَتْها وهي تُطرق برأسها، وكأنها لا تدري هل ما فعلَتْه كان في صالحه أم لا؟، ماذا لو كان ابتعادها كان سبباً في أن يتوغل أكثر في طريقه القديم، لقد تركَتْه لِهَواه وشيطانه، وقدَّمَتْه بلا إرادة لهما على طبق من فضة، لم تحارب بما يكفي لأجله:

- أي امرأة غيرك لم تكن لتتحمل ما تحمَّلْتِه .. الزوجة ربما تُسامح لو خانها زوجها مع واحدة أو اثنتين .. لكنني كنتُ أخونكِ كلَّ يوم مع عشرات العاهرات .. وصبرتِ وحاولتِ بكل الطرق ولم تيأسي إلَّا بعد أن حرمتك من الأمان الذي تسعى الفتيات إلى الزواج من أجله .. وكان من جميل قدرك وقدري، أنَّ والدك - رحمه الله - كان إلى جوارك في تلك اللحظات.

سقطت دمعة فوق أصابعه المُمسكة بذقنها في اللحظة التي أراد فيها أن يرفع عينيها نحوه وسمعها تقول بنبرة حائرة:

- كان هو ملهمي في ابتعادي عنكَ دون طلاق .. قال: إنَّكَ بداخلك نبتة طيبة .. وما عليَّ سوى أن أصبر وأرعاها .. ولكن من بعيد حتى لا تؤذيني أشواكها.

- أُقسم لكِ أنَّ الأشواك كلها غُرزتْ في قلبي وحدي عندما تركتِني.. ولكن الابتعاد كان لصالحي .. فلقد كنتُ أسترشد بكِ وبضوئِك الآتي من بعيد يوجهني أي الطرق أسلُك.

رفعت «فنار» حاجبيها دَهِشَةً تاركة أصابعه تعمل على وجنتها متسائلة:

- هذا ليس كلامكَ .. هل أصبحت تقرأ الروايات الرومانسية؟!

اتسعت ابتسامته، لا زالت تذكر هواياته وتعرف تفاصيله، قام بتقبيل كلتا يديها بينما المسافات لم يعد لها مفردات بينهما وهو يزيد نورها وهجاً:

- لم أقرأ سوى رواية واحدة .. بطلتها هي ملِكة الصبر التي قررتْ بعد سنوات من العذاب أن تمنح رعاياها كلَّ صكوك غفرانها.



«رمزي أرجوك .. اتركني» كانت تبكي بينما هو يدفعها نحو هوة سحيقة مليئة بالوحوش والخناجر الحادة المصوبة كُلّها لأعلى، كان يبتسم بخبث حتى تحولت ابتسامته إلى ضحكات شيطانية وهو يجذب حجابها عن رأسها، زلت قدماها، وكادتا أن تسقطا بين الأنياب، ولكنه أمسك بها في اللحظة الأخيرة «لن أسمح لكِ بالسقوط» ، قالها وهو يقبض على ذراعها فظنت أنه تذكر أخيراً أنها أخته ويجب عليه حمايتها، لكنه لم يتركها تتأمل كثيراً، مدَّ يده وقام بدسِّها بداخل حقيبتها العالقة بمِرفقها وقبض على كومة من المال وضعها في جيبه ثم قام بدفعها بقسوة نحو الظلام الذي ابتلع صراخها عن آخره!.

– هل أنتِ بخير؟!

فتحت عينيها فجأة لاهثة تنظر إليه بخوف مُحدق، كانتا متسعتين برعب وجبينها يتفصَّد عرقاً بينما جسدها يختضُّ بقوة، فكرر عبارته مُجدَّداً بقلق:

– غفران.. أأنتِ بخير؟.

دخل جسدها في حالة استرخاء رويداً رويداً، رأسها يعود إلى الوسادة من جديد وهي تحاول السيطرة على تنفسها المذعور، كابوسٌ بشعٌ كعادتها، لا تملك دفعه عنها، لا ينفك يطاردها حتى وهو ميت.

أرادَتْ أن ترفع يدها؛ لتمسح جبينها ولكن نغزة فيها آلمتها فأدارت رأسها نحو ظهر كفِّها ببطء فوجدت أنبوباً طبياً له إبرة مثبَّتة هناك، والقطرات تمر من خلاله رويداً إلى أوردتها!.

– كيف فعلتَ هذا؟!

نطقتها متعجبةً بوهنٍ وهي تسمعه يزفر براحةٍ وينهض واقفاً يراقبها بنظرة مطوَّلة قبل أن يقول باقتضاب:

– غير مهمٍّ .. المهم أنكِ أصبحتِ بخير .. ارتاحي الآن، وإذا احتجتِ إلى شيء ما فناديني على الفور.

قال كلمته الأخيرة وهو يهمُّ بالخروج من غرفتها الصغيرة، فهو لم يغفل عنها منذ سقطت فاقدة الوعي، كانت نبضاتها تضعف وتهذي بعبارات غريبة مبتورة حتى صمتت وتهاوَتْ دون حراك، كان لا بد من تدخل سريع، فلم يخب ظنه، وحضرت الإسعاف خاصته على الفور.

بعد أن انتهى كل شيء وعاد الاستقرار إلى الأجواء من جديد، جلس إلى جوارها يراقبها ويستمع إلى هَمْهَماتها عن كوابيسها التي تدور كلها حول «رمزي» ووالدها، إنها ضائعة مرتعبة كارهة لنفسها بطريقة عجيبة، يجب أن يستنطقها بعد أن تسترد عافيتها ليعلم ماذا تُخفي؟، أما الآن فيجب أن ينسحب بهدوء وقد بدأت الحياة تدبُّ بها من جديد.

لا داعي أن يلعب دور مربية الأطفال بعد هذا، هل كان ينقصها هي الأخرى.

– حسن .. كيف هي أمي؟!

عاود الالتفات إليها وهو يقول كاذباً:

- إنها بخير.

- أنت تكذب!

حروفها كانت تقطر ثقةً، سؤالها في حد ذاته لم يكن له داعٍ، فكيف سيكون الغصن بخير بعد أن يسقط الجِذع ميتاً؟!، وأمها ليست غصناً من الأساس، إنها مجرد ورقة متأرجحة في مهبِّ الريح، تسير مع اتجاهه يأخذها أين يشاء.

ورقة شجر وقفتْ باكية ساكنة بينما ابنتها تخرج من المنزل إلى المجهول، لم تكتفِ بالسكون فقط، بل كان يجب أن تثبت ولاءها التَّام للذَّكَر الوحيد المدلل، حاكم الغد على عرش البيت، بل هي بنفسها مَن قامت بسَلْخها من شقتها إلى شقة خالتها الشمطاء التي قذفت بناتها قبل أن يتممْن التَّاسعة عشرة لأول مَن تقدَّم للزواج للتخلص منهن.

- لا أعلم ... لم يأتِني أيُّ خبر عنها ... لا تقلقي.. سأُعيدكِ إليها عندما تتعافين!

شعُر أنه أُجبر على قولها، إنه يقوى على كل شيء إلا الأمّ، كل أُمٍّ تُذكره بأمِّه، حَرْفان يجبران غضبه على الركوع وربما البكاء، حرفان لأجلهما يمنح حياته بأكملها، ويخوض حرباً ضروساً للشعور بضمة الأول وسكون الثاني!

عادت تُهمهم مُجدَّداً بصوتٍ باكٍ فخشي أن تنتكس ثانية، اقترب من فراشها حتى وصل إليها ثم انحنى يرهف السمع :

- دافعتُ عن نفسي فأبعدوني واحتضنوه .. ولو كنت تركته يفعل بجسدي ما يشاء لقتلوني وتركوه .. في كل الأحوال لم يكونا ليحبَّاني أبداً.

وجد «حسن» قدميه تجثوان، فجلس القرفصاء أمامها وقد اتسعت عيناه مُحاولاً نفض أذنيه عما استمع منها !

- غفران .. ماذا تقولين؟!

انفرج جفناها بضعفٍ، وأطلت من عينيها نظرة استغاثة بأثر رجعيٍّ هامسة:

- حميتني ذات مرة من كلاب الطريق .. وأمرتني أن أذهب إلى بيتي .. كنت أتمنى أن أعود إلى الورشة خاصتك .. ففي الشارع كلابٌ، وفي البيت ذئب رابض .. أشاركُه الغرفة ذاتها.

عصفت به الذكريات وتزلزلت الأرض من تحته «اعتبرها مثل أختكَ يا رمزي» ، لم تكن «سلمى» فقط هي المسكينة الوحيدة، كان هناك أخرى بائسة ترمي السلام إليه بنبرة استغاثة لم ينتبه لها، كانت تستغيث بالبعيد من القريب، يبدو أن الخذلان صفة بشرية، لا يوجد على الأرض مَن هو بريء منها، بقصد أو بدونه .. جميعنا مَهرةٌ به.

حديثها جعل ركبتيه تصطدمان بالأرض فبدا جاثياً كمَن يعتذر وهو صِفْرُ اليدين، لم يستطع نصرتها في الماضي، ولن يستطع الانتقام في الحاضر:

- أنا آسف .. لم أهتمّ بأن أفهم.

- لم يكن بيدك شيء لتفعله!

- على الأقل كنت سأحاول .. وإذا فشلتُ معهما .. كنت سأتزوجكِ.

اتسعت عيناها ذهولاً فأردف على الفور:

- آسف لوفاة أبيكِ.

وكأنه قد تناول مِمحاةً وقام بمحو عبارته السابقة عن الزواج من رأسها، عادت عيناها تذبلان من جديد، وانتظمت الخفقات التي كادت تفشي سرها الصغير بدويها الفاضح، وهمست بإنكار:

- هو لم يمُتْ.. هو فقط لم يشأ أن يترك يدَ رمزي .. فهو لم يفعلْها أبداً.

إنه يفهم، ومَن غيره سيفهم إن لم يفعل هو؟، هو من عانى طيلة ماضيه من جفاء والد لم يكن يحتاج منه سوى العطف فقط، لقد تم بيعها كما حدث له تماماً، الفارق الوحيد بينهما أن والدها لم ينسبْها إلى غيره، لا يمتلك القوة الكافية والشفقة ليدعوها إلى الترحم عليهما، إنها طريدة جنَّة الأب .. مثله بالضبط، غير أنها لا زالت تملك أماً في حاجة إليها.

- لم يكتفِ رمزي بكل ما فعله بي .. بل كان يترصدني في الشارع المظلم المؤدي إلى بيت خالتي ويأخذ بالغصب كل ما في حقيبتي وهو يضربني.

لم تكن تحدثه، كانت مُسبِلة الجفنين، تقبض راحتيها إلى صدرها وهي ممدَّدة على شقها الأيسر، بينما وسادتها تشرب بنَهم كل دموعها، ماضيها ينزف ألماً وغربة وحيرة، والآن بات مشبعاً بالإنكار:

- كل تلك السنوات وهو يتربص بي .. لن أنسى أبداً اللقاء الأول بيننا بعد خروجه من القضية وقد أصبح حرًّاً .. لن أنسى هاتين اليدين اللتين قبضتا على عنقي ودفعتاني نحو الجدار.. كانت ليلةً مظلمة وبالرغم من ذلك رأيت عينيه تنضحان كرهاً وشرًّاً وهو يسلبني أموالي ويلطمني على وجهي ...

لن أنسى أبداً ما قاله لي في تلك الليلة «سأجعلكِ تدفعين ثمن كل دقيقة قضيتها وابن الحرام هذا يجعلني أخدمه هووورشته القذِرة تلك .. ستجدينني هكذا أمامكِ دوماً .. وعدٌ عليّ لن ترتاحي أبداً ما دمتُ على قيد الحياة».

نبرتها بدأت تعلو غضباً مع كل كلمة تهذى بها، فلم يحاول أن يُقاطعها، يشعر بها في حالة غليانٍ تدفعها نحو فُوّهة نفقٍ مظلمٍ مشتعلة نهايته، وعليه أن ينتبه كما تم تحذيره:

«إنها تعاني حالة صدمة وإنكار لموت والدها، وعندما تستفيق ستجلدهما .. فدعها تُخرج ما لديها لترتاح وتجتاز عنق الزجاجة ..»

- لم أتعلم درسي .. ذهبت إلي أبي وأخبرته وأنا باكية أن يجعل ولده الحيلة يدعني وشأني.. فكذَّبني وطردني ثانية إلى بيت خالتي .. خالتي التي بدأت تشتكي لأمي أنني لا أمنحها ثَمَن طعامي وأصرف كل راتبي ثم أدَّعي أن رمزي أخذه مني غصباً .. لم يصدقوني يا حسن.

رفع عينيه إليها وقد أدرك أنها تحدثه هو من البداية ، تقصُّ عليه حكاية سندريلا جديدة أخرى، وبالرغم من معرفته أنه لا يصلح لدور الأمير؛ لكنه مُوقن أنَّ باستطاعته أن يكون ساحراً، ولن يكون بخيلاً كما ساحرة الحكاية، لن يمنحها دقات ساعة منتصف الليل فقط، سيمنحها دقات أخرى لن تتوقَّف ما دام فيه نفس يتردد!.



لم يعرف كم مرَّ عليه من ساعات وهو جالس هكذا بجوار سريرها مستنداً إلى الجدار مغمض العينين، لا يفتحهما إلا عندما تستفيق هي للحظاتٍ من كابوس تعيشه في حلمها؛ لتبكي ثم تعود لغيبوبة النوم مجدداً، كل كلمة استمع لها كانت سبباً في أن يلعن نفسه مرات ومرات؛ لأنَّه لم يتمكن من رقبة «رمزي» ويقتله بيديه ما دام لا يوجد لأمثاله عقابٌ رادع، ليس هو وحده، بل كلّ مَن هو على شاكلته، الآن شعر براحة ضمير لم يشعر بها من قبل، جميعهم استحقوا ما فعل بهم وزيادة!، كل ما فعله هو مكالمة هاتفية علم بها ما حدث لأمها، وأخرى جاءت محمّلة بأخبار وتفاصيل تحذِّره وتأمره بأن يبقى مكانه؛ فالوضع قد تأزم أكثر!

- أمّي !

اعتدل سريعاً في جلسته حتى عاد إلى وضعه الأول جاثياً على ركبتيه مستنداً بذراعيه إلى الفراش يناظرها بترقُّب وقلق لحالتها المتقلِّبة تلك، لكنها هذه المرة كانت تبادله النظر، هذه النظرات الضائعة تخبره بأنها لم تكن تعِي تماماً ما حدث وما كانت تتفوَّه به:

- من فضلكَ .. أريد أن أطمئنَّ على أمي.

- إنها بخير.

كلاهما يعلم بأنه يكذب، ولكنها لا تملك غير أن تصدقِّه، فنحن ندفع أنفسنا دائماً لتصديق ما نتمناه، وإن كان مستحيلاً، مهارة أخرى نمتلكها جميعاً .. نجيد خداع أنفسنا !.

أمَّا هو فيُوقن بأن إخبارها بالحقيقية أمرٌ غير هيِّن وستُدهور حالتها الصحية أكثر، كيف سيشرح لها أنَّ والدتها سقطتْ بمجرد سماعها لخبر وفاة زوجها بعد أن عاين جثة ولدها المقتول؟!

مصيبتان في آنٍ واحد تقع على عاتق امرأة انتزعوها من حقل أبيها قبل أن تتم السابعة عشرة وألقوا بها إلى رجلٍ لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه مثله!، ولقد كان مثله بالفعل، لذا لم تشعر بالغُربة عندما كان يسفِّه من رأيها أو يزجرها قبل أن تتفوّه بكلمة اعتراض، هذا هو الرجل كما نشأت وترعرعت، طيِّعة تحت إبطه أربعةً وعشرين عاماً، لاترى إلا ما يُريها ولا تهتدى سوى سبيله، فكيف بدجاجة الحقل المصابة بداء السّكري عندما يختفي كل ذكور قفصها الوحيد؟!، لابد وأن تسقط في غيبوبة هاربة ريثما تستفيق، وتجد أنَّ كل شيء بخير أو أنَّ مَن أخبرها بتلك الأخبار المشؤومة كان يمزح معها !.

– لو اهتممتِ بنفسكِ وعادت إليكِ عافيتكِ فسأُعيدكِ إليها على الفور.

أغمضت عينيها دون جواب، فصمت هو الآخر وهو يتنفس براحة، لقد أنقذَتْه بعدم استكمال هذا الحديث الذي كان من الممكن أن ينتهي بإطلاق سراحها على الفور كما وعد، هو لا يرجع في كلمة منحها أبداً، لذا أراد أن تتراجع هي ولا تطلب الرحيل الآن، لا زال يحتاج بعض الوقت لتتضح الرؤية أكثر!

أما هي فلم تكن قد نامَتْ كما تصور، لقد كانت تمارس عادتها في الهروب بإغماض عينيها، كادَتْ أن تفلت شهقةٌ منها عندما شعرت بأطراف أصابعه تمس قدمها المقيدة، ولكن قبل أن تفعل انتقلَتْ يده إلى القيد واستمعت «غفران» إلى تكّة الحرية وبالألم الذي يخلُف القيد والذي يذكرنا دوماً بأننا كنا أسرى!.



لم ينسَ «عاصم» تلك النظرة المرتبكة التي أطلَّتْ من عيني «رجاء» عندما نطق بعبارته الأخيرة حينما رآها، هدية من السماء هبطت فوق رأسه فصحبها ألمٌ لطيفٌ وشعورٌ بالفخر!، هو أيضاً أصاب خططه بعض الارتباك لذا لم يحصر جُلّ تركيزه مع «أمل» .

كان مشتتاً قليلاً وهو يعيد ترتيب حساباته، تبادل معها حديثاً قصيراً حول قضيتها التي قامت بالتنازل عنها، ولكن «أمل» بكلماتها المقتضبة ونظراتها المتباعدة ونبرتها المنخفضة لم تمنحه سوى ما كان يعرفه بالفعل.

ثم إنَّ الدكتور «يحيى» لم يمنحه مساحة للضغط عليها أكثر، لقد أصر على التواجد أثناء حديثه معها، كان يقف بجوارها؛ ليمنحها الثقة والثبات، وبين كل سؤال يوجهه إليها وآخر كان «يحيى» يذكره بأنها لا زالت في طور العلاج، والحديث المتزايد في تفاصيل قضيتها التي تسببت في مرضها النفسي سيتسبب في انتكاستها مرة أخرى .. لذا قرر الاكتفاء منها والذهاب إلى حيث الصيد الثمين.!

خرج من المصحة النفسية بخطوات متعجلة دون أن يحاول البحث عن «رجاء»، لقد قرر البحث خلفها أولاً!، وبعد عدة ساعات من التحرِّيات حولها بدأ في جمع التفاصيل في رأسه؛ ليجد حلقة الوصل، التفصيلة الأولى أنها أرملة تعمل كممرِّضة في مصحة نفسية، لم تتزوج بعد وفاة زوجها وعكفت

على تربية ابنتها الوحيدة ذات العرْجة الواضحة في إحدى ساقيها، وقد كانت سفينة الحياة تسير بها حتى تزلزلت الأرض من تحت أقدامها ..منذ ثلاث سنوات .. عندما رن هاتفها صباحاً أثناء رحلة عودتها إلى منزلها بعد انتهاء ورديَّتها الليلية المعتادة محملاًّ بخبر مقتل «سلمى» !.

أما التفصيلة الثانية والتي كان على علم بها أن «رجاء» صديقة للسيدة «جليلة» منذ سنوات طويلة، وأواصر الصلة مترابطة بينهما بشدة، فقد كانت في صحبة «رجاء» في تحقيقات النيابة عندما ذهبَتْ للتعرف على أوصاف قاتل ابنتها، ولم تتركها أثناء جلسات التقاضي التي استمرت ثلاث سنوات إلا بعد عام كامل .. عندما تم اختطاف ابن السيدة «جليلة» ثمَّ قتله.

أطفأ «عاصم» لِفافة تبغه وهو يزفر، فقد تشتَّتت أفكاره أكثر، هناك حلقة وصل مفقودة!، وليعثر عليها كان لا بد بأن ينبش كل القشّ، ربما يجد الإبرة المنشودة.

طلب ملف قضية مقتل «سلمى» ابنة «رجاء»، وأخذ في دراسة تفاصيله، «سلمى» تمَّ ضربها بآلة حادة فسقطت تنزف أسفل شجرة كبيرة في ليلة عاصفة، وبعد قليل عُثِر عليها وتمّ نقلها إلى أقرب مشفى حكومي، وهناك سلمت الروح إلى بارئها، وأثناء التحقيقات أدلت الأم بمواصفات شخص كان يضايقها ويتحرش بها يعمل في ورشة الميكانيكا الملاصقة للمكان الذي تم العثور عليها فيه والشرطة ألقت القبض عليه والذي يُدعى «حسن أنور برهان» صاحب الورشة، والذي قام بالدفاع عن نفسه وإلقاء التهمة على مساعدِه في الورشة والذي يدعى «رمزي حافظ رمزي» وعندما تمَّتْ المواجهة التبس الأمر على «رجاء» في البداية ثم قالت: إنّ المواصفات تنطبق على «رمزي» بنسبة كبيرة!.

ثم حدثت المفاجأة وتقدم والد «حسن» للشهادة كشاهد عيان على الجريمة وقال: إنّه شاهد «حسن» مع المجني عليها في نفس توقيت وقوع الجريمة، وقد كانا يتشاجران أسفل الشجرة الملاصقة للورشة خاصته!

ها قد بحث في الخلفية كما أراد، إلاَّ أن النتيجة صفر، ما زالت الإبرة مفقودة، والطريق أمامه طويل.

أشعل «عاصم» اللفافة التي لم يعد يعرف عددها منذ أن فتح ملف القضية وبدأ في قراءته بتمعُّنٍ، ونهض يدفع ذراعيه للخلف عدة مرات ليصلح من شأن عضلات كتفيه الخلفية المتشنجة وهو يعود إلى وقفته المعتادة أمام النافذة يطرد الدخان إلى الهواء الطلق، ويستدعي الهواء النقي إلى رئتيه .. ويُفكِّر، الدائرة تتسع أكثر مما يجب، والخيط الواحد أصبح كرةً من الخيوط المتشابكة، الأوراق الرسمية صمَّاء ولا تفي بالغرض، لا بد أن يتحدث معها وجهاً لوجه، هي الآن باتت مستعدة لهذا اللقاء بعد أن تعرَّف عليها في المصحة النفسية، لذلك إن استدعاها بشكل رسمي فسيكون حديثها معه أجوف تم تحضيره مسبقاً، ثم إنَّه لا يريد أن يصل إلى نفس النقطة .. السيدة «جليلة» سيتم الزَّجُّ بها، وهذا ما لا يريده .. على الأقل الآن!



«كوني مستعدة لمواجهة قريبة» نصيحة قِيلَت لها منذ أن رأته في المصحة وقامت بتنفيذها بالحرف الواحد، أعدَّتْ نفسها للقاء كل ساعة حتى أنها لم تعد تبدّل ملابسها بعد عودتها من العمل، تنتظر مقابلة وديةً أو حتى أمراً بالقبض عليها، في كل الأحوال لم يعُد هذا أمراً يؤرِّقها كثيراً، إنها حتى لا تعلم لماذا تظل تمارس حياتها بشكل طبيعي؟، تعمل وتتناول طعامها وتذهب للنوم!، لَمن تعمل ولَمن تحافظ على حالتها الصحية؟ .. لقد تحقق ما كانت تحيا لأجله طيلة السنوات الثلاث الماضية وعادت إلى نقطة الصفر.

شُفي غليلها وانقضى انتقامها وتبقت الوَحدة تحاصرها مع الذكرى، تطرق أجفانها كلَّما استيقظت لتذكرها بأنها لم يعد هناك ما تنهض لأجله، بينما صورة «سلمى» المؤطَّرة على الطاولة المرتفعة بجوار السرير تؤنِّبها وتخبرها بأنها هي السبب..

هي مَن ساعدت «رمزي» الجبان على ما فعله بابنتها المسكينة ولا مانع لديها من أن تتعلَّق رقبتها بحبل المشنقة الآن لترتاح وتنال عقابها الذي تستحقه أمٌّ مُهملة مثلها.

انتهت من إعداد فنجان القهوة وتقدَّمت به تحمله في صمت بارد نحو غرفة الصالون الذهبية كمقاعدها ذات الأرجل الأنيقة المرتفعة بشموخ مَن يعرف قيمته التي تزداد عبر الزمن.

ظل «عاصم» يرقبها دون أن يحاول النهوض لمساعدتها وهي تتقدم بحذر حتى لا تُفسد وجه قهوته الثخين ذات الرائحة النفاذة حتى وضعَتْه على مهل أمامه على الطاولة المنخفضة بيضاوية الشكل والتي تأخذ نفس لون مقاعدها التي تلتف حولها بطريقة يبدو منها أنها لم تتحرَّك من مكانها منذ زمن، فنهايات الأرجل الرفيعة منغرزة في السجاد ذى السُّمْك العريض حتى حفر مكانه كوَسْمٍ أبدي.

تناول «عاصم» الرشفة الأولى، بينما عيناه تشيعانها وهي تدور حول الطاولة لتتخذ الأريكة مجلساً عن يسار مقعده، احتسى ببطءٍ وتلذَّذ ما تبقى من قهوة في فنجانه محاولاً إتلاف تماسكها الذي قابلَتْه به منذ قليل ولا زالت تحتفظ به أمامه.

أعاد فنجانه إلى صحنه الصغير بابتسامة شاكرة والتفت إليها يواجهها مدققاً النظر في ملامحها الثابتة قائلاً بخبث:

– كيف حال الحاجة «جليلة»؟، أتمنى أن تكون بخير الآن.

– بخير.. وتُرسل إليك السلام!

عبارتها كانت تشبه الطعام المُعلَّب، تتقبله دون أن تنتظر منه رائحة نفاذة أو طعماً خارقاً إلا أنك مضطرٌّ إلى أكله في النهاية !

– يبدو أنها عرفت أننا قد تقابلنا .. وتوقَّعَتْ أن يتكرر اللقاء!

– نعَمْ .. أنا أخبرتها .. فقالت: إنك ستفعل، وأرسلت لك التحية.

– كيف تعرفتما ببعضكما يا ترى؟.

تحقيق بنَكْهة جلسات السَّمَر!، ولم لا؟، إنها تعرف ذلك وتفضله منذ أن كانت «جليلة» تحكي لها عنه وفي كل الأحوال لن تشكل طريقة تحقيقه معها فارقاً:

- تقابلنا منذ سنوات طويلة في عيادة طبيبة نسائية فهي كانت تجوب الأرض بحثاً عن علاج لتُنجب طفلاً لزوجها .. كانت ودوداً جدًّاً معي، وحكَتْ لي: إنَّها نزحَت إلى القاهرة مع زوجها الذي كان يعمل في البناء للبحث عن عمل .. وقد كانت تظن بأنها عاقرٌ حتى اللحظة التي تقابلنا فيها في العيادة النسائية وقد كانت محاولتها الأخيرة .. وقد كنت أعرف أحد المراكز المتخصصة في هذا الشأن بحكم عملي حتى وإن اختلف التخصص .. فمنحتها رقم هاتفي وبدأنا نتواصل من يومها وحتى يومنا هذا.

ارتكز «عاصم» يستند إلى راحة كفه مستمتعاً ويشير لها بيده الأخرى قائلاً بنبرة متسلية ساخرة:

- وماذا حدث يا ترى؟.

ظلت «رجاء» محتفظة بجمود ملامحها ولم يظهر عليها أيُّ تأثر من سخريته الواضحة واستمتاعه على حسابها وقالت متابعة كإنسان آليٍّ:

- بدأنا رحلتنا من هذا المركز وتعرفنا فيه على طبيبة استطاعت مساعدتها بعد أن أخذت في الاعتبار قدرتها المادية المحدودة .. وحدثت المعجزة وباتت الحاجة «جليلة» حاملاً للمرة الأولى بعد أن كانت قد أتمت الأربعين من عمرها.

- لابد أنَّ لزوجها أولاداً من زوجة أخرى؟

خرج سؤاله ببعض الاهتمام الحقيقي، ليس تعاطفاً وإنما لاعتقاده أنه ربما هناك شخصٌ ما يسعى إلى الثأر خارج الدائرة التي يبحث فيها، ولكنها أحبطت آماله مجيبة:

- زوجها أغرَتْه مياه البحر وهو شابٌّ فسافر بطريقة غير رسمية إلى بلدٍ آخر وهو يحلم بالثراء.. وهناك أضاع شبابه كاملاً وفي النهاية تم ترحيله وعاد إلى موطنه على مشارف الثلاثين من عمره ولا يملك غير الستر كما يقولون .. فتزوَّج أوَّل من وافقَتْ به من قريباته والتي كانت قد فاتها قطار الزواج .. ولكن الباحث عن الرحيل يظل دائماً رحَّالاً فنزح إلى القاهرة بها واستقرا في نفس شقتهما التي تعرفُها لسنوات دون إنجاب بعد أن خابت كل وصفات الطب الشعبي على مدار سنوات زواجها وتنقل زوجها من عمل إلى آخر والذي لم يكن لديه رغبة في إنجاب المزيد من الفاشلين كما كان يطلق على نفسه.

- ثمَّ ؟.

- طفلها كان طفلي أنا أيضاً .. لقد حملتُه على يديَّ هذه حتى تستفيق هي من مخدِّر الجراحة.. ألقمته أول جرعة ماءٍ بالسُّكر في فمه .. كنتُ أنا أول من نظر له واحتضنتُ طفولته .. وكنتُ أنا أيضاً أول من احتضنت جثته بعد أن وجدتموه قتيلاً عارياً يا عاصم بيه.

جملتها الأخيرة خرجت منها بقهر ومرارة ونبرة، لا زالت مذهولة وكأنها تعاين جثته للتوِّ وتتساءل: لماذا يحدث هذا لطفل في العاشرة، أي بلدٍ هذا؟ وأي بشر هؤلاء؟!.

نعَمْ، ذاب الجليد الذى كانت تغلف به نبرتها وملامحها، وظهر من خلفه شقوق وكهوف تكفي لتخبِّئَ بداخلها كل وحوش الأساطير!

- كما وُجِدَتْ ابنتكِ مقتولة على قارعة الطريق .. أليس كذلك؟.

أطلت نظرة كره وحقد مطولة، كان يعلم أنها تتألم، ويعلم أيضاً أنها اللحظة المناسبة؛ ليعثر على مبتغاه ويقوم برش الملح على الجرح الغائر وهو لازال مفتوحاً ينزف قيحاً:

- وياليتكم صدقتموني!.. لقد صدقتمْ عجوزاً يكره ولده واثنين من متعاطي المخدرات.. وأطلقتم سراح المجرم الجبان بينما البريء تم سجنه ظلماً وهو لم يرتكب ذنباً سوى أنه كان يدافع عن ابنتي ويحاول حمايتها .

طاقة من الغضب نفذَت من عينيها إليه، فهو رمز للعدالة التي ظلمَتْها هي وابنتها، لا فارق بينهما كبيراً، نهضت كشعلة انطلقت فجأة هاتفة:

- أنا ليس لديَّ شيء متبقٍّ لأبكي عليه.

نظر لها «عاصم» وهو لا زال يجلس مكانه دون أن يتحرك، محاولاً تشتيت طاقة الغضب التي انفجرَتْ عنها، فهو في حاجة؛ لأن يفهم ويربط التفاصيل ببعضها البعض فقال بهدوء بعد لحظات من الصمت:

- أستطيع أن أفهم علاقتك بالسيدة «جليلة».. ولكن ماهي مصلحتك فيما حدث للطبيب في عيادته؟.

بالفعل بعثرت كلماته بعض شرارت غضبها كالرياح هنا وهناك فهدأت قليلاً مع بعض التشتت في الأفكار وعادت تجلس نافية:

- لا أفهم عمَّ تتحدث؟.

نهض واقفاً ليواجهها وقد استعاد جديته متخلياً عن قناع التودد الذي ارتداه منذ أن وضع يده يضغط جرس بابها قائلاً:

- ربما تفهمين عندما تتم مواجهتك بالممرضة التي تعرفت على صورتكِ يا «رجاء».

ابتسمت ساخرة وهي تسأله بلا اكتراثٍ:

- أيُّ صورة؟

- أريدكِ أن تحتفظي بابتسامتك هذه أمام وكيل النيابة وهو يسألك عن سبب ذهابك لزيارة القتيل وأنتِ تخفين ملامحك بأصباغ الزينة.

اتسعت ابتسامتها أكثر وهي تقول بثقة:

- وهل زيارة طبيب أثناء وضع أصباغ الزينة جريمة أقف أمام النيابة لأجلها يا عاصم بيه؟!

لقد استفزته حقاً، وأخرجَتْه عن تمدنه الذي يدَّعيه، علمت ذلك عندما قبض على ذراعها بقسوة فتألمت وهو يصرخ بوجهها:

- لا .. وضع الأصباغ وزيارة الطبيب ليست جريمة .. ولكن عندما تقترن باسم وهميٍّ كالذي قمتِ بانتحاله فهي بالطبع ليست مجرد زيارة ..أليسً كذلك يا.. «رواء حامد»؟.

نطق «عاصم» الاسم الوهمي وهو يضغط حرفاً حرفاً بنظرة انتصار، لقد سخرت منه، وأخرجت المارد من القُمقم وعليها أن تتحمل عاقبة أفعالها.

- يبدو أن الممرضة قد استمعت إلى اسمي وقامت بكتابته بشكل خاطئٍ .. فأنا اسمي رجاء حامد.. وليس رواء حامد .. اعذرها يا عاصم بيه فهي تستمع إلى عشرات الأسماء في اليوم الواحد،.. والخطأ وارد في اسمٍ بالكامل.. فما بالك بالخطأ في حرف واحد؟!!

ضربَتْه في مقتل، أراد أن يتركها فقط؛ ليصفِّق لها، أيُّ محامٍ مبتدئٍ يستطيع أن يدفع عنها التهمة بما قالت ويُخرجها منها كالشعرة من العجين، لذلك هي واثقة ثابتة تعرف ماذا تفعل، أقر بهذا بداخله دون أن يعلم أنها ثابتة؛ لأنَّها لم تعد لديها شيء؛ لتخسره!.

- مَن الذي يقوم بالتنفيذ يا «رجاء»؟.. لو ساعدتِني فسأعتبركِ «شاهد ملك» في القضية .. ما رأيكِ؟.

رنين هاتفه هذه المرة قاطع ابتسامتها التي كانت على وشك قتله بسخريتها، ابتعد عنها قليلاً؛ ليجيب على المتصل، إنه الضابط الذي قام بالتحقيق في قضية قتل «سلمى» والذي ساعد «عاصم» في جمع التحريات اللازمة عن القضية:

- عاصم باشا.. هناك معلومة ربما تفيدك تنتمي للقضية التي تقوم بجمع التحريات حولها.. لقد عثرنا منذ أيام على جثة رمزي في طابقٍ أرضيٍّ بمنزل مهجور ومتهدم .. وعندما عاين والده جثته اتهم حسن بأنه هو مَن قتله .. ولدينا معلومات مؤكدة أن حسن بعد خروجه من السجن قام باختطاف أخت رمزي الصغرى وقام بمساومة والدها؛ ليدلي له بمعلومات عن مكان رمزي، ولكن الرجل لم يتقدم ببلاغ.

قطَّب «عاصم» ما بين حاجبيه بتركيز متسائلاً باهتمام:

- لماذا؟!

- الصول «صفوان» الذي يعمل لدينا في القسم هو مَن أدلي بتلك المعلومة الأخيرة وقال: إنَّ والد رمزي أخبره بها وهما في طريقهما إلى المشرحة قبل وفاة الرجل بدقائق .. وأخبره أنه لم يتقدم ببلاغ؛ لأنَّه كان يخاف من أن يلوك الناس سيرته هو وابنته .. ولأنه كان يخشى على ولده من الوقوع في يد حسن بشدة؛ فهو مجرم كما تعلم.

«حسن ... حسن» الأسم يتردد مرة بعد مرة بباله، هل يكون هو الحلقة المفقودة والإبرة التي يبحث عنها بين كومة القش؟!، هناك خطوة أخيرة ستؤكد شكوكه!، أنهى مكالمته الأولى ثم تنحى جانباً بعيداً أكثر عن «رجاء» وقام بإجراء المكالمة التي ستحسم الأمر بشكل قاطع، إنه مأمور السجن الذي قام بالتحقيق في قضية مقتل «شاهين وسيد» بداخل السجن، وقُيِّدت القضية ضد مجهول.

كتَّفَتْ «رجاء» ذراعيها وهي تقف بعيداً ترقبه بحذر، يمنحها ظهره ويجري عدة مكالمات هاتفية، الأولى لم تفهم منها الكثير، صوته لم يكن منخفضاً ولكن الكلمات نفسها كانَتْ مبهمة، أما الاتصال الهاتفي الآخر فلقد فهمت ماذا يدور من سؤال «عاصم « لمحدِّثه على الطرف الآخر، كان السؤال يخص «حسن أنور برهان»، هل انتهت فترة حبسه قبل مقتل «شاهين وسيد» أم لا؟، ولكن يبدو أن إجابة الطرف الآخر لم تعجبه، لاحظت ذلك عندما رأت ظهره يتشنج وتململ في وقفتِه وهو يقول حانقاً:

- أنا لا أسأل عن أخلاقه أو مهارته يا سيادة المأمور ..

عاد يصمت منتظراً لدقائق مرت كالدهر على كليهما قبل أن يومئ برأسه شاكراً مأمور السجن، ويخبره أنه في حاجة إلى قراءة أوراق التحقيق مرة أخرى ومناقشة بعض السجناء، ثم أغلق هاتفه واستدار يواجهها بنظرة ظفَرٍ ظلت عالقة بعينيه، وهو يتقدم نحوها ويقول بانتصار:

- إذن فهو حسَن!..

فجأة توقفت خطواته، وارتفعت ضحكاته وهو يصفِّق بيديه حتى بدأ يسعل بشدة وهي تناظره، وقد توترت رغماً عنها حتى هدأ سعاله ولكن وجهه ظل محتقناً، وهو يقول بنبرةٍ لم تخلُ من الإعجاب:

- خطة انتقام في منتهى الذكاء .. لقد أحسنتم اختيار قاتلكم المأجور.. حسَن.. هو مَن نفذ انتقام السيدة جليلة وقام بقتل شاهين وسيد قبل انتهاء مدة حبسه بقليل.. ثم يقوم بقتل رمزي بعد خروجه منفذاً لمهمَّته الرئيسية .. ولا مانع أيضاً من قتل الطبيب والتمثيل به للانتقام لِمَا حدث لـ أمل.. كم أنتِ عبقرية يا «رجاء»! .

أنهى عبارته بطريقة مسرحية فاتحاً ذراعيه في الهواء، ثم تقدم نحوها خطوة أخرى وهو يتساءل باهتمام يخلو من السخرية تماماً:

- هل أُغلقَت الدائرة يا «رجاء» أم أن هناك شخصاً آخر يريد أن يستخدم «حسن» لانتقام رابع كما حدث مع طبيب النساء؟ .. الدور على مَن في المرة القادمة؟!

- يبدو أنك شغوف بمشاهدة أفلام التشويق والإثارة.

لم يسخر منه أحدٌ من قبل منذ أن ارتدى البدلة العسكرية وحمل سلاحاً في حزامه، الجميع ممَّن لا ينتمون إلى سُلطته يخشونه ويتنازلون أمامه، ربما حتى عن كرامتهم، فهل يترك هذه الآن تفعل؛ لأنه فقط يتعاطف معها هي وصديقتها؟!

- هل سمعتِ من قبل عن الاشتباه يا «رجاء»؟ ..

لم تكن «رجاء» في حاجة لأن يستكمل حديثه، لقد اتضحت نيته في عينيه المشتعلتين أمامها فقالت على الفور بتماسك:

- سمعتُ .. وسمعت أيضاً أن إلقاء القبض على أحدهم لا بد أن يكون عن طريق القسم الذي يتبع مِنطقة سكنهم.

- معلوماتك منقوصة يا «رجاء» .. وسنعمل على تصحيحها لكِ في الزنزانة.!



- حسن .. حسن!

فتح عينيه متفاجئاً، بينما يخترق صوتها الضباب الذي لفَّ ساعات نومه دون أن يشعر بالوقت، فمنع عنه كل الأحلام، لا شيء، أو كما يسميه عادة .. الحلم الأبيض!.

التوقيت في هاتفه أخبره بأنه نام قرابة ثلاث ساعات، ولكن صوتها يخبره بأن جدار غرفتها قد سقط فوق رأسها منذ سنوات.

خطا خطوات سريعة نحو غرفتها ماسحاً بكفيه أثر النوم عن وجهه وبمجرد أن دخل إليها التفتَتْ نحوه بنظرات مستغيثة هاتفة:

- حسَن .. أرجوك أريد أن أذهب إلى الحمام.

ثم عادت تلتفت مانحة الباب ظهرها محاولةً نزع الأنبوب الطبي عن يدها:

- انتظري.

أسرع نحوها وهو يلتف حول الفراش للاتجاه الآخر، وبخفة وحذَرٍ نزع عنها اللاصق الطبي المُثبِّت للإبرة والأنبوب الذي توقفت قطراته عنه لانتهاء المحلول الموصل به، كانت حركتها سريعة أكثر من اللازم ممَّا جعل رأسها يدور بمجرد أن نهضت واقفة فعادت تجلس ساقطة فوق الفراش مجدَّداً.

دار «حسن» حول الفراش مرة أخرى، ووقف قُبالتها ينتظر أن تستعيد توازنها بينما هي تُمسد رأسها مغمضة العينين مغضنة الجبين، التفت نحو السلسال الحديديّ المُلقى على الأرض بإهمالٍ، والذي لم يعد يقيد قدمها وهو يراود نفسه « إنها في حالة إعياءٍ بالكاد تستطيع الوقوف .. كيف تسحب ثقل السلسلة خلفها يا حسن؟.. كن منطقياً».

تركها تستند إلى الجدار ببطء مُحاولة الحفاظ على توازنها حتى لا تسقط بسبب الدوار الذي يلفُّها حتى خرجت من الغرفة، سمع صوت باب الحمام يُغلق فتنفس بعمق مستديراً باتجاه فراشها جالساً على أحد أطرافه، فقطَّب حاجبيه بدهشة، كيف لم يلاحظ أن الإسفنج قاسٍ للغاية من قبل؟، لا بد أن فقراتها تؤلمها بشدَّة بسببه!، مد يده يختبر مدى لين الوسادة فوجدها مُبلَّلة للغاية، تغضَّن جبينه أكثر وهو يحسب الساعات التي قضتها باكية حتى أغرقت وسادتها، بينما هو يظنها نائمة!

بعد قليل عادت مجدَّداً إليه مستندة بأطراف أصابعها هذه المرة إلى الجدار وقد استعادت توازنها الذي فقدَتْه من طول الرقاد، نهض واقفاً على الفور وهو يرمق وجهها المبلَّل بالماء الذي يقطر يديها، بينما هي تحاول تجفيفه بأكمامها الطويلة، وتتجاهل نظراته حتى وصلت إلى طرف الفراش الآخر وجلست تصلي ما فاتها من صلوات، تُطأطِىء عنقها عند الركوع وتنحني أكثر للسجود، زمَّ شفتيه آسفاً وهو ينظر إلى ساعة هاتفه، لقد نام عن صلاة الظهر حتى دخل وقت العصر، فهمس لنفسه موبِّخاً « لقد أصبحت سيئًا جدًّاً يا حسن !».

ترك لها الغرفة وخرج يقطع طول المخزن وعرضه ذهاباً وإياباً يفكر في الخطوة القادمة، فبعد أن كان هو المحرك للأحداث، باتَتْ تحركاته عشوائية ومرتجلة، منذ أن نهش الأرض بحثاً عن «رمزي» ولم يجده.

فسد كل شيء، خرج القطار الغضب عن قضبانه، وأصبح يهدد بالاصطدام في أي لحظة، وأول مَن اصطدم به كانت أسيرته تلك، لقد خرج من السجن بجسده فقط، أما روحه فلا زالت هنالك حبيسة ظلم البشر لا الجدارن، تسحبه إليها مُجدَّداً فتجعله يبدأ دون أن يفكر في النهايات.

ولماذا يفكر؟.. ولماذا يخشى العودة وقد تساوى كلٌّ لديه ولم يعد يفرِّق بين السجن وخارجه إلا الأسوار المرتفعة فقط؟!.

سمع صوت تحركاتها بعد خروجها الحَذِر إليه، ولكنها فعلت كما فعل الفيل الأسير في قصص الأطفال، لم تتجاوز المساحة التي كان من المسموح لها التحرُّك فيها فقط، ثم توقَّفتْ، يبدو أن الاعتياد هو مَن يصنع الأسير وليس القيود فقط!.

- تقدَّمي... اجلسي هنا.

قالها وهو يستند إلى مقدمة الشاحنة الصغيرة، والتي باتت أسيرة المخزن القديم هي الأخرى، كان عاقداً ذراعيه أمام صدره يراقب تعثرها في أطراف الجلباب الطويل الذي تلف وشاحه حول رأسها، كالطفل الذي يتعلم المشي حديثًا، خطوتين ثم تقف تنظر حولها حتى تجاوزته، ووصلت إلى مقعده العريض ووقفت تستند إلى ظهره المرتفع، صمتت تنتظر توجيهاته:

- ألم نتفق على أن تتوقفي عن البكاء؛ لتستعيدي عافيتك؟!.

- لم أبكِ.

همسَتْ بوهنٍ وتطرق بعينيها للأسفل فقال مندفعاً:

- كنتِ تبكين طوال الوقت يا غفران.

- غير صحيح.

انزلق ببطء جالساً القرفصاء حتى يستطيع رؤية وجهها جيداً، بينما لا زال ظهره مستنداً إلى شاحنته، عيناها متورمتان للغاية، ووجها شاحب كالأموات، تبدو ضعيفة جدًّاً في ذلك الجلباب الفضفاض بحالتها تلك، لن تستعيد عافيتها أبداً ما دامَتْ مواظبة على البكاء طوال الوقت كما تفعل الآن:

- ألا تعلمين أنك مراقبة؟.

رفعت وجهها إليه فوجدته يعبث بقشة صغيرة في الأرض، الغبار الكثيف يمكنه من رسم الوسم الذي يريده، بدأ في رسم دوائر بداخلها مثلثات صغيرة تخرج منها أسهم عشوائية ثم رفع عينيه إليها قائلاً بخفوت:

- الجن الذي يسكن المخزن يراقبكِ .. ويخبرني .. فأنا أستطيع التواصل معهم.

لن ينس أبداً الرعب الذي غطى ملامحها في تلك اللحظة وهي تنظر حولها بذعر، وترفع قدمها عن الأرض وتحتضنها إلى صدرها وهي تسأله ببراءة:

- كم عددهم ؟!

لم تكن هناك إجابة حاضرة في ذهنه، فهو لم يكن يتوقع السؤال على الإطلاق فوجد نفسه يرتجل قائلاً:

- أربعة .. الذي في حجرتكِ يخبرني أنكِ تبكين دائماً وتزعجينه .. وآخر في الحمام حذَّرني بأنه سيسكن جسدك للأبد لو بكيتِ هناكَ .. وآخر يجلس على مقعدي ينتظرني ويحمي المخزن حتى أعود .. وهو رئيسهم جميعاً.

صمتت قليلاً وقد جفَّ الدم في عروقها، ومقلتاها تدوران في محجريهما متسائلةً بخوف:

- والرابع؟!

- الرابع؟

لماذا لم يقل ثلاثة، لا زلتَ لا تجيد العدَّ يا «حسن»!، هرش خلفية رأسه بحيرة في اللحظة التي سمعها تقول بانتباه:

- هل يراقب المخزن من الخارج؟!

نعَمْ.. ولِمَ لا؟!، أومأ برأسه موافقاً، ففاجأته ثانيةً وهي تتساءل بفضول هامسة:

- هل تعرف أسماءهم؟!

- هه!

هرش في رأسه مرة أخرى، لم يكن دجالاً ليتعرف إلى أحد أسماءهم من قبل، ادَّعى الانشغال بالرسومات العشوائية فوق الغبار حتى يتمكن من التفكير، ولكن الحيلة لم تُعْيِه فقطَّب جبينه على الفور قائلاً:

- الذي في غرفتكِ يُدعى «فيشة ابن نميشة» !

راقبها وهي تدور بعينيها في المكان، فنهض واقفاً بعد أن رمى بالقشة جانباً، ثم زمَّ شفتيه وهو يمنحها ظهره ويكتم ابتسامته بصعوبةٍ قبل أن يسيطر على نبرة صوته ليجعلها جادة مُحذرًّا:

- أمَّا الذي يسكن الحمام فهو « زلاطة ابن بلاطة» !

شهقة صغيرة صدرت عنها، فاستدار إليها ليجدها تدس رأسها بين ركبتيها وهي تقول بنبرة مرتجفة:

– من فضلك اجعلهم يرحلون جميعاً.

– سيرحلون لو توقفْتِ عن البكاء.

صمتت للحظات قبل أن تعده بخفوت قائلة:

– أعدكَ.. سأتوقف.

أرسل تنهيدة رائقة لا تتناسب أبداً مع صعوبة موقفهما، ولا يعرف كيف خرجَتْ نبرة صوته حانية هكذا وهو يقول آمراً:

– والآن عودي إلى غرفتكِ، وانتظري الطعام.

أطلقت سراح قدميها حتى هبطتا إلى الأرض مجدَّداً ونهضَتْ ببطءٍ تمشي نحو حجرتها، وبمجرَّد أن أغلقت الباب من خلفها ترك العنان لابتساماته الواسعة أن تظهر، استقر على المقعد العريض وقام برمي رأسه إلى الوراء متنفساً الصعداء.

لقد عادت إليها الحياة، وبدأت مخاوفها الطبيعية كفتاة تظهر على السطح مجدداً، ضحك بصوت منخفض، بينما عيناه مغمضتان، وكلتا يديه مرتاحتان على المقعد، مجرد دقيقة من الهدوء تلاها عاصفة لم يكن ليحسب لها حساب، ارتفع رنين هاتفه معلناً عن رسالة من مساعده الأول منذ أول يوم عمل له في ورشة المكانيكا بالسجن، إنه في الخارج بصحبة الطعام كما يفعل يوميًّاً، وفي نفس الموعد.

قام بفتح الأقفال الداخلية للباب الحديديِّ، ثم قام بتحريكه للخارج قليلاً ليمر إلى حيث ينتظره «كريم» الذي كان القلق والاضطراب يحتلان ملامح وجهه، بينما يحمل أطباق الطعام بين يديه، ينظر يمنةً ويسرة برغم المساحة الواسعة الشاغرة حول المخزن القديم، اقترب «حسن» منه بقلقٍ وهو يقرأ ملامحه المرتبكة متسائلاً:

- ماذا بكَ يا كريم؟!

- ألقوا القبض على الخالة رجاء يا حسن!

اتسعت عيناه دهشة هاتفاً:

- لماذا؟.

ابتلع «كريم» لُعابه بصعوبة وهو يجيبه بنبرة متشنجة:

- كلُّ ما استطعت معرفته من أحد العساكر في الداخل أنها متهمة في قضية قتل.

دارت عيناه في محجريهما بقلق بالغ مكتِّفاً يديه فوق صدره، مطرقاً أرضاً بتفكير للحظات، قبل أن يقول بهدوءٍ كمَن استسلم لموجة مُغرِقة قادمة نحوه بجنون لتبتلعه:

- لا تقلق، سأذهب إلى هناك.. فهم يريدونني أنا.

كادت الأطباق تسقط من بين يديه وهو يهتف ملتاعاً:

- لا تذهب، أرجوك.

وضع «حسن» كفَّه على كتف رفيقه وهو يناظره بامتنان، لا زال «كريم» هزيلاً ذا نبرة مرتعشة تطغى على صوته دائماً حتى بعد خروجه من السجن، يبدو أنها خصلة وراثية لا دخل للسجن بها.

- في كل الأحوال سيتم القبض عليَّ لمجرد خروجي من هنا يا كريم .. وأنا لن أظل حبيساً البقية الباقية من عمري .. فمن الأفضل أن أذهب بنفسي.. ولا تقلق، لن يحدث شيءٌ.

حرك «كريم» رأسه رافضاً، وهو يطالع الأرض من تحته، ولكن «حسن» لم يكن لديه الكثير من الوقت؛ ليقوم بإقناعه، لا يريد لـ «رجاء» أن تبقى سجينة ولو لساعة واحدة، يكفي مصائب الحياة التي مكثَتْ فوق رأسها ولم تغادرها، هو يعلم أنها ستخرج في كل الأحوال فلا دليل يدينها، ولكنه يعلم أيضاً أن هناك ما يُدعى تلفيق الأدلة، لذلك لا بد من أن يتحرك سريعاً جدًّاً.

ولكن .. استدار برأسه للخلف نحو باب المخزن للحظات ثم عاد بوجهه إلى «كريم» مجدداً وهو يقول :

- كريم.. غفران في عهدتك .. قم بإعادتها إلى بيتها .. وكن معها متى كانت في حاجة إليكَ.

- لماذا؟.

سأل « كريم» ببلاهة ظهرت عليه للحظات قبل أن ينفض رأسه وهو يتذكر أنه اسم الأسيرة بالداخل، فأومأ موافِقاً واضعاً يده الفارغة على صدره كوَعْد منه بأن ينفذ أوامره، وما الجديد؟، فهو طوع أمره منذ سنوات، منذ أن قام بالدفاع عنه للمرة الأولى ضد بعض السجناء الذين كانوا يلقبونه بـ «المرمطون» .

أخذه تحت ذراعه، وعلَّمه صنعته، وبات مساعداً له، حتى سها «حسن» عنه لساعة واحدة، ساعة واحدة فقط، استطاع «شاهين وسيد» استغلالها، وقاما بسحبه إلى دورة المياه وانتزعا منه عنوة ما تبقى من كرامته ورجولته، فالسجن له قوانينه، وهو لم يكن يصلح حتى لدور الحاجب.

لن ينسى أبداً دموع القهر التي بذلتها عيناه وهو مُنزوٍ بجوار المرحاض يضرب رأسه بالجدار، حتى بدأت تنزف فتركها طواعيةً، وهو يفقد وعيه في صمت تدريجياً؛ لعله يموت وتنتهي معاناته مع ضعفه الدائم الكريه، ولكن لا زال في العمر بقية، ولا زال هناك «حسن» الذي تعهد له بأنه لن يخرج من السجن قبل أن تخرج جثتاهما العفنتان .. ولقد برَّ بقسمِه وزيادة.



طرق بابها ودخل في عجلة من أمره؛ ليتفاجأ بها جالسة فوق فراشها تبتسم، تنحنح متعجباً من أمرها، وتقدم واضعاً الصحن الذي يحوي طعامها بجوارها قائلاً:

- تناولي طعامكِ.

أومأت مبتسمة بخجل وهي تستدير نحوه لتتناوله كما أمرها، لم يخرج كما اعتادتْ، بل بقي واقفاً أمام الفراش شارداً وهي تأكل ببطء، وتتحاشى النظر إليه حتى انتهت وتناولت جرعة مياه:

- لم أكن أقصد أن أؤذيكِ.. سامحيني.

نظرت إليه بتساؤل بينما يدها تنخفض ببطء حاملة الزجاجة بين أصابعها فقال متابعاً:

- كنتُ أريد العثور على رمزي .. ولم يكن أمامي حل آخر غير المساومة بكِ.

نهضت ببطء، وانحنت تضع الزجاجة أرضاً ثم تقترب منه بغرابة، وشعورٌ قويٌّ يضرب صدرها ويخبرها بأنه يودعها:

- ماذا حدث.. لماذا تقول هذا؟!

التفت نحوها بابتسامة لم تصل إلى عينيه وقال مشاكساً:

- موعد إطلاق سراحك قد حانَ .. أم أعجبك دور المخطوفة وتريدين الاستمرار فيه؟!

- حسن .. أنا أعرف أنكَ لم تكن لتؤذيني أبداً.

قالتها بقوة تناقض الضعف البادي عليها بينما خافقها يؤلمها، فالشعور بالهجر قد بدأ يلوح لها من بعيد مجدَّداً.

- أنتِ لا تعرفينني جيداً .. ولا تعرفين ما أنا قادر على فعله ... أنا كما يقولون .. رد سجون!

تلاحقت أنفاسها ولم تبذل أدنى طاقة لتوقف دموعها عن الجريان وهي تقول على الفور:

- أنا أعرف كل شيء.. الليلة التي عُدتُ فيها إلى بيت والدي لأجمع البقية المتبقية من ملابسي.. رأيتُ رمزي يعود من الخارج يلهث ويختبئ في حجرة والديّنا .. واستمعت إلى ما دار بينهم عن الفتاة.. وعنكَ.. أنت بريء وأنا كنت سأذهب لأُدلي بشهادتي لصالحك .. ولكن والدي ضربني وكسر يدي هذه وقدمي تلك.

كانت تشير بعشوائية إلى يدها وقدمها، والدموع تتساقط بتناغم مع النشيج الظاهر بين حروفها، كانت نظراته تتابع حركة يدها وهو يستمع إلى ما تنازع به روحها فحاول تهدئتها:

- ستعودين إلى منزلكِ .. ألم تفتقدي أمَّكِ؟!

سقطت على ركبتيها دافنة وجهها بين كفيها ونشيجها يعلو باكية:

- لا أريد .. لا أريد العودة .. لا تتركني يا حسن، أرجوك .. أنت لا تعرف .. لا تعرف!

منذ متى لم يشعر بوخزات القطرات المالحة والغصة التي تصاحبها .. منذ وفاة أمه؟، يبدو أنه قد نسي حتى اسمها حتى أنه يشعر بتلك الغرابة الآن وهي تندّ في عينيه، تعود إليه على استحياء وبلا اندفاع، لقد رفضها طيلة سنوات عذابه فلماذا يزحف بريقها في تلك اللحظة إلى مقلتيه وهو ينزل من عليائه حتى استقر على ركبتيه أمامها؟:

- أنا أعرف .. لقد قلتِ كل شيء، بينما كنتِ تهذين وأنتِ مريضة .. ولكن .. لم يعد هناك ما يخيفكِ .. رمزي لن يعود من قبره!

صاحت بصوت كتمته راحتاها فخرج كاستغاثة آتية من بئر عميقة:

- رمزي في كل من حولي .. في صاحب المصنع الذي أعمل به .. في بائع الخضراوات .. في الحافلات التي أستقلها .. في المدرسة .. في شخص يعبر بجواري في الطريق ولا يعرفني .. كلهم رمزي يا حسن .. كلهم رمزي .

توقفتّ؛ لتشهق مستدعية الهواء إلى رئتيها ثم تحرك رأسها رفضاً متابعة:

- جميعهم ينهشونني أنا ومن مِثلي .. وكلٌّ على طريقته الحقيرة الجبانة ... أنا أريد أن أبقى هنا يا حسن .. أنا هنا بأمان .. لا نظرات حقيرة ولا لمسات مقرفة ولا عبارات مهينة تجعلني أكره كوني أنثى .. أنت لم تخطفني .. أنت أنقذتني منهم جميعاً ... حتى وأنا في قيودك أشعر بآدميتي وبأنني في أمان ... هل تعرف ماذا يعني الأمان لأي فتاة مثلي؟ .. يعني كل شيء.

ضغط أضراسه بينما حلقه يتشنج أكثر مقاوماً رغبة في احتوائها فقط؛ ليُشعرها بالأمان الذي تبحث عنه، ولكنه لن يفعل .. لن يكون «رمزي» آخر وإن اختلفت أسبابه ونواياه:

- سأتركِكِ في عهدة شخص أثق فيه كنفسي، سيأخذكِ إلى حيث والدتكِ ثم إلى منزلك متى شئتِ .. سيحميكِ بروحه لو تطلب الأمر .. وسيكون طوع بنانك .. حتى أعود!

رفعت وجهها إليه بنظرة أمَلٍ لم يرَها من كثرة الدموع التي تغطي وجهها والتي تفيض بكرم من ينبوع عينيها، وقالت بنبرة مذبوحة وذابحة من أثر البكاء:

- إلى أين ستذهب؟

- السيدة «رجاء» والدة سلمى - رحمها الله - تم القبض عليها بتهمة قتل رمزي .. هذه المرأة تأذَّت كثيراً جدَّاً يا غفران .. وبقائي هنا سيؤذيها أكثر .. إنهم يبحثون عني كالمجانين وخروجي لهم سيجعلهم يطلقون سراحها.

- لا أنت ولا هي .. سأذهب إليهم وأجعلهم يطلقون سراحها.

هتفت بها وهي تقبض على مِعصمه بقوة، بينما عيناها تتحدَّانه أن يضيع مرة أخرى خلف الأسوار ويتركها وحيدة، إنها تعرف شيئاً وتخفيه عنه، كان يقرأ عينيها بسهولة وهو يتذكر عندما سقطت بين يديه منذ أيام وهي تخبره بأنها هي مَن فعلت .. هي مَن قتلَتْ أخاها، إذن لم تكن تهذي، بل كانت تُقرُّ بالحقيقة !، أزاح قبضتها وتناول مِرفقيها بهجوم مباغت هاتفاً:

- أنتِ مَن قتله؟!

حركت رأسها نفياً قائلة بعينين زائغتين:

- بل رأيت ما حدث من البداية.

زادت أصابعه من الضغط على مِرفقيها بلا إرادة منفعلاً، لا يصدق أنها رأت ما حدث وصمتت، ولم تتكلم وتركته يقيدها ويسجنها هنا ويخرج باحثاً عن «رمزي» بينما هي تعرف أنه جثة هامدة:

- تكلمي.. أريدُ الحكاية من البداية يا غفران.

زاغت نظراتها أكثر تبحث عن شيء ضائع، تستدعي الذكرى التي هزت كيانها، وجعلتها دائماً هاربة، خائفة، واقعة بين مطرقة دناءة «رمزي» الذي وعدها بأنها لن تهنأ أبداً مادام هو على قيد الحياة، وحقيقة أنه أخوها في النهاية، ودماؤه تجري بعروقها، تلك الدماء التي رأتها تنساب من حنجرته بينما هو ساقط على وجهه وقد فارق الحياة:

- كنتُ أتساءل دائماً: كيف يستطيع رمزي معرفة اليوم الذي أحصل فيه على راتبي الشهري والذي لم يكن له موعد ثابت .. ويقوم بمهاجمتي في الطريق وأخذه عنوة؟ .. حتى .. حتى عرفت.. فتاة كانت تعمل في نفس المكان .. فتاة ريفية لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها .. بدأت تتودد لي وتقترب مني .. ومرة بعد مرة تكثر أسئلتها حول عائلتي .. ثم حول أخي .. ولماذا لا أعامله معاملة جيدة؟ .. وقتها عرفت .. عرفت أنه يستغلها، ولكي لا تخبرني عن علاقتهما قال لها بأنني أكرهه ولا أريد له الخير .. حذَّرتها منه ولكنها لم تستمع .. كانت قد أحبَّته بقلبها الصغير ومراهقتها الوليدة فابتعدت عني وبدأت تعاملني معاملة سيئة .. كنتُ أموتُ خوفاً عليها وأنا مُوقنة بما يريده منها .. خصوصاً وقد بدأت تشحب وضحكتها تختفي يوماً بعد يوم .. حتى جاء ذاك اليوم وبكت أمامنا جميعاً وهي ترجو صاحب العمل أن يسمح لها بالذهاب مبكراً لساعة واحدة فقط ..

بدأت ضربات قلبها في زيادة مضطربة وهي تنظر له، ولكنها لا تراه في الحقيقة، لم تكن ترى سوى ذلك البيت المتهدم الذي دخلته الفتاة:

- تسللتُ خلفها بعد خروجها .. ورأيتها تلِجُ إلى هناك .. منزل قديم نصف متهدم، وكان هو ينتظرها هناك .. ثم يقوم بسحبها من خلفه ووجدت قدميَّ تنسحبان خلفهما.. وكأن هناك خيوطاً غير مرئية تربطني بجسديهما ..

صالة واسعة جدرانها من الطوب الأحمر، حبات الرمل والحجارة تملأ أركانها، ثم حجرة جانبية مثلها تماماً ممتلئة بالمخلفات، أخشاب وأوراق وزجاج متكسر..

وسمعتها تسأله: لماذا يريد رؤيتها هنا في هذا المكان المهجور؟..

فأخبرها بنبرته اللئيمة التي أحفظها عن ظهر قلب بأنه يريد وضع النقاط على الحروف.. هل ستقبل بالزواج من ابن عمها وتعود معه إلى بلدها من حيث أتت أم ستظل معه؟

الفتاة بكت وهي تخبره أنها لا حيلة لها وأن طباعهم ونشأتها تجبرها على طاعة والديها، وإن كان يحبها حقَّاً، فلا بد أن يتقدم لخطبتها، ويثبت لأهلها بأنه يستحقها ويترك المخدرات التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من جيب بنطاله..

- اهدأي يا غفران.. اهدأي قليلاً.

كان يشاهدها تلهث وهي تحكي له وصدرها يعلو ويهبط بجنون، بينما شفاهها تكسوها الزُّرقة كمَن يفارق الروح ويصارع آخر نفس من الهواء سُمح له به:

- شتمها يا حسن .. وضربها على وجهها فصرختُ .. كتم صراخها بيده .. شهقتُ لكنني كتمت صرختي وأنا ملتاعة، ورأيته يدفعها لتسقط أرضاً ثم رمى بجسده من فوقها .. كاد قلبي أن يتوقف وأنا أقف مكاني لا أعرف ماذا أفعل؟ ... خِفتُ يا حسن .. خِفتُ منه .. حاولت أن أصرخ ولكن صوتي حُشر في حلقي من شدة الرعب وهو يمزق ملابسها .. وفي لحظةٍ واحدة .. لا أعرف كيف حدث هذا؟ .. رأيته يتصلَّب مكانه دون حراك وهو ينظر إليها بعينين جاحظتين .. وفجأةً سقط فدفعَتْه هي بعيداً عنها .. كانت تلهث وتمسك بقطعة زجاج ملوثة بدمائه .. ظلت قابضة عليها وهي تنظر له بذُعر بينما دماؤه تسيل .. ووجدتني أهرب .. لا أعرف كيف خرجت من المكان؟، ولا كيف وصلت إلى منزل خالتي؟..

- لماذا لم تخبري والدكِ؟!

- لا أعرف.. الفتاة كانت ستضيع .. مثلي ومثل سلمى .. كلما وخزَتْني صلة الدم تذكرت عبارته التي لم يكفّ عن ترديدها على أذني أنه لن يتركني إلا إذا فارقَتْه الروح، الفتاة لم تكن تدافع عن شرفها فقط .. بل كانت تحررني منه يا حسن .. فكيف أفضحها؟!



ثلاث عُلب من لفافات التبغ، واحدة تلو الأخرى وهو لا يرحم استغاثة صدره الذي امتلأ بسواد دخانهم عن آخره، لقد قام بتسليم «رجاء» بنفسه وفي طريقه لمواجهتها بالممرضة لتتعرف عليها ثم يُغلِق ملف قضية مقتل هذا الطبيب بلا رجعة وتبدأ النيابة عملها.

يقاوم الصراع بداخله وهو يردِّد على مسامعه هامساً لنفسه بعبارته الشهيرة «أنا أنفذ القانون ولا دخل لي بأي اعتبارات أخرى»!، أما الجالسة أمامه في تلك اللحظة فهو يعرف جيِّداً كيف يتعامل معها؟!

- كان من الأولى أن ترسلي لها محامياً يا حاجة «جليلة» .. وجودك هنا لا معنى له.

- ظننتك مختلفاً يا عاصم بيه!

كانت تقف أمامه رافضة الجلوس، تنظر له بجمود، عيناها الحادتان، عباءتها السوداء الفضفاضة جدًّاً، وشاحها الذي صار شديد البياض، هالة من الهيبة تبتلعه بداخلها وتُذَكِّرهُ بأنها تتبع قانونها الخاص الذي تقوم بتنفيذه كما يفعل هو مع قوانينه الصارمة:

- أنا لستُ مختلفاً يا حاجة «جليلة» .. أنا أنفِّذ القانون .. كما فعلتم أنتِ ورجاء .. وحسن .. أليس كذلك؟!.

أطلَّت نظرة خبيثة من عينيه، تلقتها «جليلة» ببسمة ساخرة، هل يهددها بطريقة مبطنة أم يدعوها للهرب قبل أن يوجه لها تهمة هي الأخرى؟، استندت إلى المقعد المقابل لمكتبه الخشبيّ بيدها قائلة:

– معك حق .. يجب على كل من له مَظلمة أن يترك القانون يأخذ مجراه .. أنا مثلاً يجب أن أرضى بأنَّ مَن قتلا ولدي الوحيد وانتهكا عرضه لا يُقتصُّ منهما؛ لأنهما لم يتجاوزا الثامنة عشرة.. ورجاء يجب عليها أن تحتوي حماقة ذاك الشاب الضائع الذي قتل فتاتها ثم خرج دون عقاب كالشعرة من العجين معتمداً على ذلك القانون الأعمى الذي منحه البراءة والحرية ..

معك حق .. يجب أن نقتلع قلوبنا ونضع مكانها حجراً، بينما حقوق الأطفال والفتيات يضيع أمام أعيننا وأعين القانون دون عقاب رادع .. يجب أن نكتفي بأن نجتمع كما تجتمع الثكالى لندب موتاهم ..

يجب ألا نفكر نحن والكثير غيرنا من شدة القهر في قانون خاص يحفظ لنا حقوقنا .. أليس كذلك؟!

نظر لها مطولاً وهو يفكر في ألا يُفكِّر!، لن يسمح لنفسه بأن يتقبل منطقها الخاص، يكفي أنه رحمة بها لم يوجه لها تهمة حتى الآن، ولكن مَن يدري؟، ربَّما ستعترف «رجاء» بكل شيء خصوصاً بعدما سرَّب لها خبر إلقاء القبض على «حسن» في نفس اليوم.

لن يفشل في قضيَّة تولَّى أمرها كما لم يفعل من قبل، ربما تسامح معها سابقًا؛ لأنَّ جريمة قتل «شاهين وسيد» لم تكن مهمته من الأساس، وكان تعاطفه هو الغالب عليه، أمَّا الآن فهو بينها وبين نفسه، فمَن ستكون له الأولوية؟!

ارتفع رنين هاتفه فجأة في توقيت خطر غير مناسب، ولكن الأكثر خطورة كان الرقم الذي أضاء شاشته به، التقط الهاتف سريعاً؛ ليجيب محدثه برسمية وهو يشد قامته بثبات، امتقع وجهه للحظة قبل أن يومئ بطاعة:

- دقيقة وسأكون في مكتب سيادتك.



قذف سيادة اللواء الجريدة بوجه «عاصم» هاتفاً باستنكار:

- ما هذا الذي تفعله زوجتك يا عاصم؟!

التقط «عاصم» الجريدة، ومرَّر عينيه سريعاً على التحقيق الصحفي الذي يذيله في النهاية توقيع «أروى»، إنه مختلفٌ بشدة عما كتبته زوجته من قبل، فهي في كل مرة تندد بما يحدث من جرائم الاختطاف وتنادي بالعقوبات الرادعة وفقط، مع ذكر بعض الحالات التي انتقلت من ملفات الأقسام إلى ملفات الإعلام ويتم التحدث عنها في البرامج الحوارية، أما الآن فهي تهاجم كل مؤسسات الدولة لا تتهمهم بالتقاعس والإهمال فقط.

بل تتساءل: لماذا لا نسمع بابن مسؤول تم اختطافه كما يحدث لعامة الشعب؟، هل هناك في تلك المؤسسات أذرعٌ مستفيدةٌ استفادة مباشرة؟، وتكرر تساؤلها في نهاية التقرير، هل يوجد في تلك المؤسسات إهمال متعمد؟ هل الأمر له علاقة بمافيا تجارة الأعضاء؟، أم أنه إهمال مُتعمَّد؛ لإلهاء الشعب عن سياسات الحكومة مؤخَّراً؟!

لماذا يتم إطلاق سراح المختَطِفين عن طريق الثغرات القانوينة؟، لماذا لا يتم منع المواقع الإباحية التي تتسبب بشكل مباشر في بعض حالات الخطف؟، لماذا لا يتم تعديل قانون الطفل ويتم الحكم بالقصاص على أساس البلوغ الجسدي وليس شرط بلوغ الثامنة عشرة؟.

لماذا تقف الدولة صامتة بينما الجيل القادم يتم جزُّه وانتهاكه بكل الطرق الممكنة؟!

ابتلع «عاصم» ريقه الجاف من الأصل مغمضاً عينيه دون أن يتابع القراءة، لقد كان يعلم أنها مجنونة ولن تتوقف، ولكنها الآن تضعه في موقف لا يُحسد عليه أمام رؤسائه، بل وأمام نفسه قبل ذلك، كلماتها دائماً قذائف مدفعية تحطم بها مرآته المنمقة!.

تنحنح بصعوبة ليجلي حنجرته قائلاً بثبات:

- إنها تعتمد على حرية الصحافة يا سيادة اللواء.

- عااااصم!

هتف سيادة اللواء مزمجراً وهو ينهض غاضباً من تعليقه الغريب، وقف قُبالته ينظر إلى عينيه مباشرة نظرات يعرفها «عاصم» جيداً، ويعرف ما سيأتي بعدها:

- حرية الصحافة هذه لن تمنع أن يتم توجيه كومة من الاتهامات إليها .. أقلها سيكون التحريض على مؤسسات الدولة!

ترك «عاصم» الجريدة تسقط على الطاولة الصغيرة المقابلة للمقعد الجلديّ المواجه لمكتب سيادة اللواء وأطرق قليلاً يفكر في ردٍّ مناسب لا يزيد من ارتفاع وتيرة غضب الرجل، فقال بهدوء:

- ألا يمكن أن نناقش ما تطرحه في تقريرها؟.

وماذا يمكنه أن يقول غير هذا؟، لقد وقف وقفته هذه من قبل بينما رئيسه يعنفه بسببها، ولكنه لم يكن غاضباً إلى تلك الدرجة، هذه المرة لن تفلح الوعود والاعتذارات، ثم إنَّ الكيل قد فاض به، فما تكتب عنه «أروى» حقيقة صورها تملأ الملفات فوق مكتب.

فلماذا لا يتم مناقشة الحلول بدلاً من إلقاء اللوم عليها ككل مرة؟:

- هي بالطبع مُخطئة في مهاجمة مؤسسات الدولة .. ولكن تلك الجرائم حقيقة ملموسة بالفعل .. وتنتشر كانتشار النار في الهشيم ..

- إذن فأنت تعترف بالتقصير والإهمال يا حضرة الضابط؟.. يبدو أن كلام «رائد» عنك صحيح!

ضغط «عاصم» أضراسه يطحنها وقد احتقن وجهه بشدة ووجد نفسه يقول دون تفكير ساخراً:

- ابن أخيك ...

ترى ما التهمة التي سيتم توجهيها له ولزوجته؟، هل هي إشاعة الفوضى أم التحريض على العنف؟!، كلها جائزة، وكلها متاحة ومتوفرة، ماذا فعل بنفسه؟!، لابد أن يستدرك ما قاله للتوِّ.

سعل مرتين بشدة قبل أن يقول مُحاولاً تغيير مسار الحديث الذي يعلم أنه لن يتغير أبداً:

- بمناسبة النقيب «رائد» .. فالقضية التي نعمل عليها سويًّاً توصلت..

- لم يعد لك دخل بتلك القضية .. لقد تم تنحيتك عنها .. قم بتسليم جميع تحرياتك وأوراقك فيها إلى .. ابن أخي!

نطق آخر كلمتين ساخراً بنفس الطريقة التي سخر بها «عاصم»، عقاب رادع وفوري ولكنه مؤلم، تغضَّن جبينه حنقاً متسائلاً:

- متى تم تنحيتي؟!

- الآن .!

حاول «عاصم» السيطرة على انفعالاته، فأطرق أرضاً للحظات، ليس من الجيد أن تظهر تلك النظرات الغاضبة الكارهة في عينيه، كلمة .. مجرد كلمة نطق بها أطاحت بسجله كله، وهوَتْ بمجهوده إلى قعر الجحيم:

- ما رأيكَ أن يتمَّ تحويلك للتحقيق؟ .. فأنت مقصرٌ ومُهمِل في عملك .. كما كتبَتْ زوجتك في مقالها الفذِّ!

- أنا لا أقصِّر في عملي يا سيادة اللواء .. فأنا لستُ وزارة الداخلية كلها .. ولستُ جهة تشريع عليها فرض عقوباتٍ أكثر قوةً لمنع الجريمة من الأساس.

قالها هادئاً مُحافظاً على نبرة صوته فهو لم يعد يكترث بعد الآن، «أروى» كانت مُحقَّة من البداية، ليس علينا أن نبدو طائعين أكثر من اللازم فنكون مثل الماء الفاتر .. لا يشعر بنا أحدٌ على الإطلاق، وكأننا لم نكن، تلك العنترية لا تليق به، ومُوقِنٌ من أنَّها سترميه خلف الشمس ولكن بعض التمرُّد يُكسِب القوة أحياناً!

- عاصم!!

نطقَتْ باسمه بدهشةٍ وهي تراه عائداً إلى المنزل على غير موعده، رفع «عاصم» الجريدة أمام عينيها قائلاً بهدوءٍ:

- لن تتوقفي حتى يتمَّ القبض على كلانا!

رفعت يدها لتُمسّد عنقها وتتجنَّب النظر نحوه مُتمتمةً:

- آسفة يا عاصم .. قبل كتابة المقال كنت في قسم الشرطة وشاهدتُ والد أحد الضحايا يقف هناك صارخاً؛ لأنَّهم قد أطلقوا سراح خاطف ولده لعدم وجود أدلة ضده .. الضابط كان يجلس ببرود ويضحك فـ ..

مرَّ بجوارها وهو يقاطعها ضاحكاً:

- فقررتِ الانتقام مني أنا.. صحيح؟.

لم يكن غاضباً، وهذا ما جعلها تتسمَّر أمامه متعجبة، إنَّه على غير عادته في كل شيء وليس موعد عودته فقط، شعرتْ بنوعٍ من تأنيب الضمير النادر تجاهه، فاقتربتْ منه معتذرةً:

- آسفةٌ مرة أخرى؛ لأنني لم أطلعكَ على المقال قبل نشره.

زادتْ دهشتها أكثر ممَّا يجب وهي تراه يضحك عابثاً مرةً أخرى وهو يلتفت نحوها قائلاً ببعض المرارة التي غلَّفَتْ حروفه:

– لم تطلعيني على المقال فقط يا أروى.. وهل تُطلعينني على شيءٍ تقومين به؟!

ارتبكَتْ «أروى» للحظة بينما تعقد ذراعيها أمام صدرها متسائلةً:

– ماذا تقصد؟.

– ربَّما مثلاً أقصد الأخ محمود عبد العزيز!

امتقع وجهها خوفاً وهي تراه يخطو نحوها مقترباً وهو يتابع معاتباً:

– هل أنا ساذج في نظرك إلى هذا الحدِّ؟.. نعَمْ، أنا أعترف لقد خُدعتُ في البداية .. ولكن لم يكن من الصعب أبداً أن أعرف كل شيءٍ عنه.

سقطت يداها بجوارها، فتمالكت نفسها سريعاً وتعيد عقدهما ولكن هذه المرة خلف ظهرها وهي تقول بدفاعيَّة:

– لم يكن أمامي طريق آخر.. فأنت كنت ترفض مساعدتي بشتى الطرق ولو حتى بتفاصيل بسيطة .. ثم إنّني لم أخدعْكَ .. هو بالفعل لديه موقع على الإنترنت ويقوم بـ..

صمتت عندما رفع كفه أمامها لتكف عن الحديث، ثم استدار وسار بخطوات متمهلة إلى حيث أريكته المفضلة، هوى فوقها مستنداً براحة للخلف، مُشرعاً ذراعيه على الجانبين فوقها وكأنما يستعد للتحليق قائلاً ببساطة:

– لا تكرريها مرة أخرى.

نظرتْ إليه كالمجانين وهي تتقدم باتجاهه حتى جلست بجواره هاتفة:

- ماذا يحدث معكَ اليوم؟!

ابتسم ببساطة وهو يناظرها بنظرات ربما تبدو عادية لِمَن يقف على مسافة من قلبه، أما هي، فهي تسكنه كالعفاريت كما يقول لها دائماً، وتعرف بأنه متألم، ومتعَب، ويشعر بالهزيمة، والحالة التي يمر الآن هي مجرد استراحة مُحارب ليس أكثر:

- ما يحدث يا حبيبتي أنني اكتشفت أنك كنتِ على صواب .. وأنني أعطي الأمور قيمة أكثر مما يجب .. وأنني متشنج دون داعٍ .. بينما البقية يلهون بمقدراتي؛ لأنَّهم فقط يمتلكون ما لن أمتلكه يوماً.



ولو بعد حين

كانت عائدة للتوِّ من المشفى الذي ترقد فيه والدتها، حزينة مكسورة، لا زال الطبيب يرفض أن يسمح لها بالخروج وحالتها الصحية غير مستقرة على الإطلاق، حتى رؤيتها لابنتها لم يعجل من شفائها، أو حتى يعمل على بعض التحسن، ربما لو كان «رمزي» هو مَن عاد إليها لكانت وقفت ناهضة على الفور على قدميها اللتين لم تعودا تشعران بأي حياة بهما.

- غفران

أخرجها نداء «كريم» من حالتها المتهالكة تلك وهو يُسرع خلفها على السُّلم ليلحق بها، استدارت نحوه متسائلة بابتسامة صغيرة مُرحبة فقال على الفور وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

- لماذا لم تنتظريني صباحاً؛ لأقوم بتوصيلك إلى المستشفى؟

حافظت على ابتسامتها الصغيرة وهي تنظر له بامتنان، ماذا لو كان «كريم» أخاها بدلاً من «رمزي»؟، ربما كانت الحياة أكثر سعادة وقتها، فلقد وجدته كما أخبرها «حسن تماماً، مخُلصاً حتى آخر رمق فيه، لم يتركها منذ أن أعادها إلى منزل والدها، حتى نظرات «صفوان» لها وقف حاجزاً أمامها

ليمنعها عنها عندما استوقفها ليسألها بدهشة «كيف عادت وحدها هكذا بسهولة»؟!، لكنها تركت سؤاله مُعلقاً ودلفت إلى شقتها حيث الذكريات المؤلمة.

في اليوم التالي مباشرة وجدت «كريم» ينتظرها كل صباح بداخل سيارة أجرة ليصطحبها إلى زيارة والدتها ومتابعة حالتها الصحية، ثم خرجا معاً من هناك إلى قسم الشرطة مباشرة لتنفي عن «حسن» تهمة الاختطاف.

يومها وقفت في مواجهته أمام الضابط الجالس خلف مكتبه قائلة بهدوء:

– أنا خطيبته وكنتُ معه بإرادتي.. وكل ما ادعاه «صفوان» لم يحدث.. حسن بريء.

وقتها رأته وهو يقاوم ابتسامة صغيرة تعنفه لتظهر على طرف شفتيه ولكنه لم يستجب لها، أطرق برأسه ثم رفع وجهه ينظر إليها بحيادية تامة، لقد نفت عنه حادثة اختطافها، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً للتهمة الموجه إليه بقتل أخيها، لقد تم تحويله للنيابة منذ أيام وهي تنتظر.. فقط تنتظره كما وعدته في آخر لقاء بينهما، عندما أمرها أن تظل صامتة كاتمة لسر الفتاة فهو سيتم تبرئته في النهاية؛ لأنَّه لا دليل قويَّاً ضده، وهي أطاعته وهي مرتعبة خائفة تخشى فقدانه هو الآخر.

– غفران!!

أعادها «كريم» من جديد لحاضرها فأجابته بنبرة مبحوحة:

– لم أشأ أن أزعجك أكثر من هذا يا كريم فأنت تلازمني منذ أيام.

نظر لها بعتب، ولكن ابتسامة متلاعبة ابتلعت وجهه النحيف بالكامل وهو يقول لها مازحاً:

- تم إخلاء سبيل حسن اليوم.

انفرجت شفتاها عن شهقة ضعيفة متفاجئة، ولكن «كريم « لم يمنحها الكثير من الوقت لتستوعب ما قال فتابع مردفاً ما لديه:

- تقرير الطب الشرعي أثبت أن رمزي قُتل قبل خروج حسن من السجن بأيام.

- أين هو؟.

قالتها بلهفة ممَّا استجلب ضحكات «كريم» بينما يجيبها سريعاً مراقباً للهفتها:

- أخبرني أنه ذاهب إلى موعد هام ثم سيأتي إليكِ على الفور.

- هل أخبرته؟!

قالتها سريعاً وهي تستند إلى حافة الدرج، فأطرق برأسه وقد فهم ما تعني بسؤالها، ثم أومأ هو يجيبها بـ «نعَمْ» :

- وماذا كانت ردة فعله؟.

رفع «كريم» كتفيه بلا مبالاة وهو يجيبها باقتضابٍ:

- لم يظهر عليه أيُّ تأثر.. بل كان متوقعاً لكل ماحدث.

أومأت برأسها بحيرة شديدة تملكتها وهي تستدير لتستكمل رحلة صعودها ثانيةً، هي تستطيع أن تفهم عدم تأثره من خبر وفاة والده، فما بينهما لم يكن بالهيِّن.

ولكن كيف لم يتأثر عندما علم بأن «صفوان» قد استولى على المنزل والورشة وهو يدَّعي أنه يمتلك عقد بيع وشراء مزيلاً ببصمة «أنور برهان»؟، لقد أخذ «صفوان» كل شيء ولم يترك له حتى الورشة، بل قام ببيعها هي والمنزل على الفور وكأنه يقطع الطريق على «حسن» ويخبره بأن لا فائدة من عودته.

يخبره أن يعود إلى حيث جاء، يطرده من الحي بأكمله، ولكنها لن تسمح بذلك، ما زال لديه بيتها الذي سيصبح بيته، ووالدتها التي ستكون أمًّاً له بالتأكيد، فهي بالتأكيد سترحب بديكٍ جديد يزعق في الدجاجات ليعدْنَ إلى القفص بأمان، وهناك المخزن، يستطيع أن يقوم بتحويله إلى ورشة جديدة، يبدأ فيها من البداية.. معها.

دلفت إلى الشقة بينما ابتسامتها تتسع شيئاً فشيئاً، وهي تبحر بين أفكارها الناعمة حوله، ستعود لتلقي السلام والتحية وهي تعبر من جديد ولكن هذه المرة ستكون عابرة إليه مباشرة، هو سيرفع رأسه وينظر إليها مبتسماً ومرحباً بها وبأوعية الطعام الساخنة التي ستعدها من أجله بيديها.



تهدَّج صوتها باسمه، ونهضت على الفور تُقبِل عليه بلهفة أم تستقبل ولدها الغائب بعد سنوات طويلة، ولكن مرضها لم يسعفها فاستندت على كتف «رجاء» صديقة حربها، بينما أسرع هو ينحني مقبِّلاً أعلى رأسها .

رائحة وشاحها الأبيض تذكره بأمه في أيامها الأخيرة، إنه يعرف تلك الرائحة جيداً، فهى تهب ملتصقة بالراحلين عنا، راية تخبرنا بأن نُسرع في الوداع.

– من فضلك ابقي في فراشك يا حاجة جليلة .

– وهل أنهض لأعزَّ منك يا ولدي؟.

رفع عينيه إلى «رجاء» التي قامت برسم ابتسامة متقنة على شفتيها اكتسبتها من طول عملها كممرضة تُطمِئن بها أهل المرضى أنَّ ذويهم بخير، بل ويتحسنون .

– لا تقلق، إنها بخير .. مجرد أزمة تعاودها من وقت لآخر.

سحب حسن المقعد المجاور؛ ليقربه من فراشها ثم جلس وهو يراقب شحوب وجهها الذي يتناقض مع ضوء عينيها وهي تنظر له بامتنان بالغ ثم قال:

– كنت أظن أن الأزمة ستذهب بغير رجعة وتعود إليك عافيتك من جديد ..بعد الصور التي أرسلتها لكِ .

اتسعت ابتسامتها الشاحبة وهي ترفع كفها بحماس مُوَدِعٍ وتشير بسبابتها قائلة بدمعات براقة :

– واللّه لو تعلم يا ولدي قيمة ما فعلته من أجلي ومن أجل الغالي.. لعرفت أنك قد رددت عليَّ روحي وشرفنا، وليسَ مجرد عافية زائلة .

طأطأ رأسه بخزي من نفسه، إنه يعلم جيداً أنَّ ما فعله لم يكن من أجل الحاجة جليلة فقط، وإلا لما كان تردد في البداية وفكَّر كثيراً وبدأ في التسويف، لم يكن على علاقة بها ولا حتى يعرفها أو يعرف ولدها ابن العاشرة، فلماذا يقدم ثأراً وكأنه أحد أفراد العائلة؟!

لقد راقب «شاهين وسيد» جيِّداً، وتأكد بنفسه من سلوكهما الشاذ ليس فقط فيما بينهما، ولكن أيضاً بإجبار بعض المساجين الضعفاء على نفس الفعل البغيض، وبالرغم من ذلك لم يكن قد اتخذ قراره بعد حتى حدثت الكارثة وكان «كريم» آخر ضحاياهما، مما جعله يحسم قراره في الحال، فهما مجرد جرثومتين لا يستحقان الحياة .

دبَّر كل شيء مستخدماً صلاحياته التي عَمِلَ على تضخيمها طوال مدة حبسه، واستخدم «كريم» كطعم لهما، ولقد التقطا الطعم بسهولة عندما واعدهما للقاء جديد في المرحاض الذي لفظا فيه أنفاسهما الأخيرة على يديه، وبنفس الطريقة التي يتَّبعانها مع ضحاياهما.

الخنق من الخلف حتى يستسلم الضحية تماماً إلا أنه خالفهما في الخطوة الأخيرة فلم يتركهما يتنفسان بعد ذلك .

لقد كانت لكمته الأولى لأنف البائس «سيد» كفيلة بأن تفقده توازنه، وتلقيه أرضاً فاقداً لوعيه ليتمكن «كريم» من تثبيته هناك، بينما منح «شاهين» كل طاقات غضبه المتفجرة وهو ينتزع منه الحياة بسلسال حديدي كما طلبت السيدة جليلة بالضبط عبر الهاتف ..

الهاتف الذي تم تسريبه إليه في السجن وهو يعرف جيداً أن وصوله إليه يتطلب مبلغاً من المال لا يستهان به، ولذلك كان يظن في البداية أن السيدة صاحبة الثأر وذات اللهجة الصعيدية لديها من الأموال ما يوفر لها ذلك ، ولكنه الآن متفاجئٌ، فالواقع مختلف تماماً.

المرأة العجوز تَقطُن في حي قريب جداً من الحي الذي يسكن به، والشقة المتواضعة خاصتها تفصح عن ضيق يد صاحبتها .. فمَن إذن صاحب تلك العطايا الوفيرة ؟!

- حسن ؟.

كانت تعلم ما يدور بخلده الآن فنادته؛ لتعيده إليهما مجدداً، فهي الشاهدة الوحيدة من بعده على تردده وعدم تقبله ذلك العرض من البداية، لكنها أخفت ذلك على جليلة، كانت تريد منحها أيَّ أمل ولو ضعيفاً يجعلها تتمسك بالحياة ، حتى ولو كان أملاً زائفاً، فهي تعيش نفس الكابوس، وربما لولا نفس الأمل البعيد الذي تم حقنها به لكانت لحقت بفتاتها منذ زمن وتخلصت من البقية المتبقية منها.

انحنت «رجاء» وهي تمسح على ذراع «جليلة» برحمة، وهي تهمس لها باصطحاب ضيفها إلى الخارج لتتركها ترتاح قليلاً.

همستها مسَّت مسامعها فنهض على الفور وهو يرى إيماءة «جليلة» بالموافقة بينما عيناها لا تفارقانه، انسحب من الغرفة عائداً بظهره إلى الخلف نحو الباب وقد أَبَتْ عيناه إلا وداعاً أخيراً.

وعندما خرج إلى الصالة المواجهة لباب الشقة وقف مستنداً إلى الجدار متأملاً في الصورة المؤطَّرة المعلقة هناك وحيدة لطفلٍ ينظر إلى مصوِّره ويبتسم بوقارٍ لا يتناسب مع سنواته القليلة، شَعره مهذَّبٌ ومصفَّفٌ على جانب واحد.

نظراته كلها أمل ورجاء في مستقبل حالم ينتظره، فقط لو كانا تركاه ليحيا .

- لم تسأل عن اسم الفتى ولو حتى لمرة واحدة .

انزلقت يده التي كانت تستند إلى الجدار ملتفتاً إليها بحزن قائلاً:

- لن يشكل ذلك فارقاً كبيراً، في كل الأحوال هو طفل ضعيف.. وهذا هو كل ذنبه مثله مثل سلمى تماماً.

استندت إلى الحائط بكتفها وقد عبرت نظراتها الكئيبة من خلاله بعيداً إلى حيث غبار تذروه الرياح فوق أرض يضم باطنها رفات فتاتها الوحيدة، وبجوارها دقَّتْ لوحاً خشبياً لتصلب نفسها فوقه، بينما غبار القبر يعلو؛ ليعمي عينيها وتصم رياحه أذنيها .

- أنا مَن قتلتها يا حسن.. لو كنت استمعتُ إليها كل صباح ببعض الاهتمام وهي تشكو .. فقط ببعض الاهتمام.. لو كنت صدقتها وهي تحكي لي عن مضايقات رمزي لها .. فقط لو كنت صدقتها.

استند هو الآخر بكتفه على نفس الجدار عاقداً ذراعيه فوق صدره قائلاً:

- ما زلتِ تجلدين نفسك يا خالة.

لو كانا تبادلا أطراف هذا الحديث منذ ثلاث سنوات لكانت قد انهارت باكية في تلك اللحظة، ولكن الآن بعد أن جفَّ دمعها كلما أرادت أن تبكي تجد رصيدها من الدموع قد نضبَ، ولم يعد متبقيًّاً لديها سوى سوطٍ تجلد به روحها.

- كنتُ أسخر منها بداخل نفسي وهي تحكي لي عن الشاب الذي يغازلها وأقول: مَن ذلك الأحمق الذي سيترك كل زميلاتها وينظر إليها هي بعرجتها تلك؟ !.. كانت تلاحظ نظراتي الساخرة وتصمت .. تصمت .. وتصمت .. حتى جاء اليوم الذي صمتت فيه إلى الأبد .. أيُّ أمٍّ أنا؟ .. أسهر في عملي في المصحة لرعاية غيرها، بينما أتركها هي لتعود في الظلام وحيدة ظناً مني ألا أحد سيعيرها اهتمامه .. أنا لم أستحقها فاسترد الله وديعته.

حرر «حسن» ذراعيه، واعتدل في وقفته وهو يشعر بها تنسحب إلى عالم موازٍ لا رجعة منه، كل سكانه قد صلبوا أنفسهم بعذاب ضمائرهم ثم قال بجدِّيَّة:

- لقد منحت فتاةً أخرى ما كانت تحتاجه من رعاية أثناء مرضها.. أم نسيتِ أنَّكِ أوَّل مَن لجأتُ إليه عندما سقطت غفران فاقدة للوعي بين يدي.

ابتسمتْ ساخرة منهما معاً وهي ترفع حاجبيها بدهشة قائلة:

- باللّه عليك يا حسن .. أي رعاية هذه وأنا أتركها معك وحيدة وأنصرف مكتفية بوخزة إبرة ونصيحة؟ .

- وأَمَل .. وما فعلتِه من أجلها ؟!

سؤاله كان يجمع بين التخفيف عنها والفضول في آنٍ واحدٍ، فأجابت على الفور وقد اكتسى وجهها بقناع سميك استحال عليه سبر أغواره .

- من الأفضل لك ألا تسأل عنها مجدداً .

كانت حاسمة يشوب نبرة صوتها الغموض الحزين ولكنها رفعت من وتيرة فضوله الذي لم يتحلَّ به يوماً وقال بجدية:

- خالة رجاء، أنا لست قاتلاً مأجوراً؛ ليكون عليَّ السمع والطاعة دون فهم .

رفعت نظراتها إليه بقوة تجابهه بها قائلة:

- أنت لم تشارك في شيءٍ يخصها، فلماذا تريد أن تعرف ؟.

- لأنكِ متورطة في الأمر .

زفرت متأففة .. إنَّها ليست المرة الأولى التي يقوم فيها بالضغط عليها؛ ليعرف أموراً قد تؤذيه، في البداية ومنذ عامٍ تحديداً كان يريد أن يعرف مَن الذي يقوم بدفع تلك الأموال الطائلة لتمرير الهاتف له داخل محبسه؟.

ومَن الذي أرسل إليه دفعة مالية كبيرة بعد خروجه من السجن مباشرة عن طريقها؛ ليستطيع تنفيذ بقية الاتفاق ويبحث عن «رمزي»؟.

أما الآن وبعد أن قام بتسليم نفسه للشرطة متوهماً أنه قد تم القبض عليها بتهمة قتل «رمزي» ثم علِم بعد ذلك أن التهمة كانت بجريمة قتل أخرى، فتيقن أن هناك آخر يدير كل هذا من وراء الستار، ورجاء هي حلقة الوصل بينهما.

- ما تخشاه لن يحدث.. فـ عاصم قد واجهني بتلك الممرضة التي وصفت ملامحي والنتيجة أنني أقف الآن أمامك كما ترى .. لا شيء يدينني على الإطلاق .. من فضلك أريد أن أطمئن على غفران .

إنها تدفع أشرعة الحوار إلى اتجاه آخر، ومعنى هذا أنَّ العواصف في الاتجاه الذي يريد السير فيه لا تحمد عقباها ، فليكن ما تريده .. ولكنه لن يلبث أن يعود إلى اتجاهه الأول .. في وقت لاحق.

أغمض عينيه للحظاتٍ؛ ليهدأ، ما كان ليضحي بعائلته الجديدة ويفقدها بهذه السهولة، الحاجة «جليلة» والخالة «رجاء» ومساعده المخلص «كريم» وأخيراً .. «غفران».

تلك التي عرض عليها الزواج أثناء هذيانها المتكرر، بينما أبدت هي موافقتها عندما وقفت أمام النيابة؛ لتدافع عنه مدعية أنها خطيبته ولم يقم بخطفها.

- سأتزوجها .. ولكن بعد أن أشرح لها كل شيء أولاً.

- اصبر قليلاً يا حسن.. فالفتاة لا زالت تعاني صدمة وفاة أبيها، وما أصاب والدتها من أمراض .. أريد أن ألقاها وأتحدث إليها.. ثم إلى والدتها .. وقتها ستكون في حاجة إلى معاملة نفسية خاصة بدونها سترفضك بالتأكيد كزوجٍ لابنتها .

ابتسم بإرهاق، فالخالة «رجاء» لا إرادياً تجهز نفسها لهدفٍ جديدٍ تحيا من أجله، تنهض كل صباح لتحقيقه، لا تتناول طعامها إلا لتتقوى عليه، ربما هو مَن منحها هذا الهدف وهو لا يدري بمناداته لها بالخالة مراراً وتكراراً فاعتبرت نفسها خالته بالفعل، والخالة في عرفنا أُمُّه البديلة، وهي وإن فشلت في أمومتها لفقيدتها «سلمى»، فلن تفشل هذه المرة مع « حسن» .

لقد تعبت من النظر إلى الجدران البيضاء في الممر الطويل ذهاباً وإياباً، وإذا كنا نعرف أنَّ الحياة اختبارات ومِحَن، فكيف نتوقع أن تكون سهلة وبسيطة ؟!.



ثلاثة أيام مرَّتْ وهو يعمل على تجهيز المخزن البعيد ليصير ورشته الجديدة، يبدأ فيها حياته الجديدة بعيداً عن الحي القديم ، نعَم .. هي في منطقة متطرفة قليلاً ولكن طريق السيارات السريع قريب جداً منه بخلاف تلك السيارات الفارهة التي كانت تدهس إطاراتها الحي الشعبي القديم من أجل مهارته وأمانته اللتين اشتهر بهما، فستتوغل هناك أيضاً في هذا التراب؛ لتصل إليه كما فعلت من قبل لا محالة ، خصوصاً وأنَّ علاقته التي أنشأها مع مأمور السجن لا زالت قائمة والرجل قدَّم إليه وعوداً بأن يرسل إليه كل معارفه الذين يحتاجونه .

طرق بقوة على الحلقة الحديدة المثبتة بجوار فراش أسيرته الصغيرة ليكسرها، فهو لا يريد لها أن تراها عند عودتها لزيارته، لا يريدها أن تتذكر تلك الأيام وقتما كانت حبيسة بالداخل.

لم يكن يعلم أنها أحب الأيام إليها وربما أيضاً ستحزن عندما تزوره، فلا تجد قيدها الذي أحبته، لكنها لن تسأله عنه يوماً برغم شوقها إليه .

ارتفع رنين هاتفه فترك ما بيده على الفور، عندما علِم أن «رجاء» تنتظره ليذهبا سويًّاً لرؤية «غفران»، تلك الزيارة التي تأخرت كثيراً.

لقد كان يستعد لمواجهة ماضيه كله، ماضيه الذي ينظر إليه الآن بعيونٍ مختلفة، الورشة التي يتم إعادة تدويرها من مالكها الجديد؛ لتصير مقهى كبيراً يتصدر الحي، بينما الشجرة هناك ما زالت كما هي ملاصقة لها

بأوراقها الكثيفة المتدلية، صفوان باع كل شيء لشخصٍ آخر وقبض الثمن وهرب من مواجهته، هرب من مواجهته ومن الحي بأكمله .

التفت نحو «رجاء» التي كانت تقف بجواره وكما توقع تماماً، عيناها كانتا مثبتتين أسفل شجرتهما الشاهدة على أحزانهما .

- خالة رجاء ؟

تنفست بعمق .. فجاء تنفسها سريعاً متقطعاً كمَن يشهق طلباً للهواء بعد نفاده من رئتيه ثم أسبلت أهدابها؛ لتلملم شتات عقلها، فقال على الفور وهو يشير إلى الاتجاه المؤدي إلى منزل غفران :

- هل نذهب؟ .

أومأت بابتسامة مبتورة وخطت للأمام بأنفاس مسروقة نحو الطريق الذي أشار إليه .

«غفران» كانت تعلم بموعد الزيارة فاستعدت لاستقبالهما، لذلك ارتدت كامل ثيابها وحجابها وجلست في صمت وهدوء بجوار رجاء على الأريكة، لم تكن خجلة بقدر ما كانت تائهة وفي عينيها تدور عشرات التساؤلات، أولهم .. وماذا بعد ؟!.

في الأيام الماضية اجترت ذكرياتها وبدأ حماسها لكل شيءٍ يخفت كلما خفتت الأصوات الآتية من النافذة المفتوحة والشعور بالوحدة والضياع يلفُّها، صارت أرضاً خصيبة لجذور الأفكار الكئيبة، فتاة وحيدة بلا عمل ، بلا مؤهلات دراسية، وأم مريضة عيناها تتهمانها دائماً بأنها السبب في كل ما جرى .. وبلا حسن !!

«حسن» الذي اختفى ولم تسمع عنه سوى القليل من الأخبار التي نقلها «كريم» إليها صباحاً ووصية منه بأن تعتني بنفسها حتى يأتي بنفسه .

وأخيراً جاء .. متأخراً نعَم .. ولكن يكفي أنه حضر .

جاء بصحبة الخالة التي لا تعرف كيف تبتسم لها وهي في الحقيقة شقيقة المجرم الذي قتل ابنتها؟، يالها من علاقات متشابكة ومعقدة وغير منطقية على الإطلاق!.

– كيف حالكِ يا غفران ؟.

– بخيرٍ يا خالة .. شكراً لك.

إجابتها جاءت هامسة بينما تناظر رجاء بدهشة متعجبة من رقتها البادية عليها، دهشتها كانت واضحة وصريحة مما جعل رجاء تبتسم، ودون أن تصل ابتسامتها إلى عينيها قالت وهي تربت على كفيها:

– لا تتعجبي هكذا .. فأنت بالنسبة لي غفران وفقط دون أيِّ تعقيدات أخرى .

أومأت غفران دون اقتناع حقيقي هامسة مرة أخرى :

– أشكركِ على اعتنائك بي في مرضي .

قالتها وهي تناظر «حسن» الجالس على مقعد منفرد يرقُب كل خلجاتها بينما هي ترجُف مستطردة:

– حسن أخبرني أنَّكِ أنتِ مَن اعتنى بي عندما فقدت وعيي في المخزن .

رفعت «رجاء» حاجبيها بتلقائية وهي تقول بودٍّ لا تدَّعيه:

- لا داعي للشكر .. فأنتِ تقريباً في عمر ابنتي - رحمها الله -.. تكبرينها بعامٍ واحدٍ.

فركت «غفران» كفيها بتوتر واحتقنت عيناها بالدموع قائلة بنبرة موشكة على البكاء :

- آسفة يا خالة .. فأنا سبب كل ما جرى .. لقد خرج من البيت بسببي.. والتحق بورشة حسن بسببي .. ورآها هناك بسببي .. كل شيء كان بسببي .

غمرت الدموع وجهها مطرقة برأسها نحو كفيها اللتين تعتصران بعضهما البعض، تزُمُّ شفتيها ويتغضن أسفل ذقنها وهي تحاول أن تمنع بكاءها الحار وشهقاتها المرتفعة التي انفلتت منها رغماً عنها.

تحرك «حسن» في مقعده قلقاً عليها مستنداً إلى ذراعه هاتفاً بينما هو يناظر رجاء برجاء:

- اهدأي يا غفران .. اهدأي .

أشارت «رجاء» إليه بيدها أنَّ عليه هو أن يهدأ أولاً ، ثم التفتت نحو «غفران» وهي تتناول كفيها لتفك اشتباكهما وهي تحني جذعها نحوها مقتربة منها وتقول بجدية :

- أنتِ مجنيٌّ عليكِ مثلها تماماً يا غفران .. لقد قمتِ بالتصرف الصحيح كما علمت القصة كاملة من حسن .

انسكب ماء عيونها أكثر بلا توقف وارتفعت وتيرة نشيجها فلم تعد تتحكم بأي شيءٍ فيها ولا حتى تنفسها، ضغطت أصابعها التي تتشابك مع أصابع رجاء التي مازالت تمسك بها هاتفة:

- أنا لم أطرده ولم يفعل أبي ذلك .. أُقسم لكِ لقد خرج إلى الطريق بإرادته .. ولم يعُد حتى بعد أن علِم بتكذيب أبي لي وأنه كرهني لأجله .

خبرتها الطويلة في المصحة النفسية تخبرها أنَّ الفتاة تقف على حافة الهاوية، فعمرها صغير وخبرتها مضمحلة، ويقتلها لفظ والديها لها دون أن ترتكب جريمة .. إحساسها بالذنب تجاه الجميع وأولهم «سلمى» يخنقها ويَقبِضُ على عنقها، إنَّها تكره ذاتها كما لم تفعل من قبل ولا بد من إنقاذ سريع لها، ومن حُسن قدرها أنَّ إسعافتها الخاصة متواجدة بجوارها، امرأة تتحرك بأُمومتها الجريحة وبمهنية عالية .

قبضت رجاء على كفيها أكثر لتدعمها ونظرت داخل عينيها بقوة مانحة إياها كل الدعم الممكن قائلة:

- والدكِ لم يكرهك يوماً والدليل على هذا .. أنَّه كان من الممكن أن يعقد قرانك على أنور برهان في التوِّ؛ ليتخلص منكِ على الفور وليخرسه إلى الأبد .. ولكنه على عكس ذلك ظل يماطل واكتفى بالخِطبة .. وأظنُّ بأنَّه كان ينتظر الحكم النهائي حتى ينهيها بلا رجعة.

نظرت لها «غفران» بتشتت، لقد بعثرت أفكارها وتلاعبت بها في لحظة ولم تتوقف عند هذا الحد بل أردفت متابعة بنفس القوة والثقة.

- لقد كان يحبكِ.. ولكنه كان أسيراً لرمزي .. مريض به .. هو ووالدتك ... وبعض الأمراض تكون مستعصية.. وخبيثة .

بدلاً من أن يخفت صوت بكائها ارتفع أكثر، جسدها يختض، ظهرها مُنْحَنٍ ومُطرِقَة الرأس، دموعها متساقطة فوق الأكُف المتشابكة.

تبادلت «رجاء» النظرات مع «حسن» الناظر لها بامتنانٍ شديدٍ وتعاطفٍ في آنٍ واحد، لقد غلب حنانها وضميرها الحي كرهها لهذا الشخص المقيت هو وابنه المدلل، فابتسمت له رجاء على الفور لتخبره أنها بخير ولا تعاني كما يظن، فالرحمة لا يجب أن تكون محل دهشة أو امتنان.

لحظات وبدأ البكاء يتحول إلى شهقات خفيضة متقطعة ويعود إلى مداره الأول وقد استنفذت كل طاقتها ودموعها، تفسير «رجاء» أرضاها ومنحها مخرجاً نحو أَمَلٍ يراودها .. أن تكون محبوبة من عائلتها مثل بقية الفتيات.

التقبل من الآخرين هو الحرب الضروس التي يخوضها الإنسان طيلة يومه؛ ليشعر به ممَّن حوله، فكيف بمَن نعيش معه ثلث أعمارنا على الأقل؟!.

وضعت «رجاء» أصابعها أسفل ذقنها بعد أن استطاعت تخليصها من بين أصابع «غفران» لترفع رأسها إليها وتتلاقى أعينهما مجدداً، وقالت:

– وحتى لا تبتأسي فوالدك ليس وحده الذي كان يمنعه مرضه الخبيث من احتوائه.. حسن أيضاً مثلك في هذا الشأن مع أبيه.

التفت «حسن» إليها بغضبٍ عارمٍ مدفونٍ بداخله استطاعت إخراجه بعبارتها تلك، يحذرها بنظراته من أنَّ تلعب معه هذه اللعبة، ولكنها بادلته النظر بتحدٍّ وهي تتابع حديثها إلى «غفران» قائلة:

– ولكن مع بعض الفروق والاختلاف .. أنور برهان كان مرضه البخل الشديد في المال والمشاعر .. ومثله عندما يُفاجَأ بمسؤوليته عن زوجة وطفلٍ يصاب بسُعارٍ ويجد نفسه يحاول الفتك بهما دون ضمير حيٍّ بداخله يوقظه من تلك الأفعال .. كان يعرف أن حسن ابنه ومِن صُلبه والدليل على هذا أنَّه لم يحاول ولو لمرةٍ واحدةٍ أن يقيم قضية نفي نسبته إليه .. وهو بالتأكيد كان يعلم أنه ولو ماتٍ بهذا الوضع فسيكون حسن هو وريثه الوحيد ..

- خالة رجاااااء .

هتف «حسن» بها واقفاً يقاطع حديثها بينما مقلتاه تشتعلان غضباً، بل جسده كله اشتعل وليس عينيه فقط، إنه ليس «غفران» ليتعلق بالقشة، ولا يبحث عن العفو بداخله مثلها؛ ليستجيب لبضعة أحاديث نفسية تجعله سويًّاً من جديد.

إنها منطقة مُحرَّمة لديه ولن يسمح لأحد أن يتخطاها ليقوم بتنظيفها ورشها بماء الورد.

انقطعت شهقات «غفران» وصمتت «رجاء» تفكر وهي تراه كمَن يقف فوق الجمر يدس كفيه في جيبه غاضباً مشيحاً بوجهه عنها.

الضوضاء المنبعثة من بائع أسطوانات الغاز في الشارع هي فقط التي كانت تخترق هذا الصمت الذي أحاط بهم والذي قطعه هو بعد لحظات وهو يتقدم نحو «غفران» قائلاً بتجهم:

- هناك أشياء حدثت لي لا بد أن تعرفيها .. هذا حقكِ .

كان ينظر إليها بجمود وكأنها لا تعنيه مما جعلها تُزيح دمعها جانباً وتنهض لتقف قُبالته تبحث في ملامحه عن «حسن» الذي كان جالساً بالجوار منذ دقائق ولكنها لم تجده، وهو لم يساعدها عندما تفوَّه فجأة بنبرة لا روح فيها:

- حقك أن تعرفي كل شيء منذ اللحظة التي وُضِع فيها الهاتف بيدي داخل السجن.. ثم استماعي إلى صوت السيدة جليلة من خلاله وهي تمنحني حق القصاص من الذين أزهقوا روح ولدها بصفتها ولية الدم .. وحتى خروجي من السجن واختطافي لكِ .. ولعلمك .. كان من الممكن أن أقتلكِ لو استدعت الظروف.

قال عبارته الأخيرة بتجهم أكبر كمَن يدفعها بعيداً عنه، أو الأكثر من ذلك .. أن تكرهه .

صمت لِلَحظة؛ ليبتلع فيها غُصَّته الشائكة وليستدعي ذكرياته بنفس الترتيب، ولكنها فاجأته قائلة:

- لقد خدعتك !.

اتسعت عينا «رجاء» بدهشة وهي تنظر إليها بصدمة، بينما تابعت «غفران» حديثها بتردد:

- أنا ادعيت الخوف عندما أخبرتني عن «فيشة بن ناميشة» و «زلاطة بن بلاطة».

ضيقت «رجاء» ما بين عينيها متعجبة دون أن تفهم شيئاً مما قالته «غفران» الآن، أما هو فقد لاحت الذكرى في عينيه رغماً عنه، فانصهر بعض الجليد الذي كان يغطي ملامحه وهو يميل برأسه للأمام قليلاً بعينين متسائلتين، تابعت هي عادتها في تشبيك أصابعها مستطردة:

- شعرت بالسعادة؛ لأنك قمت بتأليف تلك الحكاية الساذجة عن العفاريت.. فقط حتى أتوقف عن البكاء .. وأنا لم أحظَ يوماً على اهتمام أحدٍ لدرجة أن يؤلف حكاية من أجلي مهما كان السبب.

نبتت ابتسامة على شفتيه كما تنبت الزهرة في حضن الصخور قائلاً:

- لا أملك سوى تلك القصص المخيفة للأسف .

زمت شفتيها بتبرم قبل أن تقول متشككة:

- ستنتهي ذات يوم.. وستكون هناك حكايات أخرى .

- لماذا أشعر أنَّ وجودي غير مرغوب فيه؟!.

قالتها «رجاء» باستمتاع؛ لتنبههما بوجودها، فالتفتا نحوها؛ ليجداها تسند ذقنها إلى قبضتها جالسة كما هي تراقبهما بابتسامة حانية.



هبطت «رجاء» الدَّرَج مستندة إلى حافة السور بينما الابتسامة ذاتها مازالت تسكن شفتيها مختلطة بالدهشة كلما ألقت نظرة نحو «حسن» الذي يهبط الدَّرَج بجوارها محاولاً تفادي النظر إليها، هو يعلم أنَّ كل علامات الدهشة والتعجب تتصارع في رأسها الآن، فلقد شاهدته في حالات كثيرة بعد خروجه من السجن غاضباً، منتقماً، ساخراً لا يبالي حتى بالقبض عليه وعودته للسجن مرة أخرى، مغامراً حتى رمقه الأخير، غامضاً منغلقاً على أحزانه، آسِفاً، نادماً متألماً على الأرواح البريئة التي زهقت دون جُرم، حنوناً على كلِّ مَن تحمل لقب أمٍّ .. وعلى صديقه «كريم» .

أما حالة الحب المختلطة بالأبوة المسيطرة عليه الآن، فلم تخطر لها على بال أبداً.

انتهى الدَّرَج سريعاً ووقفت أمامه حاملة نفس النظرة، فتنحنح وهو يجلي حنجرته متسائلاً بحيرة :

- هل كان من الصواب أن أبوح لها بكل تلك الأسرار؟.

- لا تخف .. تلك الأسرار وأكثر منها لن تزحزحها عن موافقتها التي أعلنتها مرتين .. أخراهما التي كانت أمامي منذ لحظات.

دسَّ كفيه في بنطاله متنحنحاً من جديد ناظراً إلى كل شيء من حولهما سواها، وقال بدفاعية تفهَّمتها:

- أنا .. أنا أقصد فقط خطورة إفشاء أسرار كهذه .. فهي مازالت صغيرة .

عقدت «رجاء» ذراعيها أمام صدرها ممازحة وقالت:

- نعَم .. بالكاد أتمت الحادية والعشرين .

ثم صمتت تاركة عينيه تتجول أعلى الدَّرَج ثم تفاصيل البناية دون أن يصطدم بعينيها حتى أطلقت تنهيدة مرتفعة قائلة:

- غفران متعلقة بك بشدة.. الدقائق التي تركتنا فيها وحدنا كانت كفيلة بأن أرى ما بداخل قلبها الذي تبوح هي بما فيه بيسر وسهولة.. لقد كنت في السابق بالنسبة لها مجرد حبيب لفترة المراهقة .. احتل عقلها وقلبها وظلَّ خياله مستوطناً بهما طوال السنوات السابقة .. أما الآن فهي تراك بطلاً مُنقذاً، تسعى لتنفيذ العدالة السماوية .. الوحش الذي خطف الجميلة التي لم تعتقد بأنها جميلة يوماً.. حتى أخبرها هو ذات يوم بطريقته الخاصة .. حافَظَ عليها بعد أن حاول أن ينهشها الجميع .. أنت بالنسبة لها الأمان الذي لم يمنحه لها والدها في بيته .. أنت القصة التي لم تحكِها لها أمُّها ذات مساء .. فهل تتصور أن تترك كل هذا لأجل مغتصبين توليت القصاص منهما !!.

- خالة رجاء !

اندفع «كريم» مقاطعاً تلك الهالة غير المرئيَّة التي صنعتها حولهما بحديثها الخافت الواثق وكلماتها التي اخترقت شَغاف قلبه واستقرت به كالجبال الشامخة تثبت أركانه.

- كيف حالك يا كريم؟ .. لم تتصل بي منذ ثلاثة أيامٍ .

- آسف يا خالة لقد كنت منشغلاً جدًّاً مع حسن في الورشة الجديدة صباحاً.. وبعد الظهر أُقِلُّ خطيبته في سيارة أجرة إلى والدتها.. وأنتظرها أسفل المشفى حتى أعود بها مرة أخرى .. ثم أذهب إلى حسن مجدداً.

أنهى عبارته الطويلة بزفرةٍ بائسةٍ جعلتها تضحك ضحكة خفيضة انتهت وهي تستدير برأسها نحو «حسنٍ» الذي كان يُمَسِّد عنقه من الخلف في محاولة للهروب من سؤالها الحتمي المتوقع الذي أصرت أن تسأله:

- لماذا لم تكن تُقِلُّها بنفسك ؟.

اندفع «كريم» ثانية مجيباً بالنيابة عنه.

- إنَّه يتجنب المجيء هنا ومشاهدة الورشة القديمة التي تحولت لقهوة ....

- كريـــم .. انتهينا.

زجره «حسن» ليصمت فقالت «رجاء» مؤنبة:

- لا أعلم لماذا تتنازل عن حقك في ميراث والدك؟! .

- لم يكن يوماً حقي يا خالة .

- لم أعهدك مستسلماً هكذا.

زفر بقوة وهو ينظر عالياً؛ فقد عاودته الغُصَّة الشائكة من جديد، قاتل ليبتلعها للحظات، يعلم أنها ستفتك بصدره إلا أنه مضطر للسيطرة عليها، إنه وقت ارتداء الأقنعة الباردة اللامبالية، فنادته مجدَّداً بتصميم هذه المرة، أخفض رأسه إليها ببطء فباتت قراءة ملامحة من المستحيلات وقال:

- أيُّ شيء يعود إلى أنور برهان لا يخُصُّني على الإطلاق .. ولا حتى جثته التي ترقد في مشرحة المشفى ولا تجد مَن يدفنها.

أنهى كلمته الأخيرة مغادراً تاركاً كل شيء خلفه، مُذكِّراً نفسه أنَّ من بين تلك الأسباب التي تجعله مُوقناً أنَّه من صلب «أنور برهان» هذه القسوة التي تغلف قلبه تجاهه.

القسوة التي جعلتْ رجلاً يرمي بزوجته وابنه إلى الشارع دون أن يهتم بمصيرهما إلى أين؟ .. هي نفسها ما تجعله الآن يرمي بكل شيءٍ يحمل رائحته ..

لم يمر يوماً وهو على قيد الحياة إلا وناداه فيه بالنَّغل، وها قد آن الآوان ليكون معه نغلاً حقيقيًّاً.

يكفي .. يكفي تلك المحاولات التي نبذل فيها أعمارنا لنثبت لهم فقط أنَّنا أُناس صالحون .. مثاليون .. جيدون كما يريدوننا، دون أن نفكر للحظة واحدة أنهم لو أرادونا يوماً لتقبَّلونا بما نحن عليه، ولما كانوا ليتركونا على الجانب المظلم ويعبروا على أجسادنا إلى الجانب الآخر.. حيث أحلامهم التي لم و لن نكون إحداها على الإطلاق !.



بمحاذاة ساحل قلبها كانت تخطو كل يوم عشرات المرات، بينما وجيبه الحائر يهدر فوق رأسها ويَصُمُّ أذنيها؛ هل تحبه بالفعل أم تتوهم؟، وبين مدّ وجَزْر تلك العلاقة المعقدة تتكسر أمواج الشوق بالاكتفاء، ثم تنحسر كاشفة عن تلك الانتعاشة القلبية ولمعة الروح بها وهي تراه يعمل من بعيد، يسبح على طول خط الوريد، لاهياً عن تلك التي هناك، لا تجرؤ على شيء سوى أن تبلَّل قدميها على الشاطئ؛ لتستمتع بدفء شعاع بعيد، لن يلمسها يوماً.. أو هكذا ظنت !.

كان يقترب منها بينما هي لا تملك سوى أن تحملق في خطواته وتلك الوردة الحمراء التي أخبرتها أن الزهر الأبيض لم يكن ينتمي إليه !.

قدَّمها إليها كمَن يعتذر وهو يشاركها الجلوس على الأريكة الخشبية نفسها داخل حديقة المصحة النفسية قائلاً :

- لا أستطيع أن أُبقِيكِ في المصحة بعد الآن.. لقد أصبحتِ بخير وتستطيعين العودة إلى منزلك .

- اليوم ؟

جاء تساؤلها مرتبكاً حائراً رافضاً للرحيل، إلى مَن ستخرج؟، وكيف ستراه يوميًّاً كما كانت تفعل؟.

- لم أستعد بعدُ لمواجهة الناس في الخارج وحدي .. أنا لست قوية كفاية لـ .....

- أمل !

قاطع بعصبية مخاوفها المُنسدلة بغزارة على أحرفها، فصمتت تناظره بمعانيها الناضحة في عينيها بلا توقف محتجزة خلف قضبان صمتها لا تقوى إلَّا على النظر.

نفس العبارة التي كانت ترددها والدته دوماً عندما كان يطالبها بأن تطلب الطلاق من زوجها الذي تزوجته بعد وفاة أبيه، والذي كان يضربها حتى تتورم عيناها، كان «يحيى» ما زال فتى صغيراً لا يقدر على حمايتها، وبالرغم من ذلك كان يتدخل ويقفز فوق ظهره يضربه على رأسه ليتركها، ولكن ضعفه لم يكن لينصفه ولو لمرة، فيبيت ليلته معلَّقاً من قدمه رأساً على عقب في سقف الشرفة حتى يموت رعباً كل لحظة ليتعلم الأدب وليأكل البرد من عظامه كما يشاء، ويظل هكذا حتى قبيل الفجر بقليل، عندما تمشي أمه على أطراف أصابعها المكدومة، تفتح باب الشرفة بحذَرٍ وهي ترجو من بابها أن يصمت، ثم تجذبه نحو صدرها وهي تبكي وتطلب منه ألَّا يتدخل في المرة القادمة.

لم يفهم أبداً سر تعلقها بهذا الرجل برغم كل التوحش فيه، هل تحبه؟، أم تخشى مواجهة المجتمع كأرملة ترعى فتى يلِج إلى سن المراهقة بسرعة؟، فتى انطوى على نفسه، وفصلها عن العالم، سد أذنيه عن صرخاتها التي تأتي من خارج غرفته، يجتهد فقط ليدخل الجامعة ويدرس الطب النفسي.. فقط ليفهمها!!

- دكتور يحيى ..

التفت كلاهما في نفس اللحظة نحو النداء القريب القادم من الاتجاه الآخر الذي انتزع «أمل» من تأمُّله، وانتزعه هو من ذكرياته الأليمة.

نهض «يحيى» لاستقبال زائره غير المرغوب فيه والمُقبِل عليه بابتسامته الباردة حتى توقف أمامه مباشرة، فقال «يحيى» مرحِّباً بملامح منغلقة:

– أهلاً بكَ يا عاصم بيه .. خير؟!

اتسعت ابتسامة عاصم وهو يرفع كلا حاجبيه مدعياً الدهشة ويقول:

– وهل يأتي من ورائي سوى الخير .. يا دكتور؟!.

نهضت «أمل» منصرفة على الفور دون أن تتفوَّه بكلمة بعد أن شعرت بتلك الذبذبات المضطربة بينهما، شيَّعها «عاصم» بعينيه قبل أن يعود بهما مجدَّداً نحو «يحيى» قائلاً:

– هل نذهب إلى حجرة مكتبك أم نتكلم هنا؟!

لم يكن سؤالاً بمعناه المفهوم، لذلك أشار «يحيى» بيده إلى الاتجاه المؤدِّي إلى مكتبه ويسبقه بخطوة واحدة.

جلس «عاصم» بأريحيَّة كبيرة مستنداً إلى ظهر مقعده الجلدي الأسود تاركاً ذراعه مرتاحةً على حافة المكتب الخشبي الذي يقف في منتصف الغرفة يرقبه عاقداً كفيه خلف ظهره، دار بنظراته في أركان الحجرة وكأنه يدخلها للمرة الأولى حتى وقعت عيناه على «يحيى» الواقف بتحفُّز فاتسعت ابتسامته بمرحٍ لا يدعيه وهو يشير إليه بأن يرتاح على المقعد المقابل هاتفاً باستفزازٍ:

– تفضَّل يا دكتور .. اعتبر المكتب مكتبك.

أنهى عبارته ضاحكاً باستمتاع عائداً برأسه إلى الخلف.

تقدم «يحيى» جالساً أمامه مُنحنياً نحو ركبتَيْه مستنداً إليهما بمِرفقيه قائلاً:

- خير يا حضرة الضابط؟.

اعتدل في مقعده؛ ليتخذ نفس وضعية «يحيى» تماماً، فتلاقت نظراتهما بقوة وندِّية كمَن يستعدان لخوض مبارة في المصارعة، الغلبة فيها لأكثرهم تحكُّماً وخبرة، ثمَّ قال:

- آخر ما كان يخطر ببالي أن تكون أنت حلقتي المفقودة التي أبحث عنها منذ زمن .. يا دكتور !!.

تغضَّن جبين يحيى على الفور فسارع «عاصم» بلَكمة جديدة قائلاً:

- آه .. نسيت أن أُعزيكَ في وفاة زوجتك.

ضغط «يحيى» أضراسه فتحرك صدغاه، واحتقن وجهه بالدماء، فلمعت نظرات «عاصم» أكثر وبدأ يتوغَّل أكثر بقدميه في البِركة التي اختبر عمقها سابقاً بقدم واحدة، وضع يده في جيب سترته السوداء وأخرج منها ورقة تمَّ تمزيقها من دفتر كبير، وقال وهو يفُضُّ طيَّاتها ببطء:

- هناك فائدة في عدم التخلص من الدفاتر القديمة .. مثلاً قد تصادف اسماً لمريضة ذهبت إلى القتيل في عيادته وهي تنزف من جرَّاء حملٍ مبكر لم تكن تعلم بوجوده.. وعندما كادت أن تفقد وعيها عنده.. حجز لها غرفة العمليات بمكالمة هاتفية وحملها معه إلى المشفى التابع له وغادر العيادة بصحبتها معتذراً لبقية الحالات.

مدَّ يده بالورقة إلى «يحيى» الذي لم يكن في حاجة إلى قراءة ذلك الاسم وتمييزه من بين جميع الأسماء، قبض عليها بداخل راحته حتى كاد أن يسحقها برغم سُمكها وكبر حجمها، صدره يعلو ويهبط وهو يناظر «عاصم» ببغضٍ شديد قائلاً:

- ماذا تريد ؟.

اختفت ابتسامة «عاصم» تدريجيًّاً وهو يدرس الرجل الجالس أمامه بعناية، الرجل الذي بدأ قناع الهدوء والتحكم يذوب من فوق ملامحه ويظهر من خلفه شخصٌ آخر .. رجلٌ مطعون في شرفه وما زال ينزف حتى هذه اللحظة.

- أريد أن أخبرك أنه بعد التحريات الخاصة حول زائرات العيادة من السهل جداً الربط بين إحداهن وبينك.

همس «يحيى» من بين أسنانه المضغوطة باضطراب واضحٍ:

- زوجتي لم تذهب هناك سوى مرَّةٍ واحدة.. وقد كانت تجهض دون علمها.

أومأ «عاصم» موافقاً قبل أن يعود مثبتاً نظراته عليه محاصراً إيَّاه من جديد مستعرضاً لذكائه.

- لم يكن من الصعب معرفة أنها أصيبت بعدها بحالة نفسية، وفشلت أنت في علاجها لفترة طويلة انتهت بانتحارها .. ولم يكن من الصعب أيضاً معرفة أنك انغلقت على نفسك بعد موتها ولم تكن طبيعيًّاً على الإطلاق.. حتى بعد عودتكَ لعملك الذي مارسته رغم كل شيء.. ثم صادفتك حالة أمل الشبيهة إلى حالة زوجتك.

نهض «يحيى» مندفعاً وقد تحولت بشرته البيضاء إلى كتلة من الدماء بينما كفه لم تتخلَّ عن الورقة المسحوقة بداخله، أمَّا كفه الأخرى فقد كانت تتحرك بعشوائية وانتعاش كمَن يبحث عن شيء ليقوم بتحطيمه، تعرق جبينه بشدة هاتفاً وهو يفقد سيطرته على جسده بالكامل:

- للمرة الأخيرة يا عاصم .. ماذا تريد ؟

وقف «عاصم» أمامه مباشرة في مواجهته قائلًا بجدِّيَّة:

- أريد شيئين لا ثالث لهما .. الأول: أن تعرف أن جميع تحرياتي تخصني وحدي، فقد تم سحب القضية من تحت يدي ولم تعد تخصني بشيء.. وبالتالي أنا لست هنا بصفة رسمية .. والورقة التي بحوزتك تستطيع أن تمزقها أو تحرقها كيفما تشاء.. أما الشيء الثاني الذي أريده فهو أن تخبرني بماذا اعترف لك قبل أن تقتله؟ !.

لم يستطع «يحيى» أن يتمالك نفسه، بينما «عاصم» يخترق عقله ويسبر أغواره مستدعياً لذكرياته الكئيبة، فارتفعت يده الأخرى المضطربة وقبض بها على سترته ممسكاً بتلابيبه صارخاً:

- هل تعتقد أنَّني ساذج إلى هذه الدرجة ؟.

تخلص «عاصم» من قبضته وقد أيقن أنَّ المواجهة التي حضر من أجلها قد حانت لحظتها، وأنَّ الواقف أمامه الآن يرتعش كالمحموم قد مرَّ بحقيقة أذابت كرامته في آتون مشتعل، ولا زالت تفعل.

وفي خفة قام «عاصم» بنزع سترته وألقاها بعيداً، ثم أخرج كل ما في جيبيه بما فيه هاتفه المحمول الذي أغلقه وسلاحه، ووضعها جميعاً فوق المكتب، ثمَّ تقدم نحوه فاتحاً ذراعَيْه بحركة مسرحية لم يقصدها قائلاً بثقة:

- قم بتفتيشي كما تشاء؛ لتطمئن أنَّني لا أقوم بالتسجيل لك .

وجه «عاصم» كان ينضح بالحقيقة التي يريدها، إنه يريد المعلومة فقط، ولكن «يحيى» كان قد أبعد الطبيب قذفاً إيَّاه على طول ذراعه، والذي لم يكن سوى واجهة زجاجية هشَّة لرجلٍ متحضر لا يعلم أحد بأنه يقوم بتحطيم كل ما تقع عليه عيناه عندما يخلو بنفسه في غرفة نومه.

تلك الغرفة التي شهدَتْ فترة نقاهتها بعد أن عاد بها من المَشْفى وقد فقدت جنينها الذي لم يتعدَّ حمله الشهر الواحد، وبعد أن بدأت تتعافى وتعود إلى حياتها الطبيعية، انتكست من جديد دون أن يفهم ماذا يحدث لها؟، هل هي صدمة متأخرة أم ماذا؟.

عادت ذات يوم من الخارج إلى غرفة نومها، ووجهها شاحب صامتة مصدومة، انغلقت على نفسها وامتنعت عن الطعام والكلام ولم تخرج منها إلا على مَشْفى آخر لِتُزَوَّد بمغذيات طبية في محاولة للحفاظ على حياتها.

حتى قررت إنهاء حياتها بيديها، ولكن ليس قبل أن ترسل له رسالة في لحظة احتضارها الصامتة، رسالة يحفظها عن ظهر قلب:

«آسفة يا يحيى .. لم أستطع الحفاظ على شرفي وشرفك .. لكن رغماً عنِّي صدقني.. لم أعلم حتى أخبرتني الفتاة السمراء».

هزة عنيفة أجبرته على العودة إلى أرض الواقع والنظر في وجه «عاصم» ثانية الذي كان قابضاً على مجامع سترته البيضاء الخاصة بالأطباء ويهزه بقوة قائلاً:

- تكلم يا يحيى أريد أن أعرف فقط .

وبمقلتين زائغتين ممتلئتين بالنيران المشتعلة، وبراكين تسكنها مَرَدة الشياطين التي لا تهدأ أبداً حتى تشعل كل ما تطوله يداها من حولها، جاء صوته من أعماق الجحيم قائلاً:

- كان يستغيث طلباً للرحمة.. بينما كنت أسلخ جلده وأحرمه مما كان يعتدي به على النساء .. كان كالخِنزير يُقبل قدمي ويغسل حذائي بدموعه وهو يعترف بما فعله بزوجتي وبـ « أمل »، وهما تحت تأثير المُخدِّر ... ولم يكتفِ باغتصابهما فقط.. بل أراد تعذيبهما بساديته البغيضة فأرسل إليهما بعد ذلك ممرِّضته السمراء؛ لتخبرهما بما حدث بعد فترة يتأكَّد فيها من طمس كل الأدلة .. كنت أنوي قتله فقط ولكن بعد اعترافاته قرَّرْت أن أعامله بنفس ساديته التي عاملهما بها .. لقد بدأ بزوجتي وعندما ماتت ظن أنَّ كل امرأة بعدها ستقتل نفسها كما فعلت هي .. ولكن إرادة الله أبقت أمل على قيد الحياة وساقَتْها إليَّ؛ لتَفُكَّ بحكايتها شفرة رسالة زوجتي .. وأفهم.

- والممرضة السمراء يا يحيى .. ماذا فعلت بها ؟.

- لقد كانت عاهرة .. خرجت في ليلةٍ ما لملاقاة إحدى زبائنها، ولم تعد بعد أن اعترفت أنها كانت تستمتع بتعذيب النساء من ضحاياهما هي والخِنزير الآخر.

- ولماذا تركت طبيب التخدير حيّاً؟!

- منذ أن علم بمقتل الخنزير الأول وهو مختبئ كالكلب.. يموت كل يوم ألف مرة وهو ينتظر موته.. فلم أشأ أن أرحمه بإنهاء حياته سريعاً.

أغمض «عاصم» عينيه بينما قبضته تخُور حتى تهدَّلتْ ذراعه بجواره، لقد وجد الحلقة المفقودة ولكن مع الأسف طعنَتْه في خاصرته، وعلقت هناك تاركة إيَّاه مصاباً في صحراء الحقيقة التي كان يبحث فيها .

نصف الحقيقة عرفها عندما بحث بداخل السجن، ووصلته معلومة الهاتف الذي دفع فيه مبلغاً من المال لا بأس به ليصل إلى «حسن»، ذلك المبلغ الذي لا تستطيع «رجاء» أو «جليلة» تدبيره.

وها هو يصل الآن إلى النصف الآخر منها، لم يكن «يحيى» مجرد متبرع، لقد دفع ثمن مساعدة رجاء له في الوصول إلى الطبيب وحيداً في عيادته.

وها هو الآن بعد أن اكتملت الدائرة يجد نفسه وقد تبدلت الأدوار، فوقف حائراً في منتصف الغرفة بينما صورة «أروى» تُطِلُّ من عقله فجأة؛ لتضعه أمام نفسه كما تفعل دوماً.

ماذا لو كانت زوجته إحدى ضحاياه وحدث لها كما حدث لزوجة هذا الظل الذي يقف قُبالته الآن بنظرات ضائعة، أو كما حدث لأَمَل؟ .. هل كان سيذهب ليحرر محضراً أم سيقتص في التوِّ بيديه العاريتين؟؟.

مجرد تخيل الموقف جعل الدماء تندفع إلى عروقه ليصل إلى حالة مشابهة من حالة الاحتقان المسيطرة على وجه «يحيى» في هذه اللحظة، لم يكن في حاجة إلى كثير من الوقت؛ ليحرِّك رأسه نفياً متمتماً لنفسه:

«ما كنت ستمتلك رفاهية الوقت يا عاصم .. كنت ستفرغ خزانة مسدسك برأسه في التوِّ»



طرقات سريعة على باب غرفتي وصلت إلى مسامعي وجعلت أصابعي تتوقف عن الكتابة فوق لوحة المفاتيح، فُتِحَ الباب واندفعت «رجاء» تدلف من خلاله ثم تغلقه خلفها.

اقتربت لتشاركني الجلوس على طرف فراشي فوضعت حاسوبي جانباً؛ لأنظر إليها في انتظار أن تفصح عمَّا بها ، تنفَّست للحظات ثمَّ قالت مضطربة:

- المقدم عاصم هنا .. إنه يحتجز دكتور يحيى في مكتبه منذ نصف ساعة على الأقل.

- وما المشكلة في ذلك ؟!

تأمَّلتني بدهشةٍ لدقيقة كاملة بينما أنالم أكن متعجلة لأعرف الإجابة، لمعرفتي بها .

اقتربت منِّي قليلاً محتفظة بعلامات دهشتها تحاول قراءة تعابير وجهي الهادئة ولكنها فشلت، فأطرقت للحظة لتعيد حساباتها مجدَّداً، ثمَّ رفعت رأسها وقد بدت أكثر تماسكاً وهي تتساءل بـرَوِيَّة.

- رؤى[1] .. هل انتظمتِ أخيرًا على تناول جرعات دوائك دون علمي ؟.

(١) رؤى: هي بطلة رواية سابقة بعنوان "وقالت لي".

تساؤلها جعلني أبتسم، يبدو أنها ظنت أنَّني أعاني البرود الذي يعقب المداومة على تناول تلك الأقراص الدوائية المقيتة، على الرغم من أنَّ كل مَن يعرفني مِن رُوَّاد هذه المصحة يعل بأنني لديَّ قدرة على التداوي بدون الانتظام عليها إلا على فترات، ولن أفكر يوماً في التضحية بأشباحي الخاصة لو تسبب الدواء بشفائي، إنَّها مُلهمتي وأنا عملي هو الكتابة، فكيف أُضَحِّي ببناتِ أفكاري من أجل حياة باردة تخلو منهم؟.

- هل ستتعرفين عليّ اليوم يا رجاء؟!.. أنا كما أنا متمرِّدة.. ولن أغادر مكاني هنا حتى تتوقف تكاليف إقامتي التي يرسلها عمِّي من الخارج ليريح ضميره المُعَذب تجاهي .. أنا لا أعاني إحدى حالات البرود التي تظنِّينها .. كل ما هنالك أنَّني متأكدة من أنَّه لا يملك أيَّ دليل واضح يدينكم به .. حتى وإن استطاع استنتاج المصلحة بينكما.

شخص غيري كان سيظنُّ أنَّها تخشى على نفسها من عواقب معرفة «عاصم» بالحقيقة ولكنَّني أعلم جيداً أنَّ كل ما تخشاه وتجعلها تضطرب هكذا هو خوفها على مصير «يحيى و جليلة وأمل وحسن وغفران» ، وكان لزاماً عليَّ أن أطمئنها على عائلتها الجديدة.

- لا تنسي أنَّ دكتور يحيى يتقصى بطريقته عن سير التحقيق في القضية وأنَّه أخبركِ بأن «عاصم» لم يعد مسؤولاً عنها.. بل وتم صدور قرار بنقله إلى الصعيد.

شعرت بأنها تبتلع كلماتي وكأنها دواءٌ على مضضٍ، صمتت كثيراً غير مقتنعة بما تسمع، لا زالت الشكوك تراودها.

حرَّك الهواء ستائر الغرفة البيضاء فسمعتها تتنفس بعمق شديد ثم زفرت ببطء متمتمة:

- للّه الأمر من قبل ومن بعد .

حدقتُ قليلاً في أرض الغرفة اللامعة ثم التفتت نحوي قائلة:

- غداً موعد زيارة زوجك.

- ليس الآن .. أريد أن أنهي كتابي.

راقبت «رجاء» التأفُّف البادي على وجهي وقالت متعجبة:

- أنت مؤخراً صرت تتأفَّفين من زياراته دون سبب .. ثم كتاب ماذا الذي تتحدثين عنه ؟.

لم أكن على استعداد لمناقشة الجزء الثاني من السؤال لذلك سمحت لها فقط بالخوض في الأول كما تشاء بالإضافة إلى أنَّني لم يكن لديَّ مانع من مشاركة مشاعري تجاه هشام في تلك اللحظة.

- أشعر بأنَّ حياته متوقفة من أجلي يا رجاء .. ابنتاه في حاجة لأم بديلة حقيقية بعد وفاة والدتهما، وأنا لا أصلح للقيام بهذا الدور.

لم أشأ أن ألتفت في تلك اللحظة إلى سقف الغرفة أعلى الستائر فأنا علي يقين أن هالة تجلس هناك تنظر لي نظرات تملؤها الخيبة والخزي.

شعرت بلمسة على قدمي، فأدرت وجهي تجاه «رجاء» التي كانت تربت عليها قائلة:

- تريَّثي قليلاً، فأنا أراه قادراً على تدبير أموره مع والدته وينتظر قرار عودتك بصبرٍ.

رأيها في زوجي لن يتغير أبداً رغم اختلاف شخصيتها التي كانت عليها، فمنذ عام فقط كانت منغلقة تموت الحياة على أعتابها قبل أن تفكر في الولوج إليها، هشَّة وقابلة للكسر بسهولة رغم قناع الجمود التي كانت ترتديه دوماً مع سترة التمريض.

لكنني استطعت العبور، وصلت إليها في عقر دارها دون أن أبذل جهداً يذكر، فقط حدثّتُها عن والدتي المتوفاة فقلت لها: إنَّها كانت تكرهني بشدة وتنعتني دوماً بالدميمة، لذلك قتلتها أو كما يقول دكتور يحيى، وذلك الذي كان يعالجني من قبله أنني فقط تركتها تحترق حتى تفحَّمت.

لقد ضغطت على نقطة أصبحت حساسة للغاية لديها منذ موت ابنتها، ولقد علمتُ بذلكَ عندما بدأت تحكي لي عن وفاة «سلمى» وكيف أنَّها أهملتها فكانت سبباً في مقتلها؟.

فهمت من حديثها أنَّ ما يؤلمها حقَّاً هو عدم بَوْحها يوماً لصغيرتها بمدى حبها، لقد كانت تراها فقط مجرد مراهقة تبالغ في كل ما يحدث لها وتتعامل معها على هذا الأساس، لم تقصد أبداً أن تسخر من قلة جمالها أو عرجة قدمها.

لذلك استماتت «رجاء» في الدفاع عن والدتي، وعن حبها المزعوم لي الذي دفن رغماً عنها في المقبرة مع جثة أبي – رحمه الله –.

مسكينة هي.. لم تكن تعلم أنَّ أمِّي المجنونة المتفحمة كانت تقف خلفها تنظر لي بعينين يتطاير منهما الشرر كشياطين الجحيم ، تنفي كل كلمة تخرج من فمها .

تقاربنا أنا و «رجاء» وباتت صداقتنا قوية لا أسرار فيها .. كما ظنَّتْ هي!، وبدأت تساعدني في الاقتراب من «أمل» ومعرفة حكايتها وهي مندهشة كيف يطلب مني دكتور «يحيى» أن أفعل هذا، إلا أنها انصاعت في النهاية إلى طلبه؟.

لن أنسى أبداً الصدمة التي ألمَّت به وهو يستمع إلى وقتها عندما وصلت من الحكاية إلى نقطة الممرضة السمراء من قصة» أمل» ، بدا مشوَّشاً لبعدها بدقائق حتى انتهيت من القصة .

ثم بدأ يتمتم مذهولاً بينما عيناه تشتعلان غضباً «إذن فلقد كان هو .. هو نفسه مَن اعتدى على زوجتي.. وبنفس الطريقة التي جعلتها تنهي حياتها».

لم يكن يوجِّه كلماته نحوي .. لقد كان ينظر إلى الفراغ ويهذي «لقد بحثت في كل شيء .. كل ورقة .. كل ركن في المنزل .. كل مكان ذهبت إليه .. كل شخص تعاملت معه .. كيف لم أفهم أنَّ المجرم الذي أبحث عنه هو نفسه الطبيب؟».

لم أفهم ماذا حدث له بعدها، فلقد احتقن وجهه بشدة ثم سقط أرضاً مُمسِكاً بمؤخرة رأسه بينما أنفه كان ينزف وجسده كان يرتعش، لم يكن فاقداً للوعي وفي نفس الوقت لم يشعر بمَن حوله .

أخبرتني «رجاء» بعدها بتشخيص الأطباء، لقد تعرَّض لضغط نفسي شديد تبعه بعض الأعراض الجسدية المتقدمة المصاحبة لمرض ارتفاع ضغط الدم .

كانت «رجاء» في حيرة ممَّا حدث له وتسألني: لماذا ؟ فأخبرتها ممَّا فهمته من هَمْهماته فانفعلَتْ بشدة، وبكَتْ من أجله منسحبة من الغرفة .

حتى جاء ذلك اليوم الذي سألتها فيه «لماذا لم تفكري في الانتقام من قاتل ابنتك ؟ لماذا تهملين حقَّها في القصاص من قاتلها كما أهملتها وهي على قيد الحياة».

لم تجبني .. نظرت لي بألم كأنني طعنتها في قلبها وغادرت واختفت بعدها لثلاثة أيام ، ثم ظهرت فجأة بوجه مُختلف غير الذي عهدته عليها لتسألني بنبرة غريبة «كيف نفعل ذلك» ؟

كان من واجبي حينها أن أرمي تحت قدميها كلَّ ما لديَّ من أفكار ومعلومات كانت تعلمها، ولكنها لم تفكر يوماً بأن تستفيد منها، فالجميع كان يعلم بعودة دكتور «يحيى» للمصحة ومزاولته للعمل بعد انقطاع، ولكنه في الوقت ذاته كان غريب الأطوار يظهر عليه الاضطراب أحياناً.

حتى أنه لم يستطع أن يشخص حالة «أمل» النفسية والتي كانت واضحة للعيان، بل والأكثر من ذلك أنه لجأ لمريضة أخرى لتفهم قصتها وتنقلها له في سرية تامة.

ثم ما حدث له بعد أن استطاع الربط بين ما حدث لـ«أمل» وزوجته، ليس ذلك فحسب بل عاش المأساة كاملة بكل تفاصيلها في كلمات «أمل» وكأن زوجته قد بُعثت من جديد واعترفت له بالعذاب الذي كان يطحنها ويدفعها للانتحار.

لقد ظل فاقداً للشعور بكلِّ مَن حوله لأسبوع كامل، وعندما استفاق وجد «رجاء» تنتظره لتحمل له كل خطط الانتقام التي اتفقنا عليها، وأولها أهمية أن ينتظر خروج «حسن» من محبسه، ثم يبدأ هو بتنفيذ انتقامه.

هذا الوقت ضروري جدًّاً لإبعاد «أمل» عن دائرة الشبهات وللتمويه فيصعب إيجاد الرابط بينهم.

الفكرة أعجبته، وأنعشت الرجل الميت بداخله، ولكنه أراد أن يضيف نَكْهَته الخاصة فكانتْ هناك عبارة ..« ردّ شرف».. التي نقَشها «حسن» على جثتي «شاهين وسيد» ، والتي نقشها هو بيده على جثة الطبيب، وقد كان من الضروري أن تنقش أيضاً على جثة «رمزي» الهارب كما طلبت «رجاء» .

ولكن وللسخرية لم يَنَل «رمزي» موتةً دراميَّة كالتي كان يستعملها لمواجهة جميع مشاكله والتي كان يتقنها على الوجه الأمثل.

تلاقى أربعتهم على مبدأ واحد جمعهم بعد أن فرقت الثغرات القانونية دماء أحبائهم بين القبائل وحشرتهم في عنق الزجاجة .

فلم يجدوا منفذاً سوى تنفيذ العدالة بأيديهم .. «رد شرف» .. لم تكن مجرد عبارة تنقش على أجساد المجرمين، كانت دعوة إلى كل مظلوم بألا يترك نفسه للموت قهراً .. وأن القصاص سيأتي ولو بعد حين .



هل يُعقل أن أظل عشرة أيام كاملة أنظر إلى تلك الصفحة البيضاء لا أستطيع أن أكتب فيها ولو حرفاً واحداً؟، كتاب كامل طريح نهاية تتوقف على ردة فعل شخص واحد!.

لا أحب الشعور بالقلق أو الاحتياج، أكره التواصل مع الآخرين بشكل مباشر وبالرغم من ذلك أجدني مضطرة إلى الحديث مع تلك الحماسية التي لم أجنِ من خلفها أيَّ نفع حتى الآن، إنها حتى لم تحاول شكري على ما قدَّمْته لها!.

التقمت أصابعي الهاتف المغلق دائماً بجواري، ولنصف ساعة كاملة أراود نفسي وأحايلها لتتركني أجري المكالمة الهاتفية المطلوبة ولكنني فشلتُ أيضاً، زحزحة الأهرامات الثلاثة أهون على نفسي من التواصل صوتياً مع مَن هم خارج دائرة رؤيتي اليومية!، لذلك أفضل مواقع التواصل الاجتماعية التي تتيح كل شيء كتابياً.. لحظة!.. كيف لم أفكر في هذا الأمر؟.

أغلقتُ صفحتي البيضاء المثيرة لأعصابي وفتحت موقع التواصل وكتبت لها رسالة وانتظرت أن تراها! ريثما أحاول ترتيب أفكاري وفقاً لِما حدث الأيام العشرة المنصرمة.

لقد تركتني «رجاء» منزعجة عندما حضرت إحدى الممرضات؛ لتخبرها بأن الدكتور «يحيى» قد عاودته أعراض ارتفاع ضغط الدم ثانية وسقط أرضاً

بينما ضيفه المنزعج الذي كان يشاركه غرفة المكتب وقتها يساعد طبيباً آخر في حمله إلى الأريكة.

في اليوم التالي أخبرتني بأن «عاصم» ظل ملازماً لـ «يحيى» حتى تم نقله إلى غرفة خاصة ليتلقى الرعاية والعلاج اللازم.

قالت لي: إنَّه كان يقف مستنداً إلى الجدار البعيد في الغرفة ينظر له بنظرة غريبة لم تستطع هي تفسيرها، بينما الأطباء من حوله يتهامسون بأن تلك الحالة واتَتْه من قبل بشكل أكثر خطورة، وأنه يظهر عليه علامات الاضطراب النفسي ولذلك سيتم رفع الأمر إلى إدارة المصحة، وفي هذه الحالة ستتم إحالته إلى أحد الأساتذة الكبار في مجالهم ليقول كلمته الأخيرة في شأنه!.

وانصرف «عاصم» بعدها ولم يعد. كنتُ أظنّه سينتظر حتى يسترد «يحيى» عافيته ليتحرك رسمياً وتهتز معه المياه الراكدة، ولكنه لم يفعل.

أول أمس.. أعدت «أمل» حقيبتها لتعود إلى منزلها، بينما حضر الدكتور «يحيى» ليودعنا، فلقد حصل على إجازة طويلة كما أمرَتْه إدارة المصحة حتى يتأكدوا من سلامته النفسية.

لا.. لقد كان يودعني أنا فقط، أما فهي، فقد كانت تنظر له منذ أن دخل الغرفة وكأنهما على موعد لم يخلفه، كانت متأنقة للغاية، تطلي شفتيها بلون الكريز وتبتسم لعينيه المتأملة لحالتها الكرزية تلك.

ربما تذوقتم الكريز يوماً ما، أما هو.. فقد سعى إليه الكرز بنفسه، يتحدث معه لدقائق كالساعات، ودون أن يدري؛ أطعمه حبَّاته حبَّةً حبَّة.. حبَّة أمل.. وحبَّة اشتياق.. وحبَّة لا توقف فيها ولا انتهاء!

وعادت الغرفة لي وحدي، أفتح عيني صباحاً على وجه «رجاء» المبتسم، ثم أستمع مجبرة إلى نشرة أخبارها الصباحية عن صحة السيدة «جليلة» التي بدأت بالتحسن ولذلك هي سعيدة، وعن «حسن» الذي يسعى جاهداً؛ ليقف على قدميه من جديد، و «غفران» التي تقضي وقتها بين دراستها صباحاً التي عادت إليها ولكن منزليًّاً فقط، وبين زيارة والدتها بعد الظهيرة.. وبين رسالة «حسن» الذي يرسلها لها يوميًّاً وقت الغروب يشاكسها دون أن يسأم منها « انتبهي لمذاكرتك يا فاشلة».. لتجيب هي عليه بنفس الرسالة المكررة التي تجعله يبتسم؛ ولا أحد غيرها قادر على ذلك «تركنا لك النجاح يا بشمهندس».

نغمة رنين، إشعار وصول رسالة جعلني أدفع أفكاري جانباً، لقد قرأتْ رسالتي وقامت بالرد، وليتها لم تفعل، لقد كانت حروف رسالتها تنضح بالحيرة أكثر مني بكثير، فلقد كتبت لي تقول :

- أولاً: أشكركِ يا رؤى على المعلومات الغزيرة التي قدمتها لي.. وكنتِ حريصة على أن أنقلها لزوجي.. ولكنه.. عاد من الخارج بعد غياب النهار بأكمله ليخبرني بأن أنسى القصة.. والحقيقة أنا حائرة من ردة فعله هذه فهي غريبة عليه.

صدمتني فلم أجد ما أقوله لها، صمتُّ وأنا أقرأ ما كتبته مرة بعد مرة، ويبدو أن صمتي أقلقها فأرسلت تبرأ ساحة زوجها قائلة:

- أعتقد أن الهزة التي تعرض لها في عمله كما حكيت لكِ سابقاً هي السبب في حالته تلك.. لقد جعلوه يتعلم درسه بالطريقة الصعبة.. لقد أصبح مضطهداً في الوزارة.. وأنا ضميري يؤنبني بشدة؛ لأن التحقيق الصحفي الذي قمت بكتابته هو السبب في كل ما حدث.

بدأت أشعُر بالسأم من الجميع، لقد توقعت أن تكون علاقتي بـ «أروى» ذات نفع منذ أن تعرفت عليها، فهي التي سعَت إليَّ بحماسها المعتاد وهي مبهورة بتجربتي الفريدة من نوعها كزميلة لمهنتها أكتب للناس من خلف أسوار مصحة نفسية، أشادت بي كثيراً وبدأت تراسلني كأصدقاء، فقصَّت عليَّ حكاية صديقتها «فنار» كنموذج لزوجة استطاعت العودة بزوجها من طريق الشهوات إلى الطريق القويم.

لم أكن أمنح لها كثيراً من الاهتمام حتى بدأت تحكي لي عن مشاكلها مع «عاصم» زوجها الصارم العاشق للروتين في عمله، ومدى التناقض بينهما.

استطعت أن أميزه وأعرف بأنه هو نفسه الذي تتكلم عنه «رجاء» وتشرح لي بحيرة التناقض بين شخصيته وبين معاملته المختلفة للسيدة «جليلة» وتعاطفه معها.

ولكن بماذا أفادني كل هذا؟، فلقد خذلني «عاصم» بردة فعله الغريبة التي كنت أعتمد على عكسها تماماً في وضع النهاية المناسبة.

زفرت حانقة ونهضت نحو النافذة أرقب الطيور المحلقة في جماعاتٍ، سربٌ منمَّقٌ لصورة تزعجني دون أن أعرف السبب، لا أفهم كيف يشعرون بالراحة وهم مجتمعون هكذا؟، حتى الطيور تضطهدني مجتمعة أمام سماء نافذتي، كم أغبط تلك السحابة الوحيدة هناك!، أظنها تشعر بخصوصية أكبر مما أشعر بها الآن.

– رؤى.!

التفتُّ من فوري، كيف لي ألَّا ألتفت وهو أحبُّ صوتٍ لديَّ؟، الوهم الوحيد الذي لا أطرده من عقلي، ولا أناديه بالشبح حتى إن استقرت الأسياخ الحديدية في عنقه النازفة:

- أبي.. لم تأتِني منذ مدة طويلة. !

نظر لي مؤنِّباً، ولكنه لم يتخلَّ عن صوته الحنون قائلاً:

- لماذا تلعبين دور الشريرة يا ابنتي؟.. لماذا تريدين لهم التعاسة؟!

لم أطرق برأسي، لم أشعر بالندم ولو للحظة، حتى وهو يقف أمامي وقفته الضبابية تلك، واضعاً يديه خلف ظهره، ولونه شاحب، حاولت أن أقترب منه ولكن كالعادة لم أستطع لمسه، في كل مرة يوقفني وينبِّهني إلى أنه في عقلي فقط، لأرجع مكاني ثانية، كما فعلت الآن وأنا أحاول أشرح له:

- أبي.. أنا لستُ شريرة، ولا أرغب بتعاستهم.. أنا فقط أرى أن سعادتهم التي يعيشون فيها الآن ما هي إلَّا سعادة شخصية زائلة.. نعم ستزول ولن يبقى لها أثرٌ في وجدان المجتمع.. أما ما يجعلها خالدة.. فهو النهاية المأساوية.. التي تثير الدماء في العروق.. التي تجعلنا نفكر!

زمَّ شفتيه برفض لِما يسمع، واختفى من أمامي فجأة كما حضر فجأة، الحنين تملكني وأنا أنظر في أثر ضبابه المتلاشي، واستدرت ثانية نحو السحابة الوحيدة لم أجدها، لقد اختفت مثله تماماً، وتركتني أعاني تلك الأسراب التي تغزو خيوط الشفق وتتلاعب بها بتلك الخطوط المنحنية التي تصنعها.

حانت مني التفاتة نحو حاسوبي الساكن هناك ينتظرني، سأنتظر مثله ولن أضع النهاية الآن، لا زال الأمل يراودني في نهاية خالدة تهز أرجاء المجتمع.

لازلت أعتقد بأن الحياة الحقيقية ليست هي تلك اللحظات اللطيفة التي نقضيها أمام جهاز تلفاز نجتمع حوله في هدوء، ثم نطفئ الأنوار ونذهب للنوم..

بل هي تلك التي نقضيها بداخل سيَّارة مسرعةٍ نصرخ من النشوة المغلَّفة بالخطر والخوف بينما الهواء يضرب وجوهنا بلا رحمةٍ .. لحظاتٌ تقطع الأنفاس !.



تمت بحمد الله



{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }


عصير
الكتب
fb.com/groups/Book.juice

إذا ما الجُرحُ رَمَّ على فسـادٍ

تبيَّنَ فيـه تفريـطُ الطَّبيبِ.

خالص الشكر والتقدير لفريق المراجعة؛ لما بذلوه من جهدٍ ووقتٍ

في سبيل إخراج العمل على أحسنِ صورةٍ قدر المستطاع.

الكاتب الروائي : د . أحمد السعيد مراد

الطبيب النفسي : د . محمد فؤاد

المستشار القانوني : أ . أسامة الوحش

القارئة المخضرمة : أ . صفاء شعلان